جناحان

رواية

جناحان

رواية

وائل مكي

مراجعة لغوية: حمدي عبد الرازق

غلاف: د. بولا وجيه

رقم الإيداع: ٣٠٢٢٠/ ٢٠٢١

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٨-٥٥-٧

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما ـ أمام جنينة مول ـ مدينة نصر

Alfouad_Publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

شكر خاص.. صالون سالمينا الثقافي

جناحان

رواية

وائل مكي

الفؤاد للنشر والتوزيع

الكتابة طريق شاقة، فإلى صاحبتي في الطريق، أهدي هذا الكتاب...

زوجتي نورهان

بين البحر والبحيرة

لم تطل الشمس من خلف الأفق على المدينة منذ ثلاثون عامًا، إلا وتلمح عم ربيع يسبقها إلى الميدان خارجًا من المسجد، تلقي بظلالها البرتقالية على وجهه تغسله؛ تُحْيي خلاياه الميتة، يفتح (كشك) الجرائد ويفرش الإصدارات اليومية، يعد الشاي، يطالع بعض إصدارات المجلات والجرائد في انتظار الزبائن، يراقب المارة الذين حفظهم مع الوقت، فهذا رجل يلبس نفس البدلة الصيفية طوال العام، وتلك المرأة العجوز، دائمًا ما تضع غطاء رأس صغير تربطه تحت ذقنها، تشتري منه الجريدة وتذهب.

خبر على غلاف مجلة أثار فضوله، عن ظاهرة غريبة، رجل يمكنه اعتراض المكالمات الهاتفية وسماعها بدماغه فقط دون استخدام أجهزة، ليس الخبر ما استرعى انتباهه، لكنه اسم المحرر (البراء أحمد)، ذلك الشاب يمر عليه يوميًا في طريقه إلى عمله، ينظر إلى مجلة (بُرَاق) التي يعمل بها، يطالع العناوين، يلقي السلام وينصرف دون أن يبتاع شيئاً. مر كعادته في السابعة إلا الربع صباحًا، ألقى عليه السلام فرد بأحسن منه وبادره قائلاً:

ـ «اسمك يزين الغلاف يا أستاذ براء».

نظر له مبتسماً:

ـ «شكرًا يا عم ربيع».

واليوم على خلاف باقي الأيام اشترى عدة نسخ من المجلة.

سار البراء مسرعًا كأنما ينحدر من صببٍ، إلى مقر عمله في الجانب الآخر من الميدان، صعد إلى البناية الجديدة في الطابق الثالث عشر واتجه إلى الركن الخاص به في وسط مساحة شاسعة من المكاتب التي يفصل بينها فواصل مربعة خشبية المسماة (كِيُوبيكَل)، لا يزال هناك قلة تحب ملمس الورق المصنوع من لحاء الأشجار، ولتلك القلة ظلت مجلة (براق) تصدر في نسخة ورقية.

نقر نقرتين بسبابته على المكتب فطاف في الهواء (الدرون فون) مغادرًا الشاحن الذي يبيت ليلته فوقه، وسبح قبالة وجهه، مصدرًا نغمة قصيرة منتظرًا تعليماته، فقال بصوت خفيض «تعليقات القراء»؛ فاستقر على المكتب أمامه وأضاءت شاشته على صفحته في موقع (بن ريڤيو) ليرى تعليقات القراء على مقالته التي أسعدت صباحه كثيرًا، وفي أثناء ذلك بدأ الزملاء في التوافد على المكتب يلقون التحية على زميلهم، يهنئونه على تصدر مقالته غلاف المجلة لهذا الشهر. تحقيق بدأه منذ أشهر حين اتصل به رجل يدعى حازم السنوسي على (الدرون فون) من رقم مجهول، ثم بعد أن قابله اتضح أنه كان يتصل بغير جهاز اتصال، وإنما كان وسيطه في الاتصال هو دماغه، نعم يستطيع ذلك الرجل رؤية الاتصالات الإلكترونية وسماعها، بل وإجراء مكالمات بعقله فقط، كان قد عاني قبلًا من ضوضاء مستمرة في رأسه لا يرى لها مصدرًا، زار الكثير من الأطباء لكنه لم يجد تشخيصًا لحالته، حتى مع الرسم الرباعي الأبعاد لمخه، فقرر أن يتعامل مع

الأمر بنفسه، إلى أن اكتشف موهبته التي ظهرت بعد سن الثلاثين، راح يستخدمها لمصلحته في البداية، فكان يستطيع أن يعترض أي مكالمة أو (إيميل) أو محادثة إلكترونية ويعرف معلومات عن أصدقائه وأهله ومديريه وزملائه، ويوجه الأمور لمصلحته، فحصل بذلك على ترقيات و صفقات و علاقات غرامية، بل وحتى أرقام حسابات، لقد انتفع كثيرًا بموهبته بالباطل والحق. بعد فترة تكاثرت الأصوات في دماغه حتى أصبحت لا تبارحه ليل نهار، فتش عن حل، ووجده عند رجل له فلسفة في التأمل ويحضر جلساته الكثير من المريدين، شرح له موهبته وكيف تتحول إلى نقمة، ساعده على التحكم في تلك القدرة بكثير من التمارين الذهنية، حتى أصبح يتحكم فيها تحكمًا كاملًا، فتعمل وقتما شاء ويغلقها وقتما يشاء، فكان شكره لتلك النعمة أن وجه موهبته للخير ومساعدة الناس.

ـ «هل أنت مستعد لجولة أخرى؟».

كان هذا سؤال رئيس التحرير، وصديقه نهير، هز البراء رأسه بمعنى «أنت تعرف الإجابة» وإن لم يحر جوابًا، ضحك نهير ضحكة قصيرة غير متكلفة ثم قال:

ـ «جيد، منتظرك في مكتبي بعد الاجتماع».

ـ «ماذا لديك يا نهير؟»

تجرع نهير آخر ما تبقى في فنجان القهوة.

ـ «مقالاتك ترفع من مبيعات الجريدة خاصة النسخ الإليكترونية، وتزيد التفاعل بشكل كبير على صفحاتنا».

ـ «البضاعة الجيدة لا تحتاج لدعاية».

قالها البراء بزهو، غمغم نهير مؤيدًا ثم استطرد:

ـ «إن بعد النجاح تأتي -دائماً- نجاحات متتابعة».

لمعت عينا البراء وتنفس بصوت عالٍ متحمسًا متسائلاً:

ـ «لديك طرف خيط آخر أبني عليه تحقيقي القادم؟»

ـ «أكثر من مجرد خيط»

رد نهير مسرعًا بلهجة انتصار:

ـ «بل ظاهرة تعززها شواهد، وعليك بالدلائل».

وفتح على سطح مكتبه فيديو، ثم دحرجه بسبابته والوسطى في اتجاه البراء فسبح باتجاهه حتى التقطه بإصبعيه، فيديو مصور بكاميرا هاتف قديم؛ جودة قليلة وصورة مهتزة مبتورة الجانبين، منطقة زراعية يحدها جبال من الشرق، حيث يتبين الخيط الأبيض من الأسود، الممسك بالهاتف يصرخ على صديق له «انظر» ويشير بسبابته إلى شيء ما في السماء، والآخر يصرخ «يا للهول! ما هذا؟»، اللهجة صعيدية، كانا يركضان ويصرخان، الكاميرا تهتز بشدة، يبتعدان عن الشيء الذي ينظران إليه، كان هناك شيء ما يحلق في الهواء بعيدًا فوق الجبل، لا تستطيع تبين حجمه أو كنهه من تلك المسافة، لم تكن الإضاءة

تساعد على ذلك، كان حجمه لا يتناسب وأي طائر معروف، كان مواجهًا للكاميرا في البداية، صوت رجل أتى مسرعًا نحو الشابين يصيح: «يا أولاد، ماذا تفعلان؟» فزع الشباب أكثر وركضا بأقصى سرعتهما، فأصبح لا يُرى في الفيديو إلا صور مهتزة للأرض وأقدامهما، يُسمع صوت لهاثهما بينما يصرخ عليهما الرجل متوعدًا، ثم انقطع الفيديو هنا.

ـ «ما رأيك؟»

أطرق البراء مفكراً:

ـ «لا أدري، الفيديو قديم وغير واضح، ربما يكون أي شيء» ثم مط شفتيه «لا يمكن أن نبني قصة على هذا».

رد نهير مسرعاً:

ـ «صبرًا فإنك لم تعرف أي شيء بعد».

صمت البراء مصغيًا، فاستطرد نهير:

ـ «هذا فيديو كان موجودًا على موقع قديم، كان يسمى (يوتيوب) قبل أن تشتريه (ڤوكسيل)».

لم يبدُ على البراء أن لديه معرفة بما يقوله صديقه، فهو لم يعرف يومًا غير (ڤوكسيل)، ولذلك ضيق حدقته منتظرًا المزيد:

ـ «أحد أصدقاءنا المُنقبين في أرشيف الإنترنت، عثر على هذا الفيديو، مع بعض المعلومات التي تتعلق به، والتي ذكرت في بعض الصحف ومواقع التواصل

الاجتماعي وقتها، وحصلنا على بعض المعلومات الجيدة التي ربما تنمو لتصبح درة تاج تحقيقاتنا».

ـ «هل لك أن تطلعني عليها؟»

سحب نهير بإصبعيه مجموعة من الملفات والصور على صفحة مكتبه، وألقاها داخل مربع يمثل مكتب البراء:

ـ «أرسلت لك كل ما تجمع لدي من وثائق ومعلومات طالعها وابحث عن طرف خيط تبدأ منه بحثك».

بدون كلمة أخرى انصرف البراء يشق طريقه إلى مكتبه متفاديًا -أو بالأحرى هي التي تتفاداه- الهواتف السابحة خلف أصحابها في فضاء المكتب، و جلس إلى مكتبه، وضع يده على صندوق صغير، ملتصقًا بجانب حائط مكتبه يشبه صندوق البريد، قرأ الصندوق بصمات أصابعه، سحب منه البراء شيئًا وهميًا وضعه على مكتبه، فانتثرت أمامه الملفات التي أرسلها له نهير.

مضى نهار البراء بين مطالعة عشرات الصحف ومئات الصور والفيديو، وأرشيف مواقع التواصل القديمة ليخرج بمعلومة، وكان لا بُدَّ أن يجد طرف خيط يبدأ منه بحثه، في القصة كان الشريك الدائم لذلك الكائن هو رجل ظهر في الفيديو، هو الوحيد الذي توفرت معلومات عنه، من المؤكد أنه توفي، بحث كثيرًا عن الأحياء من أبنائه، وأرسل الكثير من الرسائل إلى مصادره وبعد نهار كامل في البحث – وهو وقت طويل- توصل إلى أن له ابنًا لا يزال على قيد

الحياة، وهو في الإسكندرية حيث بدأت الأحداث وكانت مسرحًا لأغلبها، وحصل على رقم هاتف، اتصل به وجد أنه رقم دار للعجزة، والابن نزيل به ولا يستطيع الرد الآن، لأنه لا يستطيع التمييز في بعض الأحيان.

***

لطالما كان السفر بالقطار متعته، فهو يحب انطلاق القطار مع الأمان الذي يوفره له، يضغط أنفه على الزجاج؛ فينطبع بخار زفراته عليه، يشاهد القرى تمر سريعًا قرية تلو الأخرى، يتمتع بالمناظر حتى لو كان القطار السريع (الرمح الأسود)، يقطع المسافة في أقل من خمس وأربعين دقيقة، يعشق اللون الأخضر على جانبي الطريق، ولذلك عند زواجه اختار فتاة تهتم كثيرًا بالزراعة والنباتات، على الرغم من كونها درست إدارة الأعمال الإلكترونية، لكنها تمضي أغلب أوقاتها في العناية بمزروعاتها، كان يحب هوايتها؛ فهي تجعلها أهدأ دائمًا، لم تدب بينهما الكثير من الخلافات حتى مع تأخر الإنجاب، قد يظهر على السطح بعض الزَبَد، الذي يذهب مع الوقت جُفاءً، ويمكث الحب في أرض حياتهما، لكن مع الوقت تكاثرت عليهما الأعباء، وتحول الزَبَد إلى أمواج عالية تزعزع استقرار سفينة حياتهما.

ـ«لا يمكنك الاستمرار في حياتك الحالية على ما كنت عليه قبل الزواج مني».

ـ «لماذا؟ ما العيب في حياتي السابقة؟ وهل خدعتك عندما طلبتك للزواج؟ لقد كانت حياتي دائمًا بها بعض التهديد والبحث والاستقصاء والكثير من الأسفار والغياب عن المنزل، وقد أحببتني وأنت تعلمين ماذا أعمل و ...».

ـ «لكنك الآن زوج، وعليك مسئوليات، وقد أخذت كفايتك من المخاطر، فلا ضير من أن يرسو قطار حياتك إلى... ».

ـ«...محطة سيدي جابر»

قطع حبل ذكرياته صوت يعلن وصول القطار إلى وجهته، قام من فوره وأخذ سترته وترجل من القطار.

يحب إسكندرية في الشتاء، ومن لا يفعل؟ لا بُدَّ أن (الإسكندر المقدوني) وقعت عيناه على قطعة الأرض هذه -الواقعة بين البحر والبحيرة- في الشتاء فهام بها عشقًا.

كان اليوم لا يزال بكرًا، لديه وقت لأن يذهب إلى دار العجزة ومقابلة الشيخ والعودة إلى القطامية قبل العصر، انطلق إلى المعمورة حيث تقبع (دار أرائك)، استغرقت المسافة من سيدي جابر إلى المعمورة (بالترام) المعلق ثلاث عشرة دقيقة، ثم استقل دراجة (سايكْرِنت) إلى الدار وسط حدائق الجوافة والموالح، في بقعة هادئة بعيدًا عن البحر، فيلا حديثة نسبيًا محاطة بسور من حجارة حمراء وسوداء.

استقبلته امرأة في منتصف العمر، ترتدي فستانًا زهري اللون فوقه سترة صوفية قرنفلية، تضع حجابًا مشجرًا بالأخضر والبني، ملابس موحدة تبعث على البهجة، نظرت له مبتسمة متسائلة:

ـ «ما علاقتك بالحاج نور الدين؟»

ـ «أنا صحفي وأرغب في سؤاله بعض الأسئلة عن والده».

مطت شفتيها وهمهمت في إحباط قائلة:

ـ «أخشى أنه لا يمكنك الحصول منه على أي شيء، فهو مريض (ألزهايمر)، وأغلب الوقت هو في عالم آخر».

أطرق مفكرًا ثم سألها:

ـ «هل يمكن أن أراه فقط؟»

ـ «أظن أنه لا مشكلة في ذلك، اتبعني من فضلك».

سار خلفها صعودًا إلى الطابق الثاني، على درج رخامي أبيض، مغطى بسجاد أزرق، سارا في ممر عريض، في آخره ضوء الشمس يدخل من باب شرفة، التفتت أثناء سيرها وقالت:

ـ «الأستاذ نور في (الڤيراندا)».

خرجت وخرج خلفها إلى شرفة واسعة مظللة، بها كراسٍ من الخوص عليها وسائد إسفنجية، يجلس رجال ونساء يبدو أن حالتهم لا تسمح بالنزول إلى الحديقة، اتجهت إلى أحدهم، في العقد السابع أو الثامن، ناحل الجسم، يكاد

رأسه يخلو إلا من بعض شعيرات بيضاء تتناثر على رأسه المنقط بنقاط رمادية، دار البراء حول الكرسي ليواجهه فيما كانت المشرفة تتحدث إلى الشيخ:

ـ «حاج نور، أستاذ براء صحفي، جاء يؤنسك قليلاً».

لم يحر الشيخ جوابًا، فأعادت نداءها ثانية:

ـ «يا حاج حضرتك سامعني؟»

فرفع الرجل رأسه لأعلى ينظر إليهما وقال:

ـ «من أنت؟»

فتهللت أسارير الصحفي الشاب وقال:

ـ «أنا البراء أحمد يا أستاذ نور، جئت إليك للحديث بشأن والدك».

قال بنبرة واهنة بالكاد يسمعها:

ـ «كان والدي محاسباً».

نظرت المشرفة إلى البراء وقالت:

ـ «اجلس بجانبه، وتحدث معه قليلًا، فالاتصال البشري مفيد لمن في حالته».

جلس قبالة الشيخ المسكين، وحرص على ألا تغيب الابتسامة عن وجهه طوال جلسته معه، ثم بعد هنيهة من الصمت قال:

ـ «هل تريد أن تحكي عن والدك، أو والدتك؟»

ـ «من أنت ولماذا تسأل عن أبي وأمي؟»

ـ «أنا صحفي، عرفت أن والدتك كانت لديها حالة غريبة، هل حقًا اتُهم والدك بقتلها؟»

ضحك الرجل، وقد بدا عليه أنه وجد ما يقدح زناد الكلام لديه:

ـ «ما هذا الكلام؟ أمي لم تُقتل، بل ماتت ميتة ربنا».

سكت البراء قليلًا، وهم أن يطرح سؤالًا آخر، لولا أن قاطعه الرجل:

ـ «لقد كان والدي -رحمة الله عليه- يحبها كثيرًا، كان يقول لقد وقفت بجانبي كثيرًا، وأخذت بيدي من الحضيض وصعدت بي إلى السماء، لقد كان أبي محاسبًا، وأمي ماتت ميتة ربنا».

ثم عاد الشيخ لوضعه السابق؛ واضعًا يديه على ركبتيه ناظرًا إلى الحديقة، احترم البراء صمته وشاركه تأمله لدقائق، لا بُدَّ أن العلاقة بين أبويه كانت راقية، حتى أنه لا يتذكر بينهما إلا الحب والمؤازرة. لكنه لم يظفر بأي شيء من الشيخ إلا أن أباه كان محاسبًا، وأمه ماتت «ميتة ربنا»، ثم تذكر شيئًا قرأه في الملفات التي دفعها إليه نهير فسأله:

ـ «يا حاج نور، هل فعلًا جدتك لأمك ليست مصرية؟»

ـ «كيف عرفت هذه المعلومات؟»

لم يصدر ذلك السؤال من الشيخ الشارد في ملكوت آخر، بل جاء من الخلف، نظر البراء فرأى شابًا متوسط الطول أقرب إلى القصر يبدو أنه في العقد الرابع،

يرتدي سترة صوفية برتقالية اللون فوقها بالطو رماديٍّ، يوجد شبه بينه وبين العجوز -الذي نظر إلى الخلف متهللاً- ففطن البراء إلى أنه ابنه:

ـ «هل الأستاذ نور الدين والدك؟»

ـ «نعم».

قام البراء من مقامه، واتجه إلى الشاب مادًا يده معرفًا بنفسه:

ـ «البراء أحمد صحفي بمجلة (براق)».

سلم عليه الشاب قبل أن يستأنف البراء:

ـ "المجلة تبحث في الأمور الغريبة والخارقة، مثل...."

ـ «نعم أعرفها».

قاطعه الشاب:

ـ «ومن حين لآخر أقرأ نسختها الإلكترونية، لكن ما علاقة ذلك بوالدي؟»

قال البراء بابتسامة:

ـ «قبل أن أتحدث في أي شيء، لا أريد أن آخذ من وقت زيارتك لوالدك، اذهب إليه، سأنتحي جانبًا حتى تنهي زيارتك، وبعدها نتكلم».

لم يرد وذهب إلى والده، وفي عينيه نظرة حيرة وارتياب، وقف قبالته وقال:

ـ «كيف حالك يا أبي؟ أراك أصبحت عجوزاً؟!»

نزل على يده يقبلها، تهلل الرجل -وكأن الحياة عادت إليه- وصاح:

ـ «نادر، وحشتني يا ولد، كيفك وكيف أحوال رقية والأولاد؟»

ـ «بخير الحمد لله».

ـ «لماذا لم يأتواْ معك؟»

ـ «فقط مشغولون بالدراسة، وأنت تعرف المسافة من المنيا إلى الإسكندرية، سأحضرهم لزيارتك قريبًا إن شاء الله».

فأشاح الرجل ببصره بعيدًا، وقال:

ـ «ألم أقل لك أن تنتقل للإسكندرية يا ولدي؟»

ـ «إنه العمل يا أبي، انظر ماذا أحضرت لك».

نظر الوالد فاستبشر وبدا على محياه السرور لرؤية هدية ابنه، كانت علبة بيضاء عليه صورة لجهاز لوحي قديم يحمل علامة تفاحة مقضومة.

ـ «وبعلبته! هل يعمل جيداً؟»

ـ «نعم بحالة ممتازة، وضعت لك عليه القرآن، وكل الأغاني التي تحبها».

فتحه الوالد وشغله وسرعان ما بدأ يستمع لأغانيه العتيقة، وبدا أنه انفصل عمن حوله وهو يستمع.

ترك نادر والده يستمع؛ لما رأى منه اندماجًا في جو الأغاني وفرحًا بهديته، وذهب إلى البراء وجلس بجانبه وسأله:

ـ «فيم مجيئك اليوم؟»

ـ «كما قلت أنا صحفي في الأمور الغرائبية، ولعلك قرأت تحقيقي لهذا الشهر، عن رجل يعترض الإتصالات الإلكترونية برأسه».

هز رأسه نافياً:

ـ «أدعوك لقراءته، لكن ما جئت من أجله، موضوع قديم يخص جدك رحمه الله».

نظر إلى نادر ليرى ردة فعله:

ـ «أو بالأحرى جدتك».

ضحك نادر ضحكة قصيرة وهز رأسه مطرقًا إلى الأرض:

ـ «ألن ينتهي هذا أبداً؟»

ـ «إذًا أنت تعرف غايتي؟»

ـ «كل بضع سنوات يأتي من يسأل عن الموضوع، والدي هو آخر من تبقى من أعمامي، فحصل هو على نصيب الأسد من الملاحقات، وكان جُلها -وربما كلها- من صحافيين أجانب، لأول مرة يسأل مصري عن الموضوع».

ضيق البراء حدقتيه في استغراب متسائلاً:

ـ «وهل يعلم الكثير عنه؟»

ـ «لست الأول يا صديقي، لم تتوقف الملاحقات في إثر والدي، حتى آثر الاعتزال في هذه الدار بعيدًا عن بيته الذي يحبه كثيرًا، لكن ها أنت وصلت إليه بطريقة ما».

صمت الاثنان برهة مرت ثقيلة، ثم قطع البراء الصمت:

ـ «أنا أعتذر يمكنني -إن أردت- الانصراف دون أن أسبب لك أي إزعاج أو لوالدك، ولن تسمع مني ثانية إن كانت هذه رغبتك».

ـ «نعم أرجو ذلك».

فقام البراء من فوره، ومد يده مصافحًا وقال:

ـ «شكرًا على وقتك وتحياتي لوالدكم الكريم، السلام عليكم».

رد نادر السلام مندهشًا، لأول مرة يقابل محقق غير لجوج، جميعهم لا يتركوه إلا إذا هددهم، وقف لثوانٍ يفكر ثم اتجه إلى والده يقول له:

ـ «ما رأيك يا أبي أن تأخذ قيلولة في غرفتك؟»

أومأ الوالد أن نعم وهو لا يزال يستمتع بسماع الأغاني، ساعده ابنه على النهوض وناوله عصاه ليتوكأ عليها وسارا بخطى مُتَّئِدَة باتجاه غرفته، لمح البراء لا يزال يتحدث مع المشرفة عند أسفل الدرج، دلفا هو ووالده إلى غرفته الصغيرة، وأجلسه على سريره الوثير، ثم استأذنه للخروج قليلاً.

سار البراء الهوينا قاصدًا البوابة الحديدية ينظر للنزلاء ويحييهم، ثم تذكر أنه نسي الدراجة، فعاد أدراجه، لم يركبها ولكنه سار بها ناحية الباب، وقبل أن يخرج، سمع صوتًا استوقفه:

ـ «أستاذ براء».

ابتسم قبل أن يلتفت، قلما تخيب هذه الحيلة، فالقليل من احترام خصوصية

الإنسان؛ تؤتي من الثمار ما لا يأتي ملء الأرض ملاحقة وإلحاحًا، استدار منتظرًا محدثه حتى وصل إليه:

ـ «هل ستعود إلى القاهرة الآن؟» سأل نادر.

ـ «نعم».

ـ «هذا عنواني في المنيا، زُرْني بعد غدٍ في الرابعة عصراً».

ثم عاد إلى الداخل.

*****

نهار الشتاء وصندوق الذكريات

ساعة وبضع دقائق استغرقتها الرحلة من القاهرة إلى المنيا ، ليست المرة الأولى التي يزور فيها البراء المنيا، لكنها المرة الأولى التي يزور فيها مدينة (الفواضل)، التي أنشئت منذ ما يقرب من خمسين عاماً،عند سفح جبل الطير، بالقرب من مدينة سمالوط، أو سومالوت كما كان يسميها البحارة النوبيون في العصر الفرعوني.

استقل تاكسي إلى العنوان الذي أعطاه له نادر، وهي فيلا داخل عزبة صغيرة ذات حديقة بكر؛ تنمو الأشجار والنباتات كيفما اتفق دون تخطيط، فتعطيها مسحة برية محببة، لم يكن هناك بوابة أو سور حول العزبة، فدخل التاكسي مباشرة، لكن حول الفيلا القديمة يوجد سور، وقف التاكسي أمام البوابة، سار حتى باب الفيلا وقبل أن يصعد الثلاث درجات الرخامية، وجد الباب قد انفتح واستقبله نادر بالترحاب مرتديًا روبًا صوفيًا، ودعاه للدخول.

ـ«هل كانت رحلتك سهلة؟»

ـ «نعم الحمد لله».

دخل إلى بهو الفيلا، ليس واسعًا جدًّا، يتميز بمسحة ريفية في ديكوراته وأثاثه، الأرض مفروشة (بكليم) محلي، ويوجد على اليسار سلم يصعد إلى الطابق

الأعلى، أشار نادر إلى غرفة ذات باب جرار بزجاج ملون، دلفا إلى داخل غرفة الضيوف، وهي أكثر رقيًا من بهو الاستقبال وبها أثاث كلاسيكي، يتوسطها صالون مذهب، في وسطه منضدة رخامية بالكامل، أشار إليه ليجلس، استأذنه ثم خرج من الغرفة، كانت مضاءة بضوء الشمس الداخل من نافذتين كبيرتين، بدأ الوقت يتأخر وتقل الإضاءة.

عاد نادر حاملًا صينية، بها إبريق شاي وكوبين، وصحفة عليها قطع (كيك)، وضعها على المنضدة، وجلس على الكرسي المقابل له، فبدأ البراء الكلام:

ـ «هل الأولاد هنا؟ فأنا لا أسمع صوتاً».

ـ «أنا منفصل عن زوجي، والأولاد يعيشون معها، هي تعمل في ماليزيا».

قالها بطريقة لا توحي بأي حزن، سأل البراء:

ـ «لكني سمعتك تقول لوالدك إنك ستحضر الأولاد معك المرة القادمة».

تنهد وقال معللاً:

ـ «الطلاق حدث بعد إصابته بمرضه، وهو لن يستوعب أبدًا وهو في حالته هذه أنه لن يرى أحفاده ثانية، خاصة أن أخي وأختي أيضًا سافرا بأبنائهما، كان يحبها ويأنس لوجودها بجانبه، وستكون صدمة عليه إذا عرف أني طلقتها، تفضل الشاي».

رشف البراء رشفة من الشاي:

ـ «الآن نتكلم عما دعوتني له، فنهار الشتاء قصير، ماذا في جعبتك».

ـ «أستأذنك أن تأتي معي».

قام البراء من فوره وسار خلفه، خرجا من غرفة الضيوف، واتجها إلى ممر جانبي، في آخر الممر هناك غرفة مغلقة، بابها مزخرف بتشكيلات هندسية ثمانية المُمَيِّزَة للطراز الأندلسي، دلفا غرفة مكتب فسيحة أو بالأحرى مكتبة؛ فهي محاطة من ثلاث جوانب بأرفف ترتفع لتقترب من السقف، مكتظة بالكتب من كل صنوف العلم واللغات، القديم منها والحديث، صورة لا يراها كثيرًا، قبالة الباب مكتب خشبي أنيق موديل (لويس السادس عشر) خلفه نافذة كبيرة، هذا الرجل يمتلك كنزًا، توقف نادر قليلًا ينظر إلى ضيفه المنبهر وسأله:

ـ «ما رأيك؟»

ـ «مجموعة تليق بدار الكتب، منذ فترة طويلة لم أتواجد في مكان أشم فيه رائحة الكتب».

ـ«إنها مكتبة جدي –رحمه الله– كان يحب المجيء إلى الفواضل، يجلس بالساعات في هذه المكتبة، وفيها كتب مذكراته».

ـ«مذكراته؟» تساءل البراء.

فاتجه نادر إلى رف به خزانة صغيرة مغلقة بباب، فتحها وأخرج منها الكتب التي بداخلها ووضعها على الأرض، ثم ذهب إلى المكتب وجلب فتاحة الخطابات، وعاد ثانية إلى الخزانة وطرق بإصبعه على ظهرها من الداخل، ثم بدأ يبحث في أركانها عن شق يدخل فيه فتاحة الخطابات، أدخل نصلها في الشق ونزع ظهر الخزانة الخشبي، ليكشف عن مخبأ سري، مد يده وأخرج علبة من الخشب، مغطى بقشرة طبيعية مصبوغة باللون البني ومغلقة بمفتاح،

وضعها على المكتب ودعا البراء للجلوس، جلس هو على كرسي المكتب، وأخرج من الدرج مفتاحًا وفتح العلبة. أخرج بعض الأوراق المطبوعة، وأجندة كبيرة وعددًا من المفكرات الصغيرة وقصاصات جرائد ومجلات، وعلبة بلاستيكية بها أسطوانة من وسائط التخزين الضوئية القديمة، وبعض الصور، وضع كل المجموعة على المكتب وقال:

ـ «هذه هي مذكرات جدي، كتب أغلبها هنا في بيت الفواضل، بها كل أو أكثر الأحداث التي مرت به في هذه الفترة».

قال البراء وهو لم يرفع عينيه عنها انبهاراً:

ـ «هذا ما أرنو له، لن أبغي أفضل من ذلك».

ـ «أنا قرأتها تقريبًا كلها، لا أعرف هل أصدق ما جاء فيها أم أكذب، لكنها تستحق القراءة، لكن المشكلة أنها مبعثرة إلى حد كبير، كتب العديد من اليوميات والمذكرات، على مدار سنوات طوال، وفي أماكن عدة، ومحاولة وضع كل ذلك في قصة متسلسلة زمنيًا ومترابطة، عملية صعبة».

فقال البراء متحمساً:

ـ «اترك هذا لي».

ـ «وهذا ما جعلني أطلعك عليها، أريدك أن تقرأها كلها، وتضعها في شكل منطقي متسلسل، لقد قرأت اليوم مقالتك لهذا الشهر، وعرفت أنك أهل للمهمة، وربما لك نظرة خبير، يمكنك أن تميز الحقيقة من الوهم بين كل هذه الذكريات».

ـ «لا تصور الموضوع على أني أقدم لك خدمة، أنت من تقدم لي خدمة عظيمة».

ـ «لا تتسرع في القبول، سوف أتركك في غرفة المكتب هذه ساعة، وحدك أنت والأوراق لتقرأ منها قليلًا، وتخبرني بقرارك النهائي».

هز البراء رأسه موافقاً:

ـ «وإن كنت لا أحتاج لتلك الساعة، لكن كما تشاء».

قام نادر متجهًا إلى باب الخروج وقال قبل أن يخرج:

ـ «إذا احتجت إلى أي شيء فقط نادني».

خرج وأغلق الباب، تاركًا البراء مع فرحة لا توصف بتلك الفرصة التي نادرًا ما تتكرر، بل هي لا تحدث مطلقًا، فلم يعهد أي شيء بهذه السهولة.

بدأ يتصفح ما أمامه من كنوز ولا يعرف من أين يبدأ، طبعًا لن يبدأ من وسيط التخزين الضوئي من نوع (دي ڤي دي) المكتوب عليه بخط اليد (فيديو يوتيوب وصور)، سيحتاج لمشغل مخصوص، وأما عن الأوراق المطبوعة، فهي مدونات على الإنترنت ومنشورات لمواقع تواصل قديمة ورسائل بريد إلكتروني وتحتاج لكثير فرز، فتح الأجندة وبدأ يقلب صفحاتها، حتى وقعت عينه على رسمة بالقلم الرصاص لامرأة على سرير، ويبدو أنها تعاني والسرير محاط بغلاف شفاف، على الرغم من أن الرسم لم يكن بيد فنان محترف، إلا أنه واضح المعالم، قلب الصفحة التي تليها وبدأ يقرأ ما كتبه أسامة المدني بيده.

***

عام مضى على زواجنا وحياتنا على وتيرة واحدة، ما بين عملي في الشركة من الأحد إلى الخميس، وبين ذهاب تسنيم للجامعة ومذاكرتها وشئون البيت، نزور أهلينا ويزوروننا ونذهب في بعض العطلات إلى إحدى الحدائق أو دار سينما، وقد نكتفي بأن نتمشى على الكورنيش، لم تمر زيارة بدون أن يسألنا الجميع سؤالين: «أليس هناك شيء في الطريق؟» و «لماذا يا تسنيم يبدو عليك الإعياء؟»

كان الموضوع في البداية مضحكًا ومادة للتندر، ثم تحول إلى سؤال سخيف ولجاجة، وبعد أشهر بدأ يدب القلق إلى نفسينا، ثم تحول القلق إلى رد فعل حقيقي، فعلًا الحمل تأخر، ثم إن تسنيم صحتها تسوء مع الوقت، وأصبح وجهها يزداد شحوبًا يومًا بعد يوم، قواها تخور مع الوقت، وأعباء المنزل بالنسبة لها صنوًا من العذاب -وإن لم تقصر فيه أبدًا- قررنا الذهاب إلى الطبيبة، فحصت تسنيم بالموجات الصوتية، ثم طلبت بعض التحاليل، والتي أعلنت بعدها في الزيارة التالية أن بويضات تسنيم غير مكتملة النمو، وتحتاج إلى علاج، وعلينا الصبر فالأمد قد يطول، ثم كتبت قائمة طويلة من الأدوية، وشرحت لنا البرنامج العلاجي، والتحاليل التي ينبغي علينا عملها قبل كل زيارة، وسارت تسنيم على العلاج لأشهر، ولكن ما زاد من قلقنا هو شحوبها المستمر وصحتها المتداعية باستمرار، ذهبنا إلى طبيب أمراض باطنة، أجرى فحوصًا وطلب تحاليل وأشعات، وأعلن أنه لا يوجد بها بأس، وربما علينا

استشارة طبيب أمراض دم ومناعة، ومع ذلك فقد سود صفحة كاملة بوصفة مقويات عامة، وذهبنا لطبيب أمراض الدم والمناعة، الذي أجرى فحوصًا وطلب تحاليل واشعات، وأعلن أنه لا بأس وكتب صفحة طويلة ملأى بالمقويات والفيتامينات، وبعد كل شيء ظلت صحة تسنيم في انهيار يزداد مع الوقت، وفي أحد الأيام ونحن في غرفتنا ليلًا لاحظت شيئًا غريبًا فسألتها:

ـ «تسنيم ما هذا الذي على ذراعك اليسرى من الخلف؟»

حاولت أن تلوي ذراعها لتنظر فلم تستطع، اتجهت إلى المرآة ونظرت فشهقت وقالت:

ـ «ما هذا؟ أول مرة أرى هذا اللون على جلدي».

اتجهت إليها وأمسكت بذراعها وضغطت بإبهامي عليه:

ـ «إنه خشن جاف كأنه جرحٌ التأم وجف».

فقالت وقد ازدادت قلقًا:

ـ «هل هو كبير؟»

ـ «بمساحة كف يدي ألم تلاحظينه قبل اليوم؟!»

فردت سريعًا كأنها تنفي عن نفسها اتهام:

ـ «أبدًا، لم أره إلا الآن».

ـ «يبدو أنه ظهر حديثًا منذ بضع ساعات على الأرجح، ما الذي يجعل الجلد يستحيل إلى هذا اللون بهذه السرعة؟»

أتت بكريم ووضعته عليه، فقلت لها:

ـ «لنذهب إلى طبيب أمراض جلدية».

قالت في حسرة:

ـ «هذا فعلًا ما كان ينقصني من الأطباء».

احتضنتها وقلت مطمْئِنَا:

ـ«تعلمين أنني سأظل داعمًا لك على الدوام، فقط استعيني بالله ولا تعجزي».

استغفرت وقد ترقرقت عيناها بالدموع.

طبيب الأمراض الجلدية قال إنه ربما يكون نوعًا من (الإكزيما)، لا يعرف على وجه اليقين، ضغط على ذلك الجزء بقوة آلمت تسنيم، فتصدعت القشرة السميكة وانبثق منها سائل شفاف لزج، فأخذ منه عينة لتحليلها، وكالعادة طلب تحاليل كثيرة، وكتب وصفة دوائية طويلة، فأصبحت تسنيم رسميًا فأر تجارب لأهل الطب.

بدأت تظهر مزيد من تلك البقع البيضاء الجافة في جميع أنحاء جسد تسنيم، ويبدو أن العلاج لن يأتي بنتيجة، كما أن علاج البويضات غير مبشر، وضعفها العام يزداد سوءًا، ثم ظهر القيء المتكرر أثناء اليوم، تصحو من نومها فجأة وتهرع إلى الحمام لتفرغ ما في معدتها، التي لم تعد تحوي كثير طعام؛ فقد فقدت شهيتها منذ فترة، وفي إحدى الليالي بينما نحن عائدون من إحدى معمل التحاليل، قلت لها وقد لاحظت عليها الشرود والاكتئاب:

ـ «ما رأيك أن نجلس على شاطئ البحر قليلًا؟»

أومأت برأسها أن نعم. جلسنا على الرمال ننظر إلى السواد اللامتناهي لصفحة الماء، البحر ليلًا مخيف حقًا، لم يكن الشاطئ خال تمامًا، لكن تناثر حولنا هنا وهناك أطفال وشباب يمرحون، ونساء ورجال يتحدثون بأصوات عالية، وباعة يحاولون إرغامنا على شرب شيء ما، لن يتركك أحد تنعم بهدوء أبدًا، كانت تسنيم شاردة تنظر للبحر، لقد ذبلت كثيرًا جسديًا وروحيًا، لم تعد تلك الفتاة المرحة التي عرفتها لأكثر من عام، هل من كلمات يمكن أن تخفف عنها ما هي فيه؟ لا أظن؛ فأي كلام يقال سيكون مجرد محاولة بائسة ومفتعلة، لعلها لا ترغب إلا في أن تحظى ببعض الصمت، لكنها قطعت صمتها بنفسها قائلة:

ـ «هل ستستمر حياتنا هكذا؟».

لم أعرف ما أقول فقط نظرت لها ولم أعقب فاستطردت:

ـ «اتركني يا أسامة».

فغرت فاهي غير مستوعب وانطلقت قائلًا:

ـ «ماذا تقولين؟ لن أتخلى عنك أبدًا، لقد أصبحت مصائرنا مرتبطة لا فـ... ».

ـ «فقط اسمعني، أنا لم أعد أصلح زوجة لك ولا لغيرك، في الحقيقة لم أعد أصلح لأي شيء على الإطلاق، عليك أن تمضي في حياتك، وتتركني وأمراضي وأوجاعي».

ـ «هل هذا ما تظنينه بي؟ نذل يتخلى عنك عند أول أزمة تلم بنا؟»

ـ «ليست أزمة واحدة، بل أزمات متتابعة ومصائب تتوالى تترًا، وقد نلت منها نصيبك كاملًا، وأشهد الله أنك لم تتخلى عني، لكن يكفيك ذلك؛ تلك ليست بحياة شاب في مقتبل حياته، اذهب وتزوج بأخرى صحيحة تنجب لك أولادًا، ودعني لأهلي يرعونني حتى... »

ـ «لا تقوليها».

ـ «لا تدفن رأسك في الرمال أنا أحتضر، أشعر بذلك وأراه وشيكًا، ربما هي أيام معدودات».

ـ «لو كان الأمر كذلك فلا ضير أن أظل بجانبك تلك الأيام، ولو كنت ستشفين فلم الفراق إذًا؟»

صمتُّ قليلًا أبتلع ريقي من غصة في الحلق «هل لو كنت أنا المريض، كنت ستتركينني؟»

ـ«مستحيل!»

ـ«إذًا لم تطلبي مني المستحيل؟ لم تحرميني من أن أساند زوجي حتى يشفيها الله، وأراه قريبًا إن شاء الله؟»

فصرخت قائلة:

ـ «صدقني كل هذا لا معنى له، أنت تضيع عمرك معي هباءً فقط اتركني لحالي».

ثم قامت مسرعة مبتعدة عني، وهي تنفض الرمال عن تنورتها، والرياح

تطيرها، سارت بخطى متسارعة باتجاه الشارع ولكنها توقفت فجأة، ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليها.

أجرى لها الأطباء في المشفى جميع الفحوص الممكنة، حقنوها بعشرات الحقن واستخدمواْ كل ما لديهم من إمكانات، لكنهم لم يعرفواْ تشخيصًا لحالتها، وكانت كل عدة دقائق تدخل في نوبة تشنجات، تظن معها أنها تحتضر، فيهرع الأطباء والممرضات لغرفتها لإسعافها، ولكن لا يستطيعون شيئًا، ثم تمر النوبة وحدها، انتظرت بجانبها في غرفة العناية المركزة لساعات، حتى حضر أخصائي ونظر إلى الفحوص ونتائج التحاليل، ثم نظر إلى جسدها وامتقع وجهه قائلًا:

ـ «يبدو وكأن جسدها يتحلل!»

ـ «وما تشخيص حالتها يا دكتور؟» سألته.

ـ «ربما هو مرض فيروسي يدمر المناعة، ويجعل الجسم يهاجم نفسه، لكني لم أجد في التحاليل أي علامات لوجود أجسام مضادة لأي فيروس معروف».

ثم صمت قليلًا وقال:

ـ «المشفى هنا لن يفيدها كثيرًا، أرى أن نحولها للحميات، ربما هو مرض وبائي، سأجعل الإدارة تخرج لك سيارة إسعاف تنقلها إلى هناك».

كان الوقت يقترب من الفجر، عندما وصلنا إلى مستشفى الحميات، التي تقبع بضاحية (أمبروزو) بالحضرة، وهو مكان صاخب نهارًا، موحش مظلم ليلًا، لا تكاد ترى فيه أحدًا من المارة، يجثم مبنى المشفى خلف سور عال وسط حديقة واسعة، دلفت بنا سيارة الإسعاف وهي تطلق صفيرها المحطم للأعصاب إلى داخل الأسوار، انتظرنا كثيرًا حتى أتى من يفحصها، كان طبيبًا شابًا، ولم يستطع إخفاء امتعاضه عند رؤية العلامات على جلدها، ربما اختلط عليه الأمر فلم يعرف ما التشخيص الدقيق فطلب بعض التحاليل، وأوصى أن تظل بالمشفى بضعة أيام؛ ربما الاستشاري الذي سيأتي غدًا سيكون لديه نظرة أعمق، وضعوها في غرفة بها سريران، حقنتها الممرضة ببضع (أمبولات) من عقارات وصفها الطبيب، كانت حالتها تزداد سوءًا، رن هاتفي وكانت أمها داخل المشفى تسألني في أي غرفة نحن، وصفت لها وأتت وكان دخولها على تسنيم بمثابة عودة الروح لها، لله دَرُّ الأم، قارب النجاة لقلوب أنهكها مصارعة أمواج الشقاء العاتية، ألقت تسنيم رأسها على صدر أمها، التي طفقت تمسح على رأسها وترقيها بآيات القرآن والأدعية:

ـ «اللهم رب الناس اذهب البأس، اشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً» .

أمنت في سري على دعائها موقنًا بالإجابة؛ فإن لم يجب الله دعاء الأم، فمن يجيب؟ تركتها وخرجت إلى حديقة المشفى، أتمشى في الهواء قليلًا، تغمرني

الشمس لتغسل بعضًا من عناء الليلة الماضية، لاح لي على باب المشفى أحمد عيسى، هاتفته منذ ساعتين، ليقابلني هنا ويقرضني بعض المال، فمصاريف المشفى الخاص قد أفرغ جعبتي، ولا أعلم ما يأتي به الغيب.

ـ «ماذا قال الأطباء؟»

ـ «لا أعرف يا أحمد، المرض غريب ويزداد يوميًا ولا علاج يفلح، هل أطلب العلاج في الخارج؟»

ـ «أنت تعرف أن هذا لا ينجح أبدًا، إن لم تكن لاعب كرة أو ممثل».

ـ «نعم، على الأرجح سنضيع الوقت هباءً» .

قفلت عائدًا إلى غرفة تسنيم، وما أن وقفت بباب الغرفة حتى فاجأني ما رأيت؛ تسنيم التي كانت منذ دقائق في عداد الأموات؛ عادت لها الروح بلمسة حانية من يد أمها، جالسة نصف جلسة على سريرها وأمها تضع فصوص برتقال في فمها، بدأت تمضغ بصعوبة، وتلقمها أمها غيرها وترفض لكنها تصر بلطف فتقبل.

ـ «أراها تعافت بوجودك يا أمي».

قلتها محاولًا بسط جو من المرح، فقالت:

ـ «ربنا يجعل لها شفاءً عاجلاً» .

فأمنت ثم وجهت كلامي إلى تسنيم:

ـ «كيف تشعرين الآن؟»

قالت بصوت واهن، تصحبه قطرات من عصير البرتقال تسيل على شفتيها:
ـ «الحمد لله».

سألتني الأم وهي تنزع فص برتقال من الآخر، فيتطاير رذاذ سائل البرتقال بين الفصين كأنه يتنفس، عما قاله الأطباء، أخبرتها عن كونها مجرد تكهنات ولا يقين.

ساد صمت تابعت فيه أم تسنيم عملها في إبهاج ابنتها؛ بالبرتقال، ودعائها، وحديثها العذب، واصَلَت تسنيم تذمرها تدافع ألمها، تابعتهما بعين مجهدة، لا تشبه تسنيم أمها كثيرًا، أمها ذهبية الشعر، وهي سوداء الشعر فاحمة، تسنيم أشبه بأبيها، حتى في طباعها وعاداتها، ابتسامتها التي تطبق فيها على شفتيها كأنها تتحرج من اظهارها، حاجبيها والتجاعيد بينهما التي يبرزها الغضب، كل ذلك هو من ملامح الأب. في نهاية اليوم طُلب مني أن أغادر وأن ترافقها أمها.

كان الوقت يشير الى الساعة الثانية وثلاث وأربعين دقيقة صباحًا حين رن هاتفي، تناهى إلى مسامعي صوت الأم باكية.

حين وصلت إلى المشفى علمت أنهم نقلوها إلى الحجر الصحي، الحجر الصحي موجود في مبان منفصلة خلف المبنى الرئيسي للمشفى، المباني تشبه الفيلات، يحوي في غالبه مرضى الإيدز، يعيشون في ظروف سيئة، تدفعهم في بعض الأحيان لمهاجمة الممرضات، فقد جمعوا عليهم فوق المرض، الازدراء

والإهمال وانقطاع الأمل، رأيت أم تسنيم تجلس على حوض نباتات أمام باب كتب عليه (الحجر الصحي)، مطرقة للأرض، عينيها حمراوين من البكاء:

ـ «ماذا حدث؟» سألتها «أين تسنيم؟»

أجابتني بين دموعها:

ـ «لقد استيقظت على صوت أنين مكتوم، اقتربت منها وجدت جسدها متخشبًا وترتعش وعيناها جاحظتان»، أعطيتها منديلًا فمسحت دموعها وتمخضت، «ظننتها تمر بكابوس، حاولت إيقاظها لكن زاد تشنجها، وكأن لمسي لها آلمها، وأدركت أنها تستغيث ولا تستطيع أن تخرج صوتها، الطبيب المناوب، أعطاها حقنها بعقار ما، وبعد زوال ثورة الهياج، رأينا أن سريرها مغرق بسائل أصفر شفاف مختلط ببعض الدماء»، أغمضت عينيها محاولة إخراج المشهد من رأسها «كان المنظر مقرفًا، عيني عليك يا ابنتي».

وضعت يدي على كتفها أحاول تهدئتها، وفي أثناء ذلك خرج طبيب من مبنى الحجر الصحي تتبعه ممرضة، كانا لا يزالان يرتديان قفازات الحماية في يديهما واضعين على أنفهما قناعًا واقيًا، فهرعت مستفهمًا:

ـ «ماذا حدث لتسنيم يا دكتور؟»

خلع قفازيه وألقاهما في كيس مخصص للمخلفات الحيوية، يحوي ضمادات شاش وقطن ملوثة بالدماء وسوائل ما:

ـ «مرض زوجتك غير معروف، ولكن من باب الاحتياط وضعناها في الحجر الصحي، حتى نعرف تشخيص المرض».

ـ «وماذا ستفعلون لها حتى تكتشفوا المرض؟» سألته.

ـ «سنحقنها بمضادات فيروسية، ونضع على جسدها أنواعًا من المطهرات والدهانات التي تعمل على تجفيف الإفرازات».

ـ «هل يمكنني أن أعالجها في مستشفى آخر؟»

هز رأسه نفيًا:

ـ «لن تجد علاجًا لها في أي مستشفى خاص، هنا أفضل لها، ثم إنها دخلت الحجر الصحي وتم إبلاغ مديرية الصحة، فلا يمكن خروجها من إلا بموافقة من المديرية».

دار رأسي ولم أدر ماذا أفعل:

ـ «هل يمكنني أن أراها؟»

ـ «ذلك خطر جدًّا، ولا يمكنني السماح بذلك».

ـ «أرجوك» توسلت «ولو من بعيد».

أمر الممرضة أن تعطيني قناعًا واقيًا، وأن أراها من خلف الزجاج لمدة دقيقتين فقط.

في الداخل رأيت عجبًا، سريرًا له أعمدة مغطى ببلاستيك شفاف، وبداخله ترقد تسنيم في حال مفزعة؛ فقد ازدادت القشور على جلدها، وتخرج منها إفرازات وترتعش بشدة، صوت تنفسها حاد عميق كأنها مذبوحة، ساقتني قدماي غريزيًا إليها، فجذبتني الممرضة في هلع من ذراعي صائحة:

ـ «إلى أين يا أستاذ، الدكتور قال من على الباب».

حاولت التملص، ولكني انصعت ولم أقاوم، ثم انقضت الدقيقتان سريعًا وخرجت.

رحلتي كل يوم من مقر العمل في (القباري)، إلى المشفى في (الحضرة) ثم إلى البيت في (سيدي بشر)، أصبحت تقض مضجعي، والأدهى أنه لا أمل في الشفاء يلوح في الأفق، فكل يوم هو أشد وطأة مما قبله، حبيبتي لا تتخطى محنتها، أراها دقائق قليلة، ويسمح لي بالاقتراب منها، والكلام معها من خلف الستائر البلاستيكية، بدون تلامس، حالتها النفسية أسوأ من البدنية، تلك العروس التي لم تستهل حياتها بعد، ها هي على حافة حياتها:

ـ «كيف حالك يا عمري؟» سؤالي المعتاد الروتيني لها، فنظرت إليَّ نظر الغريق لمن يحمل طوق النجاة، وفي عينيها توسل لشيء ما لا تعرفه ولا أعرفه، ثم تقول بأسى ووهن:

ـ «الحمد لله».

في هذا اليوم لم أُطل الزيارة، ولم أسأل الطبيب كالمعتاد عن التقدم في العلاج؛ فلا فائدة ترجى من وراء ذلك، جلست قليلًا مع السيدة مليحة أمها، ثم خرجت من المشفى، رحت أدور حولها، ثم أخرجت هاتفي واتصلت بأحمد عيسى، وطلبت مقابلته.

سباك وممرضة وبواب

ـ «مستعد يا أحمد؟»

ـ «نعم».

ـ «توكلنا على الله».

ترجلت من السيارة، التي أوقفناها عند الباب الخلفي لسور المستشفى؛ حيث يحتجزون تسنيم، كنا قد تخطينا الثانية عشرة مساءً، لم يكن ذلك بميعاد زيارة، فلن أستطيع الدخول من الباب الأمامي، والباب الخلفي مغلق، اتجهت إلى بقعة مظلمة في السور - كنت قد حددتها مسبقاً- لا يمر بجانبها الكثير، تسلقت شجرة قريبة منها، ثم مددت يدي محاولًا الوصول إلى السور، الذي كان محميًا بقطع من الزجاج المكسور، حاولت تفادي الجرح قدر الإمكان، ولكن لا مفر من جرحين أو أكثر، بعد محاولات استطعت اعتلاء السور، تأكدت من خلو تلك البقعة من أفراد الأمن، قفزت على الأرض، الارتفاع كبير حقًّا، شعرت معه بألم في ظهري وركبتَيّ.

لم يكن لدي خطة واضحة حول كيفية الخروج بها، اتجهت إلى مبنى الحجر الصحي، لم يكن هناك أحد في المدخل، الجميع بين نائم أو يبحث عن مكان ينام فيه - فالجو شديد البرودة- صعدت إلى الطابق الثاني، سرت في الممر قاصدًا غرفتها، لم أجد أبدًا تلك الغرفة التي يدخلها أبطال الأفلام في

المستشفيات، فيخرجون لابسين بالطو أبيض وواضعين سماعة، قررت المغامرة بهيئتي تلك مع إمكانية فضحي، وصلت إلى غرفة تسنيم فلم أجد بها أحدًا غيرها، جسد مسجي يصارع الموت، يا الله! كيف أصبحت بهذا الشكل المخيف؟ وكأن جلدها ينسلخ عنها، كدت أضعف وأتراجع لعلهم يجدون علاجًا، لكني ثبت إلى رشدي، فأنا أعلم أن هذا لن يحدث، هم فقط يتركونها للموت، كل همهم إبعادها عن البشر حتى لا يصيبهم ما أصابها، ولا ألومهم على هذا، تخطيت الستائر البلاستيكية العازلة، صوت تنفسها عال، كأنما تخرج روحها مع كل نفس، لمستها، فتحت عينيها تنظر إليَّ، ابتسمت وقالت بصوت واهن:

ـ «كنت في رعب لما قالواْ إنهم منعواْ الزيارة، خفت أن أموت قبل أن أراك».

جاهدت كي لا تنحدر دمعة من عيني، ولكن صوتي فضحني حين قلت لها:

ـ «لن تموتي، سأخرجك من هنا وأعالجك في الخارج».

ـ «صحيح، متى؟»

ـ «الآن».

بدا عليها الحيرة فسألت:

ـ «الطبيب وافق على خروجي؟»

كرهت أن أكذب عليها:

ـ «فقط ارتاحي، لقد دبرت كل شيء».

خرجت من الغرفة، وقد ذهبت في سنة من النوم، بدأت أبحث عن ترولي أنقل عليه صغيرتي، لم تكن بالمهمة السهلة، رأتني ممرضة كانت في طريقها لمكان ما، ارتابت في أمري وسألتني:

ـ «من تريد؟»

هممت أن ألفق كذبة ما، ولكني لم أجد شيئًا مقنعًا أقوله لها، فأخرجت من جيبي ورقة من فئة المئتي جنيه، ورفعتها أمام وجهها وقلت لها:

ـ «أريد ترولي أنقل عليه زوجي».

ـ «ومن زوجتك، وإلى أين ستنقلها؟»

ـ «تسنيم عمرو، سأنقلها إلى الطابق السفلي».

صمتت قليلًا لتستوعب ما قلته، ثم انطلقت في أسئلة لا تتوقف:

ـ «كيف؟ مدام تسنيم عليها حجر صحي، والدكتور لم يصرح بخروجها، كيف دخلت الحجر في هذا الوقت؟»

فكان ردي على كل هذه الأسئلة، هي ورقة أخرى من فئة المئة جنيه وقلت:

ـ«إن ساعدتني في إيجاد نقالة، وإخراجها من هنا بهدوء، سأرفعها لخمسمائة».

اعترضت قليلًا، وتحدثت عن المسئولية وأنها سوف تجازى، ولكن المال كان أكثر إقناعًا فقالت:

ـ «ما رأيك في كرسي متحرك أفضل من الترولي؟»

فرحت لتعاونها:

ـ «ذلك أفضل» .

ـ «انتظرني في الغرفة حتى آتي لك به».

هممت أن أنفذ ما قالت، لكني فطنت إلى الحيلة.

ـ «لا، رجلي على رجلك».

قد تذهب لتبلغ أمن المستشفى، فيطردونني وتأخذ هي المال، امْتَثَلَتْ وقادتني إلى غرفة بها عدة كراس متحركة، أخذت إحداها وفتحته، وسارت معي في اتجاه غرفة تسنيم، في الطريق قابلنا طبيبًا (نوبتجيًا)، طلب من الممرضة مرافقته، ثم انتبه لوجودي، وسألني عن هويتي، أخبرته أني السباك الجديد، ارتاب في أمره لكنه مضى إلى سبيله، أخذت الكرسي إلى غرفة تسنيم، كانت عملية شديدة الصعوبة والإيلام لكلينا؛ نقلها من على السرير إلى الكرسي، وبعد أن نجحت في ذلك خطرت ببالي فكرة، اتصلت بصديقي المنتظر في سيارته، وقلت له أن يأتي بالسيارة عند البوابة الرئيسية ويكون مستعدًا، غطيت جسدها بملاءات السرير، ولم أترك سوى وجهها ظاهرًا، هبطت بها إلى الطابق الأرضي، اتجهت إلى باب المبنى لكن استوقفني صوت غليظ قائلاً:

ـ «إلى أين يا أستاذ؟»

وهنا لم أضع وقتي في الالتفات والتحدث مع السائل أيًا كان، فقط أرجعت ساقيَّ إلى الخلف، أحنيت جذعي إلى الأمام، واضعًا ثقلي على الكرسي،

وانطلقت مهرولًا إلى الخارج، الحمد لله يوجد منحدر عند الباب، نزلت عليه، وبعد أن استفاق الرجل من الصدمة، انطلق يجري خلفي صارخاً:

ـ «توقف عندك، يا عبد الرحيم، يا جمال، أمسكواْ هذا الرجل، أين تأخذ الحالة؟»

لكني أسلمت قدمي للريح، وقد أعطاني المنحدر دفعة قوية، ركضت باتجاه الباب الرئيسي وأنا أصرخ بدوري:

ـ «أحمد ... أحمد يا عيسى».

لم أعرف إن كان سمعني أم لا، ويبدو أن فرد أمن البوابة قد سمع صياح الرجل -وصياحي أيضاً- فجاء يسعى باتجاهي، لكنه ما إن خطا بضع خطوات، حتى رأيت أحمد يطوقه من الخلف، حاول أن يفلت، لكنه أحكم ذراعيه حوله، حتى خرجت ووصلت إلى السيارة، رأيت عدة أشخاص يتجهون صوب أحمد، يمسكونه وقد شغلواْ به عني، فتحت باب السيارة ووضعت تسنيم على الكرسي الخلفي، تألمت للسرعة التي أديت بها العمل دون الالتفات لصراخها، تركت أحمد وصراعه للإفلات من هؤلاء، وسرت بالسيارة ببطء، لما رآني أتحرك أفلت منهم وركض باتجاهي، توقفت قليلًا، وكانت تلك الوقفة كفيلة بأن يلحق أحدهم بالسيارة، فتح الباب الخلفي محاولًا إخراج تسنيم، كان أحمد قد وصل وركب جانبي، انطلقت مسرعًا قبل أن يستطيع الرجل الوصول إليها وسقط أرضاً.

هممت أن آخذها مباشرة إلى المنيا، لكنها كانت منهكة جدًّا، توسلت إلى أن نذهب إلى بيتنا لتستريح، خفت أن يرسلواْ الشرطة إلينا، لكن أحمد أقنعني أنهم لن يفعلواْ ذلك إلا صباحًا؛ «فهم كسالى» على حد قوله، فرأيت أنه لن يضيرنا المبيت للصباح.

وصلنا إلى البناية بعد الثانية بقليل، ساعدني أحمد في الصعود بها إلى شقتي، أخبرت البواب أن يقول لأي أحد يسأل عني إنني لست هنا، وزيادة في الحرص، جعلت أحمد ينتظر بسيارته أمام البناية، ليخبرني بأي طارئ، غيرت ملابسها بأخرى نظيفة، وضعتها على السرير لتستريح، وقررت أن أستريح أنا أيضًا لأدخر قوتي لرحلة الغد، ولكن ما إن غفوت قليلًا حتى رن الهاتف، كان أحمد يحذرني:

ـ «اخرج الآن، مخبران اثنان سألا البواب عنك، ولم يأبها لادعائه عدم وجودك، وصعدا إليك».

أغلقت الهاتف دون كلمة، وجريت أحملها على كتفي وخرجت من شقتي، كان المصعد صاعدًا، فلم يكن من الممكن أن أستقله، صعدت إلى الأعلى طابقين، وانتظرت لأرى ماذا يحمل إلينا المصعد، خرج منه رجلان، أحدهما طويل القامة، والآخر متوسط الطول، بدين أصلع كث الشارب، ضغطا الجرس عدة مرات، ثم طرقا الباب حتى كاد ينخلع، بدا عليهما الاستسلام، ولم يكن هناك من داع لأن يستهلكا قوتهما، في البحث عن رجل خطف زوجه من المشفى، ضغط أحدهما على زر استدعاء المصعد وبينما هم في انتظاره، إذا

بأحدهما ينظر إلى الأعلى، ثم يصعد عدة درجات «أين تذهب؟» سأله زميله، رد هامسًا «يخيل إليَّ أنني سمعت صوتًا على السلم».

ـ «قد يكون أحد الجيران نازل لصلاة الفجر، أو حتى قطة، هيا نعد أدراجنا».

كان المصعد قد أتى، استقلاه وذهبا، انتظرت قليلًا ثم اتصلت بأحمد أسأله هل الجو مهيئ للنزول، فأجاب أن نعم، نزلت بتسنيم، اعتذر ليَ البواب، أومأت متفهماً:

ـ «فقط ساعدني في وضع المدام في السيارة».

ـ «أين ستذهب يا أستاذ أسامة؟»

هممت أن أخبره بوجهتي، لكني تراجعت فأخبرته:

ـ «إلى المطار، سأسافر بها إلى أوروبا أعالجها هناك».

هز رأسه دليلًا على فطنته وقال:

ـ «ترجعواْ لنا بألف سلامة».

وضعت خمسين جنيهًا في يده وقلت له مشدداً:

ـ «هذا الكلام بيني وبينك يا حمدي، لا تخبر أي مخلوق عن وجهتنا».

فصاح محاولًا رفض المال، أصررت أن يأخذهم، ركبنا السيارة، طلبت من أحمد أن يصحبني إلى المنيا، حتى يعود بسيارته، ولنتبادل القيادة في الطريق، وبدأ هو بالقيادة لأستريح، وانطلقنا في رحلة لا يعلم مداها إلا الله.

***

توجه البراء إلى قسم الوسائط، المختص بفتح وسائط التخزين القديمة التي لم تعد تستخدم، اتجه إلى أحد الشباب واضعًا يده على كتفه.

ـ «أراك منهمكًا يا وليد؟!»

رفع وليد بصره إلى محدثه قائلاً:

ـ «(الدي ڤي دي) قديم جدًّا، وبه بعض الخدوش التي تشكل مع كلمة السر عائقًا، لكن سنصل إلى حل إن شاء الله».

كان (الدي ڤي دي) يحوي مجلدين، أحدهما معنون (فيديو يوتيوب) وهذا مفتوح، ولا يوجد به إلا الفيديو الذي شاهده البراء سابقا في مكتب نهير، أما المجلد الثاني فمعنون (O) رمز الصفر باللغة الإنجليزية، وهو المجلد المشفر بكلمة سر، التي لم يجدها مكتوبة في أي مكان، وفريق الوسائط يحاول كسرها.

ـ «أعلمني إذا توصلت لشيء».

ذلك المساء في بيته، لم يشعر كما كل يوم بالوحدة، مذ هجرت زوجه بيت الزوجية إلى بيت والدتها، ثماني أشهر عرف فيها شعور صاحب العضو المبتور، عندما يريد أن يحك ذراعه فلا يجده، يا له من شعور مؤلم حقاً! لكن تلك المذكرات شغلت جزءًا من هذا الفراغ، أصبح أسامة المدني رفيقًا له في مسكنه؛ يبثه همومه، كان لا يملك روبوتًا اجتماعيًا، فقد أخذت (هومير) معها، كأنه ابنها، أصبح الناس يمتلكون روبوتًا بدلًا من حيوان أليف، فهو أنظف وأسهل في التعامل، لا يأكل، لا يحتاج لتنظيف، ولا يموت. أمر الدرون فون قائلاً:

ـ «اتصل بالشيماء».

كانا يفتخران أن اسميهما يبدآن بالألف واللام، (البراء-الشيماء)، أصدر الهاتف صوتًا حادًا قصيرًا، سمع صوتها قادمًا من مكبر الصوت:

ـ «ألو، كيف أحوالك يا براء؟»

ـ «الحمد لله يا شيماء، كيف أحوالك أنت؟»

تبادلا حوارًا فاترًا لا شغف فيه، سألته عن عمله، أراد أن يخبرها عن تحقيقه، لكنه تراجع، ولم تستخدم دلالها، كما كانت تفعل في الأيام التي خلت، فيخبرها بكل ما يدور في فكره، لكن الآن لا يجدون ما يطيلون به المحادثة أكثر من ذلك، لا يمكن أن نسميه كرهًا، لكنه فتور اعترى حياتهما فجأة، بدأت حياتهما معًا - والتي امتدت لثماني سنوات- بحب يزداد مع الوقت، ثم بدأ الخلاف يدب، ثم المشاحنات، زادت وأصبحت شبه يومية، ثم حدث الفتور، وكأن أحدهما أصبح ببساطة لا يحب الآخر، ولكنه لا يكرهه، لم يكن هناك من داع للطلاق، اتفقا على أن يبتعدا قليلًا عن بعضهما حتى يعود الاشتياق، ويعرف كل منهما حاجته للآخر ويشعر بفقده، بدا أن ذلك لم يحدث، وعلى الرغم من أن كل منهما يرغب في عودة الآخر، إلا أن أحدهما لم يسأل الآخر العودة، انتهت المكالمة فاترة مثلما بدأت، عاد البراء إلى مذكرات أسامة المدني، فتحها وقد بدأ يقرأ من حيث انتهى.

المرأة الفراشة

وصلنا (سمالوط) قبل الثامنة صباحًا بقليل، بيت العائلة في منطقة نائية، على أطراف قرية (دير جبل الطير) التي تعانق الجبل، حملنا أنا وأحمد تسنيم الملتفة بالملاءات، دخلنا البيت، وضعناها على السرير، أبدى أحمد رغبته في المغادرة على الفور للإسكندرية، حاولت إثناءه لكنه تعلل بمشاغله، صافحني وأعطاني بعض المال، وانصرف الخل الوفي.

اتصلت بدكتور وديع طبيب العائلة، القاطن بالقرية القريبة، وطلبت منه أن يحضر على عجل، تخطى الستين من عمره، قصير القامة، أصلع مع شعر أبيض منسدل على جانبي رأسه، له أنف كبير لا يتناسب مع حجم رأسه، هالني انحناء ظهره، واعتلال صحته، فلقد كان في صغري الحكيم الذي يصف الدواء ولا يمرض، شرحت له حالة تسنيم وما أقدمت عليه، وذلك حتى لا يفاجأ برؤيتها، ولكنه تفاجأ على كل حال؛ القشور تملأ جسدها، طبقات بعضها فوق بعض، جلد متسلخ عند كثير من مناطق جسدها، إفرازات صديدية مختلطة بدم، لم تسعف خبرة الطبيب الهرم طوال سنوات عمله، لاستيعاب هذا المنظر.

ـ «هل يمكِنُكِ الجلوس؟» سألها دكتور وديع، هزت رأسها نافية، فنظر إليَّ، اتجهت إلى السرير، وساعدته في رفع تسنيم لتجلس منتصبة، وكم كان ذلك مؤلمًا لها، أخذت تصيح بوهن، طلب أن أكشف عن ظهرها، رفعت ثوب النوم

الفضاض، ليكشف عما هو أسوأ من وجهها وذراعها ورجليها، فظهرها أقرب إلى صدفة سلحفاة، أو قشور كركند (استاكوزا) عملاق، لكنه رقيق شبه شفاف، تظهر تحته ملايين من شرايين دماء، ويبرز من تحته شيآن كأنهما ذراعان يحاولان تمزيق ذلك الغشاء والخروج «ما هذا!» صاح دكتور وديع «لماذا أخرجتها من المستشفى يا أسامة؟»

سألت متجاهلًا اعتراضه:

ـ «ما تشخيصك يا دكتور؟»

أخرج من حقيبته قفازًا مطاطيًا، وقال وهو يدخل كفيه فيه:

ـ «لا أعلم، لم أرى مثل هذا من قبل». ثم اقترب وقد عدل نظارته، ووضع يده على ظهرها يتحسس تلك القشور وذلك البروز مستطردًا «ربما هو نوع متقدم من الصدفية» ونزع بعض القشور ووضعها داخل علبة بلاستيكية صغيرة، ثم أخرج محقنًا بلاستيكيًّا «لدي أصدقاء أساتذة أمراض جلدية ومناعة، ربما استطعت أن آتي بأحدهم يشخص حالتها». غرس الإبرة في ظهرها، وسحب عينة من السائل الشفاف المختلط بالدماء «ولكن من الأفضل أن نذهب بها إلى مستشفى قصر العيني الجامعي في القاهرة، فهناك من الأساتذة من يملكون إجابات».

صحت معترضاً:

ـ «لا، لا مزيد من المستشفيات».

ـ «ولم لا؟»

ـ «سيجعلون منها فأر تجارب، يعذبونها بفحوصاتهم، ولن يقدمواْ الكثير، وبعد أن يستنفدواْ الغرض من دراستها، يتركونها لتتعذب حتى الموت، وأحسبه قريباً».

ـ «لكني لا أملك لها شيئًا هنا يا بني؛ إلا بعض المسكنات».

هززت رأسي في عناد:

ـ «أنا أضع ثقتي بك يا دكتور، وأملي أنك ستجد حلاً».

حقنها دكتور وديع بمسكن قوي وأعطاني وصفة دوائية:

ـ «أنصحك بأن تأتي بمن ترعاها، وتعطيها العلاج وتنظفها باستمرار» وكتب رقم تليفون في ورقة «هذا رقم ممرضة ربما توافق أن تأتي لها، وقد أخذت بعض العينات لتحليلها».

بعد انصراف دكتور وديع، اتصلتُ بالممرضة التي أوصى بها، التي ما إن جاءت حتى فرت هاربة متعللة بأن الحالة خطرة، وتتطلب عناية مركزة في مستشفى، ولا ألومها على ذلك، فهذا رأيي أيضًا، وتركتني في حيرة من أمري، اتصلت بلؤي، الخفير الذي أترك له أمر حراسة البيت في غيابنا، وطلبت منه أن يحضر (حياة)، خدمت حياة أمي حين كانت فتاة صغيرة، والآن أصبحت أم ندى، ولا أظنها تمانع في المجيء لرعاية تسنيم، جاء عم لؤي يصحب أم ندى، وطلبت منه أن يأتي بالعلاج من (سمالوط).

رغم حداثة سنها، إلا أن التجاعيد غزت وجهها الأبيض، وانطفأ لمعان عينيها الرماديتين، وازدادت نحافة، كانت ترتدي عباءة سوداء، والتي استبدلتها نساء القرية هذه الأيام بالجلباب الفضفاض قديمًا، سألتها عن أحوالها، ثم شرحت لها حالة تسنيم، فقبلت على الفور دون إلحاح، لكني طلبت منها أن تصحبني إلى غرفة تسنيم، لتراها قبل أن تتسرع في القبول.

كان صوت تنفس تسنيم عاليًا، وراعها ما رأت، ولكنها تماسكت وسألتني عما بها، أخبرتها أنه مجرد مرض جلدي غير معدٍ. اقتربت من تسنيم وربتُ على كتفها:

ـ «تسنيم، تسنيم» فتحت تسنيم عينيها ونظرت لي «هذه أم ندى، سوف ترعاك في حال غبت أنا».

نَظَرَت لها، ثم التفتت إليَّ متسائلة:

ـ «أين تذهب وتتركني؟»

قلت باسماً:

ـ «لن أتركك، قد أحتاج أن أذهب إلى لعمل وأعود لك مباشرة»، ثم نظرت إلى حياة «في هذا الوقت ستبقى معك أم ندى، ولن أذهب للعمل حتى أطمئن عليك».

اقتربت منها أم ندى وربتت على ذراعها:

ـ «سلامتك يا مدام تسنيم، إن شاء الله الشفاء قريب».

لم ترد وعادت للنوم، شرحت لحياة كلام دكتور وديع، وأكدت عليها أنه إذا طرأ أي طارئ أن تتصل به، وأعطيتها رقم تليفوني لتبلغني بأي شيء إذا كنت غائبًا، تركتها تأخذ مكانها في البيت وتنظم أمورها وأمور تسنيم، واتصلت بزميلي في العمل محمود، وطلبت منه أن يكتب لي أجازة ثلاثة أيام، ويوقعها من المدير.

وقفت أمام تسنيم متسائلًا ما عساي أفعل؟ لا بُدَّ من مخرج من هذه المشكلة، لكني كنت مرهق الجسد والنفس، وأحتاج للراحة، فكرت أن أنام في غرفة مجاورة لتسنيم، لكني صعدت على السرير ومددت جسدي بجانبها ونظرت لها، لم أخش مرضها، ولم أخش لمسها، وهل تَلَمُّسُ الحبيب يخيفُ؟ انحدرت مني دمعة، فتحت عينيها نظرت إلي، ابتسمت ثم أغمضت عينيها، وأغمضت عيني.

في الصباح لم أجدها بجانبي فانخلع قلبي، انتفضت واقفًا وانطلقت أبحث عنها:

ـ «تسنيم» جريت باتجاه البهو «أم ندى، تسنيم».

ـ «نحن في المطبخ» كان صوت أم ندى، انطلقت المطبخ، فرأيت ما سر نفسي، كانت أم ندى تقف أمام الموقد تسخن الفول وتقلي بيضًا، ورائحة السمن تزكي النفس، لكن لم يكن ذلك الذي سرني، بل هو رؤية تسنيم تجلس إلى منضدة المطبخ تتحدث إلى أم ندى، ولما رأتني تهللت وقالت:

ـ «أصحوت يا أسامة؟»

ـ «لقد قلقت عليك لما لم أجدك بجانبي».

انحنيت وقبلت رأسها، فضحكت أم ندى ضحكة خجول مكتومة، جلست أنظر إليها، غير مصدق أنها تجلس وتتكلم وتضحك كعادتها، نعم لا يزال جسدها ووجهها مشوهًا بالقشور الغريبة، لكنها تشعر بصحوة.

ـ «كيف تشعرين اليوم» قالت وهي تتلذذ بالفول الذي يملأ فاها:

ـ «أفضل كثيرًا، ربما هو جو (المنيا) الجاف» .

ـ «بالأمس شعرت أني أفقد قلبي».

فابتسمت واحمر وجهها خجلًا، صحبتها بعد الإفطار خارج البيت، لتتعرض للهواء النقي وضوء الشمس، مشينا في الطريق الممتد من أمام مدخل البيت إلى الدير القريب من الجبل، وهو طريق ترابي تحفه الأشجار، بقعة جميلة متبقية من الكثير من البقاع التي فقدناها، بسبب زحف غابات الإسمنت.

ـ «أريد للزمن أن يتوقف هنا» .

قالتها تسنيم وهي تتكئ على ذراعي، وتضع رأسها على كتفي،كانت المسيرة بطيئة جدًّا، وحبيبتي تتألم، أجلستها إلى جانب الطريق على جذع شجرة ميتة:

ـ «سنتجاوز هذه المحنة معًا، أعدك بهذا».

صمتنا قليلًا نتنسم النسيم الرقيق الذي داعب وجناتنا، لم نكن لنتحمل جو الصعيد القائظ، لولا أننا في فصل الشتاء.

- «أيًا كان القادم فأنا أتقبله، طالما أنه سيأتي وأنا في كنفك، وحضنك».

اشتدت الريح وتطايرت بعض الأوراق الجافة، فضمت تسنيم (الروب) من رعشة اعترتها، ثم أردفت:

- «لكل منا نصيبه من الابتلاءات، وأظن أني عرفت نصيبي مبكراً» سعَلَت «ولكن المهم هنا؛ هل سيكون بجانبنا وقت الابتلاء من يساعدنا على تجاوزه؟» ثم نظرت في عيني مبتسمة فبادلتها الابتسامة «وقد رزقني الله بك، فجعلك عونا لي في محنتي».

تحررت دمعة الحبيسة، انحدرت على صفحة خدها الأيمن، حتى استقرت في ركن شفتها واختفت:

- «أحبُّكِ» خرجت مني، فاحمر وجهها كما في كل مرة أقولها، طالت جلستنا تحت ظل الشجرة، وقد أردناها أن تطول دهورًا، أن يتوقف الزمن بنا هنا، لكنه -كعهده- لا يُمهل.

كنت سأمدد إجازتي بضع أيام أخرى، لولا أن الزملاء اتصلوا يحثونني على العودة، انتهزت فرصة تحسن حالتها، وذهبت إلى الإسكندرية لإنهاء بعض الأمور العالقة في العمل، ووصيت أم ندى بتسنيم، وحادثت دكتور وديع حتى يتابعها.

***

ظهر على شاشة حاسبه شعار شركة (كيو-سي) للطرود المحمولة جوًّا، على طائرات رباعية صغيرة بدون طيار مع صوت تنبيه بوصول طرد، ضغط بسبابته على الرمز، انسدلت بطاقة بها بيانات تسلم الطرد:

« طرد مرسل إلى: البراء أحمد

المرسِل: روڤان مسعود

وزن الطرد: ١٤٦ جرام

صندوق التسلم: ١٤ سي»

تصل الطرود من أعلى المبنى داخل شبكة أنابيب معقدة إلى أن تصل للصندوق المخصص، أخرج البراء من الطرد رسالة مطوية، وقصة مصورة مغلفة بغلاف بلاستيكي شفاف، مُعَنْوَنة ب(المرأة الفراشة)، وضعها جانبا وفتح الرسالة:

«عزيزي البراء أحمد،

تحية طيبة وبعد.

تابعت بشغف حلقات تحقيقكم الجديدة، الخاص بالمرأة التي نبت لها جناحان، والحقيقة لما قرأت أولى حلقاته، طرق لديَّ ذكرى مدفونة في أعماق ذاكرتي، كان لدى والدي -أطال الله عمره- مكتبة كبيرة، وقد جمع بها الكثير من الكتب القديمة، التي ورثها عن والده، وقد لفت نظري عدد من القصص المصورة القديمة، التي تتحدث عن بطلة خارقة يمكنها الطيران، ولما سألت والدي عنها؛ أخبرني أنها كانت تخص جدي -رحمه الله- قرأتها وأعجبتني، ولكن ما

أثارني لاحقًا، أن والدي أخبرني أن جدي ذكر له أن هذه السلسلة مبنية على أحداث حقيقية، وأنه يعتقد أنها مجرد نصابة، لها جناحان صناعيان والباقي مبالغات من العامة، ولم أفكر في ذلك حتى قرأت تحقيقك، وها أنا أضع تلك النسخة الأصلية بين يديك، لعلها تكون أكثر قيمة معك، وتعطيني القول الفصل في حقيقتها، واعذرني في الاحتفاظ بباقي القصص؛ فهي أثيرة إلى قلبي.

روڤان مسعود

شمال سيناء- مصر»

فتح البراء القصة المصورة، الورق مصقول، على الغلاف صورة لامرأة شقراء ترتدي ملابس ضيقة، وتحمل طفلًا، وفي الخلفية مبنى يحترق، أخرج القصة من غلافها، فوجدها قديمة مهترئة، قلب صفحاتها ست وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، على الركن الأيمن العلوي من غلافها شعار دار نشر اسمها (فنون)، الورق قديم جدًّا مصفر، فتعامل معه البراء بحرص شديد حتى لا يتمزق، وبدأ في قراءة القصة.

«صورة بيت جميل تحوطه أشجار وتقف أمامه سيارة، يترجل منها رجل يرتدي بذلة ويتجه إلى باب المنزل، في الصور التي تليها، يدخل الرجل بيته وتستقبله زوجته الشقراء، ترتدي روبًا منزليًا وتحمل طفلًا رضيعًا، تقبله الزوجة، وتخبره أنها أعدت له الدجاج المقرمش، في الصور التالية يسمعان

صرخات، وينظران من النافذة، تظهر في صورة أخرى مبنى يحترق، ويتجمع أمامه أهل الحي، وامرأة وسطهم تستنجد لإنقاذ ابنها المحتجز داخل البيت، يتجادل الزوجان في ذهاب الزوج لإنقاذ الولد، ويوافق الزوجان فتنطلق، ينظر الناس إلى السماء، ويقول أحدهم انظرواْ، إنها (المرأة الفراشة)، تظهر في الصورة التالية امرأة شقراء نحيفة، تحلق بجناحين، ترتدي ملابس سوداء ووردية ضيقة، واضعة قناعًا أسود على عينيها، فاردة رجلًا وتثني الأخرى، وانطلقت باتجاه المبنى، اخترقت إحدى النوافذ التي تندلع منها ألسنة اللهب، وتتابعت صور تنقلها وسط النيران، وتفاديها للعوارض المتساقطة، وتنقذ الطفل ذا الثلاثة أعوام من الحرق حيًا، وتخرج به، ويصيح الحشد فرحًا، ثم تعطي الطفل لأمه التي تمتن لصنيعها، ثم انطلقت تخفق بجناحيها مبتعدة، وسط صيحات الإعجاب من الجميع، ويتبعها امتنان رجال الإطفاء.

صورة أخيرة لها في بيتها تحمل رضيعها، يحضنها زوجها».

عرض البراء القصة على هيئة التحرير، وقد وافقواْ بعد جدال، على نشر القصة المصورة -رغم سخافتها- داخل تحقيقه.

*****

انسلاخ

اليوم أمسكت فراشة!

لم أمسك بواحدة يومًا في صغري، هبطت تلك فراشة على كف يدي، كم كانت هشة ناعمة كما خُبِّرْتُ عنها، تأملتها وهي تحرك جناحيها ببطء، شعرت بدغدغة أرجلها الستة على يدي، تحرك قرنيها تَشُمُني باحثة عن رحيق، لكن لا رحيق هناك ولا زهرة، غادرت تاركة لفحة هواء خفيفة، وسعادة غامرة ملأت قلبي، كأني بدأت حياتي الآن، وراقبتها تعلو.

جاءني اتصال من أم ندى جعلني أترك كل شيء عائدًا إلى المنيا، في الطريق ظلت تتردد في رأسي كلمات أم ندى:

ـ «مدام تسنيم تدهورت حالتها فجأة، استنجدت بدكتور وديع، لكنها رفَضَت قدومه، وصرخت طالبة أن نتركها وشأنها، وأغلقت الباب على نفسها».

كانت الشمس قد غابت عند وصولي سمالوط، دخلت البيت، كان حالك الظلام، ولا أثر لوجود أحد، صحت «أم ندى» لم ترد، ضغط على مفتاح الإنارة فلم يضيء المصباح، الكهرباء مقطوعة كالعادة، فصحت بصوت أعلى «يا أم ندى» أنرت كشاف الهاتف وذهبت إلى غرفة النوم، وجدتها مفتوحة وتسنيم ليست بداخلها، ناديت على تسنيم، أيضًا لم يرجع غير صدى صوتي، جريت أبحث عنها في كل غرف البيت، وفي المطبخ والحمام، لم أجدها، خرجت أبحث

عن لؤي فلم أجده، اتصلت بأم ندى، هاتفها مغلق، اتصلت على هاتف تسنيم، فلم ترد، لكنني سمعت رنين الهاتف، تتبعته إلى غرفة النوم، مهمَلًا لا تحمله تسنيم، تناهى إلى مسامعي صوت أنين واهن آتيًا من خارج غرفة النوم، خرجت لا أعرف أين أتجه، عاد الصوت ثانية فسرت باتجاهه، لكنه ما لبث أن توقف ثانية، توقفت إلى أن عاد، فأيقنت أن مصدره الغرفة المغلقة في آخر الممر، نضع فيها ما لا نحتاج إليه، وقفت بجانب الباب أصغي فلم أسمع شيئًا، ناديت «تسنيم» لا رد «هل أنت بالداخل؟» وضعت أذني على الباب، أصخت إلى ما خيل إلى أنه أنفاس متهدجة، حاولت فتح الباب فاستعصى، طرقت بمجامعي ثم صحت «تسنيم، حبيبتي افتحي الباب»، هرعت إلى غرفة النوم أبحث عن مفتاح الغرفة، وجدت عدة مفاتيح فأخذتها، وعدت مسرعًا إلى الغرفة لأفتحها، جربت كل المفاتيح، وأنا أسمع أنين تسنيم يتصاعد من الداخل «اصبري يا تسنيم، أنا أحاول أن أفتح الباب». كنت أضع المفاتيح بتسرع فتسقط من يدي المرتعشة، ألتقطها وأضع مفتاحًا تلو الآخر ولا يفتح أي منها الباب، حاولت بسكين مطبخ كبيرة، انكسرت ولم يفتح، صراخ متقطع يتبعه نشيج، ثم صراخ حاد جدًّا وكأنه يخرج من أعماق الجحيم، جهلي بما يحدث يمزقني، لم يكن للغرفة نوافذ حتى أدخل منها، لربما اختارتها تسنيم لهذا السبب، فهي لم تكن تريد لأحد أن يرى ما رأيته تلك الليلة «تسنيم سأكسر الباب، تراجعي للخلف». لم تحر جوابًا، وبدأت أضرب بقدمي الباب بقوة فلم

يهتز حتى، ضربته ضربة أخرى «افتحي يا تسنيم، سوف أطلب سيارة إسعاف ونذهب إلى المشفى، فقط دعيني أدخل». حاولت خلخلة الباب ثانية، لكنها صاحت ألا أفعل، فصحت غاضبًا: «ماذا يحدث بالداخل؟ خبريني، لن أقف مكتوف الأيدي وأنت تعانين». ثم انطلقت غير آبه لتوسلاتها إلى غرفة عم لؤي الخفير -الذي لم يعد للآن- وبحثت بداخلها عن العتلة الحديدية التي يضعها تحت سريره، فلم أجدها، اتصلت به، فسمعت رنين هاتفه داخل الغرفة «بئس الأمر يا لؤي، ليس هذا يوم تنسى فيه تليفونك» وخرجت أبحث عن أي أداة تصلح لكسر باب الغرفة، فلم أجد شيئًا، عدت إلى البيت وقد استغرقني البحث عدة دقائق، فلم أسمع صوت أنين زوجي، جريت باتجاه الغرفة وصحت بها فلم ترد، وضعت أذني على الباب، لم أسمع حتى أنفاسها، انخلع قلبي هلعًا أن تكون قد فارقت الحياة، عدت إلى الخلف وانطلقت باتجاه الباب، فانخلع تحت زخم جسدي، كدت أسقط ولكنني تمالكت نفسي وتوازنت، لاتزال الكهرباء مقطوعة والظلام حالك في الغرفة، أخذت أتحسس الموجودات وأصيح: «تسنيم، أين أنت؟» أضأت كشاف الهاتف الذي لم يبدد كثيرًا من الظلام، وجهته إلى الأرض باحثًا عنها، رأيت جزءًا من قدمها يخرج من خلف خزانة ملابس قديمة، هرعت إليها وقد تعثرت بشيء ما فسقطت، نهضت وما إن استدرت حول الخزانة حتى راعني ما رأيت، جسدها مسجى على الأرض لا أكاد أميز الوجه من القدم، هزيلة جدًّا، مغطاة بالدماء والقيح

المختلطين بملابسها المهلهلة، لا حياة فيها ولا أرى لها ملامحً، انحنيت أتفحصها، وما إن لمست يدي وجهها حتى خرج الجلد في يدي، فصرخت فزعا وصحت: «تسنيم، ماذا جرى لك؟» ولكن أنى لمثلها أن يجيب، فلا حياة فيها، هممت أن أحملها حتى سمعت صوت حركة في الغرفة، فزعت واقفًا مرسلًا الضوء إلى كل الاتجاهات، لمحت شيئًا ما يخرج مسرعًا من خلف صندوق كبير مغطى بملاءة، يتحرك ذلك الشيء في عصبية، واختفى خلف صندوق آخر في زاوية الغرفة، هلعت وسقط الهاتف من يدي فانفتح غطاؤه وانفصلت البطارية بعيدًا عنه، ظللت أصرخ هلعًا: «من هنا؟» عدت إلى الخلف: «من في الغرفة؟» تحرك الشيء، حتى ظننت أنه سيهاجمني، خرجت من الغرفة مسلمًا قدمي للريح أستنجد، ولكني أبعد ما أكون عن العمران، فقدت هاتفي -مصدر اتصالي وضوئي- فلم أعرف أين أذهب أو ماذا أفعل، ناديت على عم لؤي عله يكون قريبًا ويسمعني، عدت ثانية للبيت أتسلل بحذر، لم أسمع أي صوت يدل على وجود أحد، الظلمة كثيفة تجثم على روحي، جررت قدمي إلى الغرفة، دخلت ثانية أتحسس الجدران والأثاث، أحاذر أن أصادف الدخيل، لم أسمع صوتًا ولم أشعر بوجوده، فأقنعت نفسي أنه فر هاربًا، هرعت كالملسوع أبحث عن تسنيم، متمنيًا أن ما رأيته من جسد بلا حياة مجرد هذيان الظلمة والخوف، ولكنها لا تزال حيث تركتها، جسدًا لا روح فيه، تحسستها في الظلام، سرت في جسدي قشعريرة، لماذا جسدها رخو هكذا كأنه لا عظام فيه، سائل لزج لامس يدي،

لا أدري أهي دماء أم قيح أم خليط بينهما، أتحسس وجهها فأجد أنفًا لكن مجرد جلد، وشفاهًا ولا أسنان، عينين خلا محجريهما من العيون، بل خلت من المحاجر، غطاء رأس بلا جمجمة، ندت مني صرخة قصيرة كتمتها، قمت متجهًا إلى المطبخ أبحث عن شمعة أبدد بها الظلمة، وفي أثناء سيري تجاه المطبخ، عادت الكهرباء وأضيئ البيت، فعدت أدراجي إلى الغرفة، ضغطت مفتاح الإضاءة، لكن المصباح لا يضيء، اكتفيت بالضوء الداخل من الممر، عدت لتسنيم، بحثت عن الهاتف والبطارية، وجدتهما وانتظرت حتى فتح الهاتف، وأضأت الكشاف أسلط مزيدًا من الضوء، وقد أصبحت أخاف الاقتراب منها أكثر، وهنا رأيت ما لم أكن أتخيل أن أراه في أسوأ كوابيسي، لا وجود لزوجي، مجرد جلد ممزق مختلط بالدماء والقيح والملابس المهلهلة، لقد تم سلخ تسنيم ولا وجود للجسد، أحسست بدوار ووجدت صعوبة في التوازن، وأمسكت بأقرب شيء، كان مشجب ملابس خشبي، فأخذني وسقط أرضًا، وفي محاولتي النهوض، سمعت صوت حركة سريعة في الغرفة، قفزت واقفًا، فسقطت بعض الأشياء التي تملأ الغرفة على الأرض، محدثة جلبة كبيرة جعلتني لا أسمع تحركات ذلك الشيء، الذي شعرت من حركاته أنه ليس بشريًّا، درت حول الدولاب بحذر محاولًا تبين كنهه، سمعت صوت حركة؛ كأنما أقدام كلب جريح يحاول الفكاك من فخ، بدأت أقترب منه، والشيء يحاول الزحف مبتعدًا، ومع كل فزع له أفزع، كان مختبئًا خلف لوح خشبي

عريض مغطى بملاءة بيضاء، الأرض مغطاة بالتراب الذي يثيره حركته العصبية، وقعت عيني على عتلة، حملتها واقتربت الهوينى، درت ببطء حول اللوح الخشبي، كان يحجب الضوء الخافت الآتي من الخارج، الرؤية عسيرة، شعرت أني كالأعمى أمام خطر داهم، تحرك الشيء بعصبية شديدة وحاول النهوض، صرخت وتراجعت، عدت بحذر ولكن بقوة مستجمعًا شجاعتي، و... رباه!

كاد قلبي ينخلع مخترقًا أضلعي، في ذلك الضوء الواهن وقعت عيني على شيء أشبه بجسد بشري هزيل عارٍ، ملطخ بالدماء والمخاط، الذراعان مشوهان يستطيلان بشدة، ظللت مجمدًا في مكاني لثوان مرت كآبادٍ، نظر لي الشيء فلمعت عيناه، وفتح فمه، خرجت منه صيحة واهنة ولكنها حادة خلعت قلبي، نكصت على عقبي فرارًا، أتخبط بالموجودات، ندت مني لمحة على جسد تسنيم الهامد، خرجت من الباب المكسور نهبت الممر نهبًا، واصلًا للبهو ميممًا شطر باب الخروج، أنفاسي تهرب مني لا أكاد ألتقطها، خرجت إلى الحديقة مسلمًا قدمي للريح، اصطدمت بشيء ما، شهقت هلعًا، إلا أني سمعت من يقول «ماذا جرى يا أستاذ أٍسامة؟» نظرت له غير مصدق، حاولت أن أجد الكلمات التي هربت مني، ثم قلت: «لؤي تعال معي». وسرت عائدًا إلى البيت وهو يسألني عما هنالك؟ لم أعر سؤاله انتباهًا، سرت بحذر عدة خطوات أجبته: «هناك أحد في المنزل، تسنيم مصابة»، لم أخبره أنها جثة هامدة «هل

اعتدى حرامي على الست تسنيم؟» سأل لؤي: «نعم». أجبته، فانطلق مهرولًا إلى داخل المنزل يصرخ: «اخرج يا ابن المومس من عندك» هرعت خلفه محتميًا بقوته، والتي منحته ذلك الاندفاع، والذي بدوره بث فيَّ القوة «في الغرفة المغلقة» وجهته، فانطلق وانطلقت خلفه، ثم دفعت نفسي حتى سابقته، ودخلت الغرفة بقوة غير آبه لما سيقابلني، دخل لؤي خلفي ورأى جثة تسنيم، فزع وأخذ يعلو صوته بالتهليل والاسترجاع: «لا إله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون». تمتمت خلفه بنفس الكلمات التي أنساني الفزع إياها، انطلق كالوحش يزيح الأثاث والصناديق المتراكمة، يبحث عن الدخيل وهو يرغي ويزبد ويتوعد «خلف اللوح الخشبي» همست له، فاندفع، ساحبًا العتلة من يدي، ثم قفز فجأة خلف اللوح وهو يصيح: «حانت ساعتك يا ابن الأنجاس». ثم هدأ وتغير تعبير وجهه من الغضب إلى الحيرة: «لا أحد هنا». جريت لأتأكد من قوله، ثم رحت أزيح الموجودات وأبحث «لقد كان هناك منذ دقيقة واحدة، أنا متأكد».

ـ «لعله هرب وقت خروجك» لم يكد يكمل جملته، حتى جريت في أنحاء البيت أبحث عنه «ابحث في الخارج يا لؤي». هرع لؤي مسرعًا يبحث عن القاتل، وبدأت أدور على غرف المنزل غرفة بعد أخرى، أبحث عن ذلك الشيء، دماغي يكاد ينفجر، يهيج صدري بوَجْدٍ لا أجد له منفسًا، حبيبتي ترقد جثة هامدة تحت سقف هذا البيت، ولا يسعني أن أتوقف قليلًا لأحزن، فالوقت وقت

إمساك القاتل، من المطبخ إلى غرفة النوم، من غرفة المعيشة إلى غرفة الضيوف، حتى وصلت إلى البهو، ولا أثر للدخيل، خرجت أسأل لؤي إذا كان أفلح في مسعاه، قابلني وقد بدا على وجهه الخيبة، وقال: «اتصل بالبوليس». أخرجت هاتفي، واتصلت برقم النجدة (١٢٢) ولكن لا مجيب، اتصلت بالإسعاف (١٢٣) وأيضًا لا رد، نظرت إلى عم لؤي نظرة فطن منها ما أريد: «سأذهب إلى المركز أبلغهم». وانطلق دون تردد، فصحت به: ـ«واجعلهم يرسلون سيارة إسعاف».

استقل دراجته الهوائية وانطلق.

عدت إلى داخل البيت وبيدي العتلة، رأسي يدور، محاذرًا أن أجد القاتل مشيت الهوينى، اتجهت إلى الغرفة بخطىً متثاقلة، تجرأت على الاقتراب أكثر من الجسد، أو ما تبقى منه.

أفسحت لنفسي الوقت أذرف الدمع، خرجت تنهيدة حسرة من صدري، قمت متجهًا إلى غرفة النوم لجلب ما أستر به جسد تسنيم، فتحت الخزانة وأخرجت منها ملاءة بيضاء، وقفلت عائدًا، ولكن عند مروري بالسرير شعرت بحركة تحته، فجمدت مكاني، التفت ببطء مواجهًا السرير «اُخرج من عندك» صحت بصوت عالٍ لأستمد الشجاعة «أنا أعرف أنك بالأسفل، الشرطة في طريقها إلى هنا». سمعت صوت حشرجة، يصحبه هسيس واهنٌ لكنه مزعج جدًّا، صوت مخيف لا أستطيع وصفه، أشبه بصلصلة أفعى

مجلجلة، اقتربت في حذر من السرير، تحرك الشيء فتراجعت، استجمعت شجاعتي وتقدمت ثانية، ومع تقدمي شعرت به يرتعش، أصبحت بمحاذاة السرير، انحنيت ورفعت الملاءة ببطء شديد، وكأني أرفع لوحًا حديديًا، ترتعش يدي، أتصبب عرقًا، تحرك بشكل أسرع وأكثر اضطرابًا، انتفضت لكني لم أتراجع، نزعت الملاءة بقوة، ونظرت صائحًا: «من أنت يا مجرم؟» وأطبقت يدي على رجله، وسحبته من أسفل السرير، ثم انهلت عليه لكمًا صارخًا: «ما أنت أيها القاتل المجرم؟» يرفس برجليه ويلكم بيديه، يصرخ بصوت يمزق نياط القلوب، محاولًا الفكاك مني، واختلطت صيحاته بصرخاتي: «ستموت الآن، بعد أن أعذبك كما عذبت ...». ثم تحشرج صوتي، وكدت أسقط على الأرض مغشيًا عليَّ من هول ما رأيت، لقد أمعنت النظر الآن في وجه ذلك المخلوق، وعرفت ما هو، عرفت من هو.

*****

جثة مفقودة

عاد عم لؤي -بعد قرابة الساعتين- في عربة إسعاف، يصحبه أمين شرطة، فقط!

جرى إلى الداخل يحث المسعفين على الإسراع، دخل الجميع يحملون المحفة، متجهين إلى الغرفة المغلقة، فاستوقفهم صوتي:

ـ «أين تذهبون؟» نظر الجميع إليَّ، والأعصاب متوترة، لؤي متعجب من سؤالي، قلت لهم إن تسنيم بخير، ببرود لا يناسب الخطب، وأنها كانت في غيبوبة، واستفاقت بعد أن حصلت على أدويتها، والدخيل لم يكن إلا كلبًا عقورًا، فزع لما طاردته وهرب، لم أرى اقتناعًا على وجوههم، لكني أصررت على روايتي، لم يستسغ أمين الشرطة الكلام، وطلب بأن أسمح للمسعفين برؤيتها؛ فرغم كل شيء هو آتٍ من المركز ببلاغ قتل، سمحت لأحد المسعفين برؤيتها على أن يظل خارج الغرفة ولا يتخطى عتبة الباب:

«هل أنت بخير يا مدام؟» سأل المسعف الجسد المتدثر بالأغطية حتى رأسه، فلم يأته رد، نظر لي ثم أعاد السؤال، اقتربت من السرير، وأزحت الغطاء عن الرأس وقلت:

ـ «تسنيم، المسعف يريد أن يطمئن عليك».

ظهر رأس تسنيم ونظرت إليَّ ثم حركت رأسها ببطء، وقد اختفى أغلب وجهها خلف حجابها، ثم نَظَرَت إلى المسعف، أغمضت عينيها، وجاهدت كي تحرك رأسها لأعلى وأسفل أن نعم هي بخير، نظر لي المسعف متجهمًا ثم سأل:

ـ «هل تحتاجين شيئًا قبل أن أذهب؟ هل ننقلك للمشفى؟» حركت رأسها يمنة ويسرة أن لا، ثم أغمضت عينيها، وكأنها تقول اذهبوا من هنا، خرج المسعف من الغرفة، وخرجت خلفه، وأغلقت الباب، وسرت مبتعدًا عن الغرفة فساروا خلفي، قادهم عم لؤي إلى الخارج، أغلقت باب البيت وعدت إلى الغرفة، هممت أن أدخل لتسنيم، لكني تراجعت واتجهت إلى الغرفة المغلقة، دخلتها -وهي لا تزال مظلمة- وقفت عند أشلاء تسنيم التي لا تزال على الأرض، لا أدري ما أفعل بها، لقد تخلصت من الشرطة بكذبتي، فكيف أتخلص من الجسد الممزق؟ وبينا أنا أفكر، إذ طرق الباب، ذهبت أفتح لأجد عم لؤي.

ـ «ماذا حدث يا أستاذ أسامة؟ وكيف تعافت مدام تسنيم وقد رأيناها أنا وأنت ممزقة؟»

قلت مطمئناً:

ـ «كما حكيت تماما يا عم لؤي، فقط كانت في غيبوبة، أنت تعلم أن بها مرضًا جلديًّا يجعلها تظهر بذلك الشكل الممزق، وفعلًا كان هناك كلب طردته».

مط شفته السفلى مستغربًا:

ـ «الحمد لله على سلامتها، هل تأمرني بشيء؟»

ـ «شكرًا يا لؤي» هم بالانصراف فاستمهلته «أين أم ندى؟»

ـ «لا أعرف، ألم تكن مع مدام تسنيم؟»

ـ «لا لقد كانت تسنيم وحدها عندما وصلت، وهاتفها مغلق».

ـ «سأذهب الآن لأتفقدها».

فصحت به:

ـ «لا، لا داعي لذلك، الصباح رباح». ثم فكرت قليلًا، «سأذهب بها إلى المستشفى في سمالوط صباحًا، يمكنك أن تعود إلى بيتك الآن، لا داع لمبيتك هنا، ولا تذهب إلى أم ندى، أنا سأتصل بها عندما أحتاجها».

ـ «دعني إذا أكون بجانبك إذا احتجت لشيء».

ـ «لا، جزاك الله خيرًا، سأتدبر أمري» ووضعت في كفه نقودًا.

ـ «عُد لأولادك الآن».

عدت إلى غرفة تسنيم، وقفت أمامها أراقبها، عقلي يرفض التصديق، تمر الصور في ذهني غير مستوعب ما حدث منذ قليل.

«ستموت الآن بعد أن أعذبك كما عُذبت».

ثم تحشرج صوتي، وكدت أسقط على الأرض مغشيًا عليَّ من هول ما رأيت، أمعنت النظر في وجه ذلك المخلوق، وعرفت ما هو، عرفت من هو، بل هي:

ـ «تسنيم!»

صحت في هلع، هدأ الكائن، أو بالأحرى هدأت أنا، فلم تكن إلا تسنيم طوال الوقت، أو نسخة منها، فهي شبيهة لها أكثر نضارة، وربما أصغر، زالت كل القشور والتشوهات، جلدها باهت رقيق جدًّا حتى أن العروق تظهر من تحته، عيناها أكثر بريقًا، جسدها العاري -المغطى بسائل مخاطي- نحيل عما كانت عليه سابقًا، ولكنه جديد كأنها ولدت من جديد، لكن العجيب هو ظهرها؛ الذي نبت فيه نتوآن كبيران، كأنها عباءة من جلد تخرج من كتفيها، طرفان زائدان نبتا في ظهرها، لا أدري، إن كانت هي فعلا تسنيم، فجثة من بالداخل؟

ـ «تسنيم هل هذا أنت؟»

نظرت لي وصدر منها صوت محشرج غريب، فعدت لسؤالها:

ـ «ردي علي، هل أنت تسنيم؟»

أومأت برأسها أن نعم، لم أدر ما أقول، عدت لسؤالها:

ـ «ماذا حدث لك؟ وجثة من بالداخل؟»

انهمرت دموعها، ورفعت يمناها باسطة كفها، ومررته على جسدها، كحركة كشط السكين:

ـ «لم أفهم يا تسنيم، ولماذا لا تتكلمين؟ ماذا أصابك؟ هل اعتدى عليك أحد بسكين؟»

حركت رأسها يمنة ويسرة بالنفي، ثم انخرطت في البكاء بصوت حاد غريب

أزعجني كثيرًا، لا أفهم ما يحدث، ولا أدري ما أفعل بها.

رفعتها على السرير ودثرتها بالأغطية، جلبت كشافًا قويًا من غرفة المكتب، واتجهت إلى الغرفة التي بها الجثة لأفهم ما يحدث، وجهت كشافي فلم أجد الجثة، لقد تضافر الظلام والنور الخافت والتوتر في خداعي، فما على الأرض هو جلد مسلوخ، وقشور ودماء وصديد وقطع لحم مختلطة جميعًا بملابس تسنيم، بدأت الصورة تتضح أمامي، كان هذا هو جلد تسنيم في وقت مرضها، والآن قد انسلخ عنها وخرجت من داخله تسنيم بشكلها الحالي، زال عنها الضُر إلا من زائدتين في ظهرها، أخذت إحدى الملاءات التي تغطي الأثاث، ووضعتها على ذلك الخليط المقزز، وعدت لتسنيم فوجدتها منكمشة مغمضة العينين ترتجف، جلست على السرير بجانبها أتأملها:

ـ «تسنيم» نظرت إلي: «سأحملك الآن إلى الحمام أنظفك».

لم ترد وأغمضت عينيها ثانية، حملتها وهي تتألم بصوتها الغريب، وضعتها في حوض الاستحمام، وفتحت الماء الدافيء، وأزلت بيدي ما يغطي جسدها من بقايا دماء ومخاط، جففتها وحملتها إلى غرفة النوم، لا أعرف ما ألبسها إياه، مع وجود ذلك الجزء الكبير خلف ظهرها، الذي يغطي من كتفيها حتى ما تحت ركبتيها، أحضرت جلبابًا واسعًا لها ووضعتها داخله، ثم دثرتها بالأغطية، بقيت أنظر إليها، حتى حضر عم لؤي ومعه أمين الشرطة والمسعفين.

الآن بعد أن انصرف الجميع، استجمعت شتات نفسي، وقررت أن أتماسك، ليصفو تفكيري، ذهبت إلى الغرفة وأحضرت بعض الملاءات ووضعت بداخلها الأشلاء المقززة، ثم وضعتها جميعًا في جوال بلاستيكي، أحضرت رفشًا من غرفة لؤي، ودرت حول المنزل وتخيرت بقعة بعيدة عن الأنظار، تحت شجرة وحفرت عميقًا، ثم ألقيت بالجوال، وأهلت عليه التراب.

ذهبت إلى تسنيم فوجدتها نائمة، جلست على الكرسي المقابل للسرير أنظر لها، الساعة الثالثة والربع صباحًا، لقد كانت ليلة طويلة، ظل بصري مركزًا عليها، أفكر فيما مر بنا من أيام سابقة، ولكن تلك الليلة لم أكن أتخيلها في أشنع كوابيسي، لا أستطيع أن أفكر، عقلي صار مساحة بيضاء فارغة، لا أدري هل ما يمر بي حقيقة أم خيال.

انتفضت على صوت رنين هاتف تسنيم، نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، وجدتها تخطت الحادية عشرة صباحًا، وأنا على حالي مستلقٍ على الكرسي، تسنيم كما هي نائمة في وضع الجنين، لم يقلقها صوت الهاتف، صوت تنفسها حاد مرتفع، نظرت للهاتف فوجدت المتصل (ماما)، أمها تتصل بها يوميًا، فأخذت الهاتف ولا أعرف ما أقول، ظللت أنظر له حتى كف عن الرنين، ثم وضعته واتجهت لتسنيم أحاول إيقاظها، علني أجدها كما تركتها قبل سفري، وأن ما حدث بالأمس محض حلم، وهنا رن الهاتف ثانية، لا مفر لا بُدَّ أن أجيبها:

ـ «تسنيم، أنت بخير؟» كان في صوتها لهفة كأنما تشعر بما حدث، فلما تأخرت في الرد قالت: «تسنيم هل تسمعينني؟»

ـ «أنا أسامة».

ـ «أسامة كيف أحوالك يا بني؟»

ـ «أنا الحمد لله بخير، كيف أحوالك يا أمي؟»

ـ «بخير، أين تسنيم؟»

ـ «إنها نائمة الآن، لقد اشتد عليها المرض الليلة الماضية، وأحضرت لها الطبيب، وأعطاها مسكنات تجعلها تنام».

أنهيت تلك المكالمة، وأنا أفكر في المكالمة التي تليها ماذا سأقول لها؟ سمعت طرقًا على الباب.

ـ «صباح الخير يا أستاذ أسامة» قالتها أم ندى المختفية منذ الأمس، وقد ظهرت على الباب مبتسمة كأن شيئًا لم يحدث.

ـ «هل هذا ما وصيتك به يا حياة؟ أين اختفيت وتركت تسنيم وحدها في تلك الحالة؟»

ـ «لو تعرف ما كنت فيه لعذرتني» لم أرد منتظرًا تفسيرها «بعد أن حبست مدام تسنيم نفسها في غرفة النوم، ولم تستمع لتوسلاتي كي تفتح، جاءني اتصال من ابنتي أن أخاها الصغير مريض جدًّا، ولا بُدَّ أن أذهب به إلى المستوصف».

ـ «لِمَ لَمْ تتصلي بي؟»

ـ «اتصلت كثيرًا، ولكن تليفونك غير متاح دائمًا، لم أعرف ماذا أفعل، انتظرت حتى هدأت تأوهات المدام، واستأذنتها في الانصراف، فأذنت لي، على أن أعود لها بأسرع وقت».

بعد أن هدأت ثورتي، طلبت منها أن تذهب لابنها، فتسنيم بخير الآن، لكنها أصرت أن تبقى لترعاها، وإزاء رفضي سألتني أن تراها لتطمئن عليها وتعتذر لها قبل أن تنصرف، خفت أن أرفض فترتاب، اتجهنا إلى الغرفة وفتحت الباب، ولما حاولت الولوج، صدرت لها كتفي مانعًا إياها، فنظرت إليَّ مستهجنة.

ـ «لا أريد إيقاظها» قلت معللًا، لم تقتنع ونادتها:

ـ «يا مدام تسنيم» ثم حشرت جسدها ودخلت رغمًا عني «ست تسنيم» أدارت تسنيم وجهها ببطء، فلما واجهت أم ندى أجفلت الأخيرة واعتذرت.

ـ «لا مؤاخذة» ثم استدركت «حسِبتُك مدام تسنيم».

فأومأت تسنيم بوجهها أن نعم، فنظرت حياة إليَّ متسائلة:

ـ «نعم هي تسنيم يا حياة، اطمئني عليها».

اقتربت منها غير مصدقة، هذا الوجه النضر المشرق، هو الوجه الذي كان بالأمس مشوهًا، وجسد يحتضر وصوت صراخ لا ينقطع.

ـ «كيف أحوالك يا ست تسنيم» فأومأت تسنيم مرة أخرى، ولكن الريبة لم تبارحها، فنظرت إليَّ.

ـ «هل هذه مدام تسنيم؟» همست، فضحكت وقلت:

ـ «مالك يا أم ندى؟ طبعًا هي» وعقبْتُ بضحكة قصيرة مرتبكة، لم تبدو مقتنعة لكنها عادت لتسنيم تسألها هل تحتاج لشيء، حركت تسنيم رأسها يمنة ويسرة أن لا سألتني لماذا لا تتكلم.

ـ «هي فقط متعبة جدًّا وفي حاجة للراحة، اذهبي الآن لابنك وسأتصل بك».

بدت مترددة في الرحيل، وظلت رأسها في رحلة ذهاب وإياب بيني وبين تسنيم، ثم خرجت من الغرفة متثاقلة الخطى، نظرت لها نظرة أخيرة، قبل أن تخطو خارجًا، وخرجت خلفها أشكرها: «طمئنيني على حالة يوسف عندما يتحسن». قالت: «تبدو كأنها امرأة أخرى!» قالتها وهي تنظر في عيني، فلم أستطع أن أشيح ببصري عنها، فنظرتها المتحدية جعلتني أهم أن أقول لها: «كم أنت محقة!» ولكنني أجبتها: «أنت فقط رأيتها وهي مريضة، ولم ترينها في حال صحتها، دعي عنك القلق وادعي لها بعاجل الشفاء».

اتصلت بالدكتور وديع وطلبت منه أن يعرج عليّ بعد عمله بالمستشفى.

ـ «إن ما قصصته علي يا بني خيال، لم أسمع ذلك التوصيف من قبل».

هذا ما قاله الدكتور وديع، بعد أن قصصت عليه القصص، جعلته في البدء يقسم ألا يفشي أي شيء مما أقول لأحد، حتى لو للاستشارة الطبية، كان قد قطع حديثي بكثير من الأسئلة، لم أجد لها جوابًا، فقط أردت أن أسترسل، أن أسمع كلمة أهل الذكر «ولا ينبئك مثل خبير».

ـ «يا دكتور الأمر ما ترى لا ما تسمع، يمكنك أن تفحصها بنفسك لتتأكد من صدقي».

كان صامتًا طوال وقت فحصها، كأنه لا يصدق عينيه، طال فحصه للبروزين في ظهرها، جذب أحدهما، فرده وثناه عدة مرات وضغط على الجلد، فحص النسيج، وتأكد من وجود عظام تحت اللحم، ثم غمغم بشيء لم أميزه، فسألته: «ماذا؟» نظر لي وقال: «كأنهما جناحان». وعاود النظر لهما وقال:

ـ «نعم، لا يوجد وصف تشريحي أدق من ذلك، جناحان».

أمسكت برأسي، وقد هاجمني صداع شديد، أرى الصورة الآن من بعيد كأنني في حلم، حتى صوت الطبيب صار بعيدًا وله صدى، كل شيء حولي ضبابي مشوش، كأني أراه من تحت الماء:

ـ «ماذا تعني؟ جناحين كالطيور؟»

ـ «بل هما جناحا طائر».

عجز لساني عن الكلام، وقد ازداد الدوار، حتى أني لم أسمع سؤال دكتور وديع، ثم أفقت على صوته ينادي علي:

ـ «أين الأشياء التي قلت إنك دفنتها؟ أريد أن أراها».

استخرجت الجوال، ومن داخله الأشلاء المختلطة بالملابس، انحنى الطبيب على ركبته تحت الشجرة، كان أكثر مني جرأة في تفحص هذه الأشياء، عدل عويناته على أنفه، وقال لي: «أحضر مشمعًا كبيرًا، وافرشه على الأرض».

فعلت ما طلب، وبدأ في الفصل بين الأجزاء المتشابكة عن الملابس، وضع الأجزاء العضوية على المشمع، وأحضرت له كشافًا قويًّا، حيث اقتربت الشمس من المغيب، وصدرت منه همهمات، وهو يفحص كل جزء من الأجزاء، في الحقيقة كانت جميعها قطعًا رخوة، لا عظام ولا عضلات، فقط جلد ودماء وشعر وسوائل: «ما رأيك يا دكتور؟» بعد تفكير أخره عن الإجابة قال:

ـ «لا أعرف ماذا أقول، فالذي أمامي غريب؛ إن لم يكن مستحيلاً».

ـ «هل هو مرض نادر؟» نظر إليَّ وعيناه شاردتان في مكان آخر، ثم قال: «لا، ليس مرضًا، كأن ما أمامي حالة بيولوجية غير بشرية، هو نوع من الانسلاخ».

«انسلاخ!» قاطعته «مثل الثعبان؟»

ـ «لا، فالثعبان ينسلخ من جلده لينمو جسده، ولكنه يظل محتفظًا بجسده كما هو». ثم سعل بشدة واستطرد: «لكن ما نراه هنا أشبه بتحول اليرقة إلى فراشة، يتحلل الجسد القديم، وينتج جسد جديد تمامًا».

ـ «تقصد أن هذا ليس جسد تسنيم؟» قلت بنبرة لا تخلو من سخرية.

ـ «لا أدري يا بني، ما قلته بنيته على مشاهدات عينية، ولا بُدَّ من أخذ بعض العينات وأحللها» ثم صمت كأنه تردد فيما سيقول: «ولا بد أيضًا من فحصها بأجهزة الأشعة ، وأخذ رأي أطباء آخرين».

أشحت برأسي معترضًا: «لا يا دكتور وديع، أوافق على أخذ عينات للتحاليل، لكني لن أوافق أن تتحول زوجي لفأر تجارب، أنت تعرف حساسية المسألة».

ـ «لكن لا بُدَّ أن نعرف ما نواجه، فما أراه إلا نذير خطر، على الأرجح خلل جيني يحتاج إلى تدخل طبي». لم أرد مفكرًا فاستأنف: «عليك أن تثق بي».

ـ «بل أطلب منك يا دكتور أن تثق أنت بي، نحن لسنا في مجتمع يتقبل هذا التحول الجيني كما تقول، سيعاملونها كشيطان أو ممسوس، ولن يرحمواْ آلامها، فقط أطلب منك أن تساعدني بأقصى درجات الكتمان».

حرك الطبيب رأسه يمنة ورأسه معترضًا، لكنه استسلم: «إذًا سآخذ بضع عينات من هذه الأنسجة، ومن تسنيم، لأفهم حقيقة ما حدث». ثم صمت قليلًا: «ماذا ستقول لأمها وأبيها؟»

لقد ذكرني بأكبر مصدر قلق لي:

ـ «لا أدري يا دكتور، فذلك يؤرقني، وأخشى ألا أستطيع أن أداري عنهم حالتها كثيراً».

ـ «لا تفعل، فقط أخبرهم بالحقيقة مباشرة، خير لك من أن تدخل في متاهة الاتهامات».

أخرج مقصًا وعلبة بلاستيكية وملقطًا، وأخذ بعض العينات، ووضعها في العلبة، ثم دخل لتسنيم وأخرج محقنًا بلاستيكيا، وسحب عينة دم، وقص جزءًا من جلد الزائدة التي على ظهرها، وضع الكل في أنابيب، ثم هم بالانصراف

:«أعدك أني لن أخبر أحدًا بشيء، لكني أريدك أن تعدني بالمثل، وأن تعدني أيضًا أن تطلعني على أي تطور في حالتها، وإذا أصابها أي مكروه ستذهب بها للمستشفى».

ـ «أعدك يا دكتور». ثم صافحته شاكرًا إياه ثم انصرف. عدت إلى تسنيم وقد تذكرت والدتها، قررت أن أسارع أنا بالاتصال بأمها قبل أن تتصل هي، وأخبرتها أنها نُقلت إلى المشفى، وأنها في العناية المركزة، عرضت أن تأتي لكني نهيتها، ووعدتها أن أطمئنها أولًا بأول، وأن آتي بها إلى الإسكندرية حال تعافيها.

أنهيت المكالمة، يسيطر عليَّ شعور -بل أتمنى- أني أحلم، وعدت أجلس برفقة تسنيم.

ـ «تسنيم ... تسنيم»

فتحت عينيها إثر ندائي عليها، قد مر الآن حوالي ثمانٍي وأربعين ساعة على ذلك التحول، وقد لاحظت أنها تتعافى، جسدها يزداد نضارة؛ سريعًا جدًّا، استطاعت أن تجلس دون مساعدة، وظهر في عينيها بريق العافية، شكلها اختلف عن تسنيم التي أعرفها، صدر منها صوت غير الذي عهدته منها، تحاول أن تخرج كلمات، كأنها تأتي من شخص أبكم يحاول الكلام، فاستنطقتها:

ـ «تكلمي يا تسنيم، أريد أن أسمع صوتك».

ـ «بروا بروا... طنتها..».

لم أفهم فأعادت:

ـ «مبرا تا .... كمنتها».

حاولت أن أفسر كلامها، ربما تقول «ماما، هل كلمتها؟»

فأجبت حسب تفسيري:

ـ «كلمتها، وقلت لها إنك في العناية المركزة، بمجرد أن تستعيدي قدرتك على الكلام سأجعلك تكلمينها».

أشارت بيدها لوجهها وقالت:

ـ «يديبووو...ديديبوو».

ذلك النوع من التواصل عسير جدًّا، لا يمكننا الاستمرار على ذلك، أعطيتها ورقة وقلمًا، وقلت لها اكتبي، ولكنها كانت كمن أول مرة تمسك بالقلم، فلم تستطع أن تكتب شيئًا، بل بدت كأنها لم تتعلم الكتابة بعد، فتركت القلم يسقط من يدها، أشارت إلى فمها، أولتها أنها تريد أن تأكل، لا بُدَّ أنها جائعة جدًّا الآن، بعد ما قاسته.

أحضرت لها طعامًا من حساء وقطع دجاج وبدأت في إطعامها، بدأت تأكل بضعف لكنها لم تتوقف، فهي تأكل بنهم حتى بالنسبة لحالة صحوها، كانت أمي تردد، نعرف أن المريض تعافى، إذا رأيناه أكل، جلدها رقيق تظهر من تحته العروق خضراء، أسنان مرتلة ناصعة البياض، شفتان ورديتان وعينان...! هل كانت عينا تسنيم رماديتي اللون؟ أتذكرها بنية وأحبها كذلك.

بعد أيام عاد صوتها، ولكنه أيضًا مختلف. يبدو أنها نسيت أيام مرضها، وتتذكر ما قبله فقط، تعرف من أنا لكنها تشعر أني غريب عنها، حكيت لها ما حدث وهي مستغربة لا تذكر شيئًا من ذلك. استغللت عودة صوتها، وطلبت منها أن نطمئن أمها فوافقت، فعَّلت السماعة الخارجية وقربت التليفون من تسنيم:

ـ «ماتا... ماباها... ماما».

ـ «تسنيم حبيبة قلبي، ما لصوتك؟»

ـ «أنا خير... بهير... بخير يا ماما».

ـ «لا يعجبني صوتك، سوف آتي لأراك».

ـ «لا، لا لا... أتا ... أنا بخير».

ـ «كيف أحوالك يا تسنيم؟» كان هذا صوت أبيها.

ـ «أنا حُلوة يا أبي». قالتها بطريقة الأطفال في التعبير.

ـ «هل آتي لأنقلك إلى مستشفى أفضل في الإسكندرية؟»

ـ «لا داعي لذلك يا عمي» رددت عن تسنيم «فهي ستخرج غدًا على أقصى تقدير، وعندما تتعافى سآتي بها لتطمئنواْ عليها».

ـ «هي أمانة في عنقك يا أسامة يا ابني».

ـ «لا تقلق يا عماه».

ـ «نحبك يا تسنيم». كان هذا صوت جنى أخت تسنيم.

حاولت أم ندى عدة مرات أن تعود للخدمة لديَّ، لكني كنت أتحجج كل مرة بشيء، حتى نفدت الأعذار، وصار رفضي غير مسبب، وعم لؤي لاحظ أني لا أسمح له بدخول المنزل، وأن تسنيم لا تخرج أبدًا.

كنت أغسِّلها يوميًا، وألاحظ التغيرات في جسدها، جلدها يصبح أكثر نضارة وعينيها أكثر بريقًا، نما شعرها واستطال كما كان، لكن أهم تحول شاهدته يحدث يوميًا، الزائدتان خلف ظهرها، فجلدهما الشفاف يكتسي يوميًا بزغب خفيف، أو نوع من الشعر المائل للون الوردي، والذي يشبه في ملمسه ملمس الشمواه.

ـ «كيف حالك اليوم يا تسنيم؟»

ـ «أحسن يا دكتور وديع، تحسن صوتها كثيرًا، وصارت تستطيع القيام؛ والذهاب إلى الحمام بمفردها». رددت عنها.

ـ «هل تشعرين بشيء غير عادي؟»

قالت بتلعثم، ولكن بثقة:

ـ «لا، أشعر ... بأني أ... أكثر من طبيعية» ابتلعت ريقها «لماذا أنتم قـ... قلقون عليَّ هكذا؟»

أتم الطبيب فحصه لها، ثم قال لي:

ـ «تعالَ يا أسامة، واترك تسنيم ترتاح".

خرجنا إلى الصالة وجلسنا، ثم التفت إلى قائلاً:

ـ «كما قلت لك؛ هما جناحان لا ريب!»

ـ «لا أفهم يا دكتور، ما معنى هذا؟»

ـ «هل توجد أي حالات تشوه جسدي في تاريخ عائلتها؟»

ـ «لا أعرف، فوالدها يبدو طبيعيًّا».

ـ «وماذا عن والدتها؟»

ـ «لا أدري، هي غير مصرية، وليس لها أهل هنا».

ـ «من أين هي؟» سأل الطبيب باهتمام.

ـ «أتت من البوسنة صغيرة في فترة التسعينات، ربتها عائلة مصرية، ثم تزوجها الأستاذ عمرو في سن صغيرة، هذا كل ما أعرفه عنها».

أطرق يفكر ثم قال:

ـ «لا بُدَّ من عرضها على (كونسولتو)، وعمل أشعات».

ـ «ماذا قالت تحاليل الأنسجة؟»

ـ «التحاليل ليس فيها ما يقلق كثيرًا، ولكن هذه التحاليل العادية لا تفيد في تلك الحالة، نحتاج لتحليل جيني، وهذا لن نجده هنا، أريد أن أرى تركيب (الدي إن إيه)».

ـ «هل ترى أن أذهب بها إلى الإسكندرية؟»

ـ «ليس الآن، أُفَضِّلُ أن تظل تحت ملاحظتي في هذه المرحلة، فبمجرد أن تبدأ رحلة الفحوص في مستشفى؛ لن يبقى أمرها سرًّا».

أرادت تسنيم أن تخرج، فقد سئمت الجدران، تريد سماءً لا تحدها سُقُف، لكن من الخطورة بمكان أن يحدث ذلك نهارًا، خرَجْتُ بها تحت عباءة الليل، وعباءة سوداء فضفاضة مسدلة على جسدها كاملًا، مررنا أمام أعين لؤي، الذي هاله رؤيتها على تلك الهيئة، والحدبة الكبيرة على ظهرها:

ـ «هل تريد شيئًا يا أستاذ أسامة؟»

ـ «لا يا عم لؤي سنتمشى قليلًا لن نتأخر».

ـ «سلامتك يا مدام» فهزت تسنيم رأسها دون رد.

سرنا وسط الأشجار، لم نتحدث طوال سيرنا الحثيث، وصلنا أرضًا منبسطة قريبة من الجبل، لا يبدد الظلام إلا ضوء يسقط على استحياء، من خلال نوافذ الدير أعلى التل، كانت قد تعبت من المشي، فأجلستها على حجر مرتفع، ووقفت بجانبها، لم نتحدث هنيهة.

ـ «ما هذا الذي يحدث لي؟»

ـ «كنت أتمنى أن أجد الجواب عندك». أجبت.

نظرت إلي معاتبة:

ـ «وهل تظن أني أعرف؟ هل أصبحت مسخًا يا أسامة؟» نظرت إلى وجهها فرأيت دمعة منحدرة «هل هذان جناحان على ظهري؟»

علا صوت بكائها ودفنت وجهها في بطني، فاحتضنت رأسها ومسحت عليه، حالتها الآن لا تتناسب مع ردها على دكتور وديع، الذي ادعت فيه أنها بأحسن

حال، لم أستغرب تقلب مزاجها:

ـ «نعم هما جناحان» فاجأتها بقولي «أليس هذا ما يحلم به كل إنسان؟ أن يمتلك جناحين يحلق بهما حيث يشاء».

رفعت رأسها ومسحت دموعها:

ـ «يحلم أن يمتلك أجنحة في الجنة، ولكننا على الأرض» حرَّكَتْ ما على ظهرها واستطردت «بوجود هذين، سيطاردني الناس كمسخ، وربما يجرون عليَّ التجارب».

كانت عيناي مسلطتين على ظهرها، ولاحظت شيئًا فوجهت ضوء الهاتف:

ـ«تسنيم».

ـ «ماذا؟» صاحت.

ـ «هذه أول مرة يتحرك جناحاك، انظري».

أدارت رأسها وأنرت لها بالكشاف، فبدأت تحرك ما تحت ملابسها، فتظهر حركة مضطربة على ظهر ثوبها.

عدنا إلى البيت وخلعت الرداء، وبدأت تحرك جناحيها وتضحك:

ـ «شعور غريب» وبدأت تجاهد لتحريكها «أشعر بثقلهما، لكن مخي يحاول إيجاد مكان لهما».

وظلت تحركهما حركة عشوائية، حتى أنها أسقطت بعض الأكواب والأباجورة من على الكومود.

ـ «هوني على نفسك حتى لا تُجرحي».

وكأنها لم تسمعني، ظلت تحاول التحكم في حركتهما وتضحك، حتى استطاعت أن تبسطها على باعهما، وكم كان الباع طويلًا، فربما تخطى المترين في كلا الخافقين، اليمين واليسار.

تحول الأمر في الأيام التالية إلى هوس، فأصحو من نومي ليلًا على صوت ريح في البهو، فأجد تسنيم تحرك جناحيها، أول ما تبدأ به صباحًا قبل الإفطار هو تمرين جناحيها، حتى تخيلت ماذا سيكون ردة فعل أحدهم إذا قلت له:

ـ«زوجتي في الجيم تمرن جناحيها!»

مع الوقت صارت تتحكم فيهما، وقويت عضلاتها بحيث أنها تستطيع رفعهما فوق رأسها، بمشقة في البداية ثم ازداد الأمر سهولة مع الوقت، مما أثار ذهول -وقلق- دكتور وديع، ثالث الثلاثة الذين يشاركون ذلك السر، ثم جاء يوم لم أتخيله في أحلامي، وقفت أمامي تسنيم وأنا جالس إلى مكتبي وقالت:

ـ «أريد أن أطير» لم أجب لدقيقة، ثم قمت من مكاني سرت قليلا والأفكار تتقاتل في رأسي، وهي تسير خلفي دون أن تنطق، ثم التفتت إليها وقلت:

ـ«تسنيم، هل تعلمين أن ما لديك هو مشكلة خطيرة؟» لم ترد فاستطردت:

ـ«هذا تشوه شديد لا نعرف سببه، ولا بُدَّ أن نجد له علاجًا».

ـ «لا تقل تشوهًا، هي هبة من ربنا».

ـ «هبة!».

ـ «نعم، قل لي بالله عليك هل شكلي مشوه؟ هل هذه هيئة مريضة؟» صمتت ولم أعرف بمَ أرد: «بالطبع هيئتي ليس هيئة مشوهة، بل هي معجزة إلهية».

ـ «وماذا نصنع بهذه المعجزة؟»

ـ «نحمد الله عليها، ونتقبل هديته».

ـ «لا بُدَّ أن عقلك أصابه الخبال، وإلا ما قلت هذا الكلام».

ثم ابتعدت عنها لأنهي الحوار:

ـ «فقط اسمعني يا أسامة، نحن لدينا مشكلة، ألا ينبغي أن نعرف كل شيء عنها قبل أن نحاول حلها؟»

ـ «لا أفهم».

ـ«يعني فلنحاول أن نفهم طبيعة ذلك العضو الجديد... ».

ـ «التشوه» صححت.

ـ «فلنحاول أن نفهم ذلك التشوه، حتى نستطيع أن نتعامل معه».

ـ «وماذا تقترحين؟»

ـ «نخرج كل ليلة، وأحاول أن أستخدم جناحي هاتين، ونعرف ما هما قادران على فعله، أرجوك أن توافق».

تركتها ودخلت مكتبي دون رد، ودخلت هي غرفتها دون مزيد إلحاح، وهذا ما أحبها لأجله، هي تعرف متى تبدأ، وتدرك من حالتي متى ينبغي عليها أن تتوقف.

في المساء ورد اتصال من أمها على هاتفي:

ـ «أسامة هل تسنيم بجانبك» قالتها بصوت هامس، لكن فيه حرقة.

ـ «لا، سأذهب لأناديها لك».

ـ «لا لا» صاحت «أريد أن أكلمك وحدك» .

ـ «تفضلي أنا وحدي».

صمتت قليلًا حتى ظننت أن الخط انقطع، ثم قطعت صمتها قائلة:

ـ «لقد اتصلت بي أم ندا».

آه، لقد وسوست المرأة في أذن حماتي:

ـ «لماذا؟» سألتها وأنا متوقع الإجابة.

ـ «تقول كلامًا غريبًا» لم أرد منتظرًا باقي الكلام «تقول إنك لا تريد أن تدخلها البيت، وأن التي في البيت ليست تسنيم».

ـ «وهل استمعت لهذا الخرف؟»

ـ «هذا الكلام وافق شكًّا لدي».

ـ «أي شك؟»

ـ «صوتها المختلف، ونسيانها فترة مرضها».

ـ «هذا بسبب مرضها» فسرت.

ـ «وما سر رفضك الدائم مجيئي؟»

ـ «وماذا تقترحين؟ أني بدلت تسنيم؟» علا صوتي.

ـ «لا أعرف، لكن من أكلمها ليست ابنتي، ماذا فعلت بابنتي؟» منفعلة.

ـ «يا أسامة» كان هذا صوت أبيها أخذ من يدها التليفون «كل ما أرغب فيه أن تأتي بها إلى الإسكندرية؛ لتطمئن أمها عليها».

ـ «طبعًا، أسبوع واحد وسآتي بها إن شاء».

ـ «لا أسبوع كثير» كان هذا صوت أمها من الخلف.

ـ «لا بأس يا أسامة، ولكن ليس أكثر من أسبوع».

كانت تلك المكالمة نذيرًا بين يدي متاعب مقبلة، فقررت أن أبدأ التحرك سريعًا، دخلت على تسنيم وقلت لها «ينبغي أن يكون ثوبك مناسبًا لحالتك الجديدة» لم تفهم ما أرمي إليه فاستأنفت «علينا أن نصنع ثوب فيه فتحات تخرج منها جناحيك، إذا أردت الطيران».

استبشرت وتهلل وجهها، وقفزت صارخة، وألقت نفسها في حضني.

ذهبنا إلى مكاننا الواسع المنعزل عند سفح الجبل، أزلت من على كتفيها الرداء فظهر جناحاها، على استحياء فبسطتهما، امتدا حتى وصل باعهما من الطرف للطرف حوالي ستة أمتار، منظر مهيب جدًّا، لو رأيته أمامي لأول مرة لوليت هاربًا، ولو حكاه لي صديق صدوق لما صدقته.

بدأت تتحرك وجناحاها مبسوطان، ثم أسرعت الخطى، ثم ركضت تحرك جناحيها، أطلقت ضحكة طفل يتعلم المشي لأول مرة، نظرت حولي لأتأكد ألا أحد يرانا، وهي لا تزال تجري وتحاول أن تملأ جناحيها بالهواء، وزادت من رفرفة جناحيها، ثم بدأت تقفز وتقفز، وترفرف حتى لم تستطع التحكم في جسدها، وانكفأت على وجهها، زحفت تحت زخم حركتها على بطنها ووجهها

عدة أمتار للأمام، جريت إليها هلعًا، وانحنيت لأقلبها على ظهرها، لكني وجدتها تضحك، رغم الخدوش على وجهها وألم مفاصلها والموقف المحرج، تضحك بإقبال على الحياة، وكأنها لم تختبر شقاءً قط، مسحت بيميني التراب على وجهها، تعالت ضحكاتنا معًا، كانت لحظة في العمر نادرة كالألماس.

في اليوم التالي حدث مثل ذلك، وفي اليوم الثالث رفرفت جناحيها بقوة كبيرة فارتفعت بضع سنتيمترات عن الأرض، فصرخت صرخة طار لها لُبِّي، ورغم فرحي لفرحها إلا أن فزعي فاق فرحي؛ لما سيعقب ذلك في الأيام القادمة.

في اليوم الرابع جاءت أم ندى تسأل عن تسنيم، ما شأن هذه المرأة؟ لماذا تلح على أن ترى تسنيم؟ كانت لاتزال حفيظتي مستثارة بسبب مكالمتها مع أم تسنيم، رفضت دخولها بشدة، وطلبت من عم لؤي ألا يسمح لها بالمجيء ثانية، ففعل ذلك ثم جاء إلي يريد أن يكلمني:

ـ «هات ما عندك يا عم لؤي».

قال متردداً:

ـ «الناس في البلد يتكلمون».

ـ «الناس دائمًا يتكلمون، ما الجديد؟»

ـ «الجديد أنهم يقولون، إن المدام قُتلت، وأن هذه ليست مدام تسنيم».

ـ «وهل تصدقهم؟»

ـ «لا طبعاً» رد مسرعًا «لكني لم أر المدام منذ الحادثة، وعندما تخرج، تخرج

مستترة تحت إسدالها، ولها هيئة غريبة كأنها ليست مدام تسنيم، ولا تحدثني أبدًا».

ـ «تسنيم هي زوجي الوحيدة، لا زوج لي غيرها» ثم أشحت بوجهي مبتعدًا «اطمئن وطمئن الناس، تسنيم حية ترزق، وهي من معي الآن في البيت» فانصرف دون كلمة أخرى.

في اليومين الخامس والسادس جرت تسنيم بسرعة كبيرة جدًّا، قدماها اكتسبتا قوة فائقة، فلم أستطع أن أجاريها، ارتفعت عن الأرض مسافة تتخطى المتر لكنها سقطت سريعًا، فعلت ذلك عدة مرات، وجُرِحَت عدة مرات، لكنها لا تبالي وتحاول ثانية، كنت أجد صعوبة في أن أجعلها تتوقف، كانت كالصبي الذي غادر حجر أمه في منتزه متسع.

في تلك الليلة راقبت نومها، الذي أصبح هادئًا وعميقًا، كبغل سرجة أضناه الدوران في الطاحونة، لكني لاحظت شيئًا غريبًا، جروحها التي على وجهها التأمت! لقد جرحت منذ سويعات قليلة، وها هي لا يظهر عليها أثر، كيوم ولدتها أمها، ما تلك القوة العجيبة التي اكتسبتها تسنيم؟

في اليوم السابع اتصل والدها وذكرني بموعدنا:

ـ «لقد قلت لي أسبوع على الأكثر، وها قد مر».

ـ «نعم، لكن الأجواء هنا جعلت تسنيم تتحسن كثيرًا، وأرى أن تستمر لعدة أسابيع أخرى، فيتم الله لها الشفاء».

ـ «لا» صاح «لماذا ترفض أن تأتي بتسنيم؟» كانت نبرة لم أعهدها منه قبل اليوم «أنا أيضًا أشعر أني لا أكلم ابنتي، وأم ندى تقول إنك طردتها، قل لي يا أسامة ماذا تخفي؟»

ـ«لا أخفي شيئًا يا عماه» ثم فكرت «سأنجز بعض الأمور المهمة وآتي لك في خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر».

ـ «قسمًا بالله يا أسامة، إن لم تأتِ بعد ثلاثة أيام، ستجدني اليوم الرابع عندك» وأغلق الخط.

في اليومين السابع والثامن لم نخرج؛ فتسنيم كانت متعبة، وأنا لم أكن في مزاج رائق.

أتى اليوم التاسع، خرجنا وكنت مستغرقًا في التفكير، ولا أعرف كيف أُظْهِرُ تسنيم لوالديها وهي بتلك الحالة، وصلنا حقل تدريب الطيران الخاص بنا، وبدأت تسنيم تجري وتحرك خافقيها، ويلفح الهواء وجهي، أعطيت ظهري لها أتفحص بريدي الالكتروني، هناك بعض الأمور العالقة في العمل -الذي ابتعدت عنه كثيرًا- وينبغي أن أعود سريعًا، سمعت صوت ندائها لي، فلم ألتفت، ثم صرخت بصوت عالٍ وبدأ صوتها يبتعد، التفت فوجدتها ارتفعت عن الأرض مترين، تنطلق بسرعة، ثم زاد ارتفاعها، ثلاثة أمتار، أربعة، سبعة أمتار، خمسة عشر مترًا، تصرخ فرحًا وأصرخ عجبًا، ترتفع وأركض، تُخفق

جناحيها ويخفق قلبي، رباه هذا لا يصدق، زوجي هي أول بشري يطير بجناحين حقيقيين، جريت في اتجاهها خائفًا عليها: «يكفي هذا يا تسنيم، اهبطي» صرخاتها تغطي على صوتي، أخشى أن يسمعنا الناس فينكشف سترنا «اهبطي بسلام» دارت في الهواء، تهبط فأحسبها تحط، حتى إذا اقتربت من الأرض تعلو فيهيج فؤادي فرقًا عليها: «كفي عن الخفقان يا قلبي» ظلت على حالها من الطيران في جو السماء لدقائق، هممت أن أخرج هاتفي وأصورها لكني خشيت أن يتسرب الفيديو، هبطت تجاهي، كان منظرًا مهيبًا، امرأة تتشح بالسواد يبرز خلفها جناحين، تهبط تجاهي فاتحة إياهما على باعهما، ثم نزلت على قدميها بسرعة كبيرة أجبرتها على الركض تجاهي، كنت مادًا ذراعي، خبأتها في حضني، ورفعتها من على الأرض فرحًا ورحت أدور بها حول نفسي.

لم ننم في هذا اليوم فرحًا، ظللنا نتحدث طوال الليل بحماس عما حدث، كانت هذه أسعد أيام حياتنا، لقد طار قلبي بجناحين في الهواء، جملة قالها الكثير قبلي مجازًا، لكني أقولها حرفيًا، طارت زوجي في جو الفضاء وأنا شاهد، لا ينبغي أن أفكر فيما بعدها، فالحزن اليوم حرام، فقط سنفرح ونمرح حتى نطرد من حياتنا كل خوف يعترينا وقلق.

في اليوم التالي لم نطق صبرًا، حتى إذا هجم الليل انطلقنا لملعب لهونا، طارت من أول مرة، وظلت تحلق، لكن اليوم بهدوء، بجناحين قويين، تخفقهما حينًا، وتتركهما مفرودين للريح أحيانًا، أغمضت عينيها كأنها تنام فوق الهواء، كانت

تهبط كي ترتاح ثم تعود لتحلق، كلما أمرتها بالعودة، كانت تترجاني أن أتركها تمرح قليلًا، حتى انهارت مقاومتي وجلست، وتركتها تفعل ما يحلو لها.

مضت ساعات حتى سمعت صوت أذان الصبح من مساجد القرية، ولازالت تدور في الهواء، حتى شارفت الشمس على الإشراق، مرت فوق رأسي مقتربة وطارت مبتعدة، فلمحت على بعد ضوءًا ساطعًا، اقتربت منه، فرأيت شابين يمسك أحدهما بهاتف، ويبدو أنه يصور تسنيم فيديو وأحدهما يقول «انظر» وهو يشير إلى تسنيم، جريت نحوهما، سمعت الذي يحمل الهاتف يقول: «يا للهول! ما هذا؟»، كنت قد اقتربت منهما كثيرًا، لم يلاحظا اقترابي لانشغالهما بتسنيم، والتي ما إن رأتهما حتى صرخت، واستدارت مبتعدة، صحت بهما :«يا أولاد، ماذا تفعلان؟» أجفلا وركضا «أعطوني هذه الكاميرا» لكنهما كانا قد أطلقا ساقيهما للريح هلعًا، حاولت اللحاق بهما لكن شبابهما غلب كهولتي.

أفسدت تلك الحادثة يومنا، دقائق معدودة ويجوب مشهد طيران تسنيم أقطار الأرض، مر عليَّ اليوم وأنا أفكر فيما أفعله، هل أذهب بها إلى أبويها وأُخبرهما الحقيقة؟ ومما زاد من كدري اتصال والد تسنيم على هاتفي، لم أستطع أن أرد، اتصل ثانية فلم أرد، وفي المرة الثالثة أغلقت الهاتف، لا بُدَّ أن أتصرف بسرعة، اتصلت بصديق لي من القاهرة، حتى يكلم سمسارًا يؤجر لي شقة، سوف أترك المنيا اليوم، ولن أعود إلى الإسكندرية، سأختفي قليلا في القاهرة حتى أجد حلًا، اتصلت بدكتور وديع أخبره بخطتي، وهناك يمكن أن نجري الفحوص

التي يريد، نصحني بعدم الابتعاد والمواجهة؛ لأنها الحل الوحيد، لكني كنت قد عزمت أمري، قلت لتسنيم أن تتجهز، اعترضت فهي تريد أن تكمل تحليقها، لكني عرفتها ما دار بيني وبين أبيها وأمها، وأن أباها سوف يأتي من الغد على الأكثر، ونحن غير مستعدين لمواجهته بحالتها، لا أحد مستعد لهذا، بعد لأيٍ اقتنعت، و بدأنا في حزم ما خف من حاجياتنا، أخبرت لؤي بأنني عائد إلى الإسكندرية، وطلبت منه أن يأتي كل يومين ليطمئن على البيت.

في الفجر ركبنا القطار من سمالوط، وانطلقنا إلى القاهرة، أغلقت الهاتف حتى لا أضطر للرد على والدها، كان خطأ لكنه حدث، قبل وصولنا إلى القاهرة بحوالي ساعة وما إن فتحت الهاتف حتى جاءني اتصال من لؤي:

«جاء الحاج عمرو والد المدام، ومعه قوة من المركز، وسألواْ عنك، قلت لهم إنك سافرت الإسكندرية فجرًا، وراحواْ يفتشون البيت، ولما سألتهم عن السبب رفضواْ إخباري، لكنهم اقتادوني إلى المركز، وسألوني عن الليلة إياها، قلت لهم ما حدث، وأنه كان إنذارًا كاذبًا، وأن الأمين نافع كان شاهداً» بلع ريقه ثم استأنف «وبعد قليل أتواْ بأم ندى، وسألوها عن شهادتها، تحدثت كثيرًا عن محاولات عودتها للخدمة، وعن أن المدام تسنيم مختفية، وأنك أتيت بشبيهة لها».

سألتني تسنيم عدة مرات عما هنالك، لكني لم أرد حتى أنهيت المكالمة:

ـ «نحن في ورطة كبيرة يا تسنيم» لم تعقب «أبوك يتهمني بقتلك».

المَلَك الأسود

ظهر على شاشة البراء تنبيه بريد صوتي من وليد، فني قسم الوسائط:

ـ «فتحت الملف (٠) الذي كان مستعصياً».

ـ «وماذا وجدت بداخله؟»

ـ «مئات من صفحات مواقع تواصل قديمة، مثل (فيس بوك) و(انستاجرام) و(يوتيوب)، وأيضًا تحاليل طبية وأشعات، ورسائل بريد اليكتروني، الحقيقة يوجد الكثير من الأشياء».

ثم حرك إصبعه على صفحة مكتبه وقال:

ـ «لقد أرسلت لك كل شيء».

ـ «شكرًا لك يا وليد».

فتح البراء الملف وبدأ بصور الأشعة، والتي تُظهر أطرافًا مشوهة، وتحليل حمض نووي، ورسائل بريد إلكتروني بين دكتور وديع، وطبيب آخر اسمه (أوليگ بوسلاف)، صفحات أرشيفية من موقع التواصل المتوقف (فيس بوك)، مجموعة تسمى (معجزات قديسين الكنيسة القبطية)، فتحها فظهر فيديو يظهر تسنيم تحلق في الهواء بصورة مقربة جدًّا، فأصبحت مشوهة، تقترب محلقة وتعود للخلف فزعة، لا يظهر وجهها، فقط جناحاها، هو نفس الفيديو الذي أرسله له نهير، ولكن مقتطع؛ فلم يظهر أسامة وصياحه، ولم يظهر فزع الشباب

وفرارهم، فقط طيران تسنيم يعاد مرارًا وتكرارًا، ونص بالأصفر على الفيديو «ظهور القديس (مرقريوس) يطير في المنيا».

***

آخر ساعة من رحلتنا إلى القاهرة، كانت عامرة بشتى صنوف المصائب، فبعد اتصال لؤي، طلبت مني تسنيم الاتصال بوالدها لمحاولة إقناعه بأنها حية ترزق، وكان رده بأنها ليست ابنته، وإذا أرادت أن تثبت براءتي فلنذهب إليه في المنيا حيث هو الآن، فتدخلت وقلت له إننا في طريقنا إلى الإسكندرية (محاولًا كسب الوقت)، وما إن وصلنا القاهرة واستقر بنا المقام في الشقة المؤجرة، اتصل بي الدكتور وديع، وبلغني أن نيابة سمالوط استدعته للمثول أمامها غدًا، عرفته باتهام أبيها لنا، وعن الفيديو المنشور، وطلبت منه أن يشهد بالحقيقة، ويعزز قوله بالعينات التي حصل عليها.

قضينا ليلتنا بين اتصالات من أم تسنيم وأبيها وتهديداته لي، وسبهما لتسنيم، التي يظنون أنها عشيقتي، وقد أقنعتهما أني سأكون صباحًا عندهم في الإسكندرية ومعي المرحومة.

في الصباح -ولأن المصائب لا تأتي فرادى- ورد اتصال من صديقي أحمد عيسى، لم يبدأ بعبارات الترحيب، فقط أخبرني بمصيبة ظهوري في فيديو جديد يظهر، طيران تسنيم، وصياحي على الفتية، وفرارهما وهروب تسنيم، بالبحث

وجدت نفس الفيديو في مجموعة أخرى ولكن معنون «حقيقة ظهور القديس (مرقريوس) في المنيا» وكُتِب عليه:

«ربما يكون هذا فيديو معدل ببرنامج للخدع، فيما يقول آخرون أن الفيديو لظهور جني، أو ربما نوع من الطيور، وخبراء يقولون إن الفيديو أصلي ولم يتم التلاعب به، ولكن لا صحة لكونه ظهور قديس».

بالطبع يمكن بقليل من الخيال تصور ما حدث بعد انتشار الفيديو.

جَنَىَ أخت تسنيم تراسل صديقتها ريماس على برنامج (واتس آب)، تخبرها ريماس بفيديو عن جِنِّي يطير، وترسل لها الرابط، تشاهده جنى فترى أن الذي في الفيديو زوج أختها، تهرع لأمها مليحة لتؤكد شكوكها، والتي تلطم على وجهها عند مشاهدة الفيديو، وتتأكد شكوكها أن ابنتها قتلت على يد أسامة بمساعدة جنِّيَة، فاتصلت بأمي وحكت لها، فلم تصدق ونادت على أخي علي، الذي بحث عن الفيديو حتى وجده، وشاهدته أختيَّ مها وداليا، واللتان لم تدخرا جهدا في مشاركته لكل الصديقات، اتصلت أمي بأبي، الذي قال: «ما هذا الهراء يا امرأة؟» وقناعته التامة أني لست أنا من بالفيديو وأن الفيديو مفبرك بالكلية.

ـ «يا أمي هذا فيديو مفبرك بالكلية، لست أنا من فيه».

كذبت على أمي حين اتصالها بي، ولن أقول كما يدعي الجميع أن هذه أول مرة أكذب على أمي، فالكذب على الأم يكون واجبًا أحيانًا، حياتنا فيها أشياء لا

تستوعبها عقولهن من هولها، وكن قد رسمن حياة أفضل.

مئات الاتصالات من الأهل والأصدقاء والزملاء، لم أرد على أكثرها، فالجميع قد شاهد الفيديو، وطار خبري في الأرجاء أسرع من طيران تسنيم، لكن الاتصال الأشد وطأة، كان اتصال دكتور وديع:

ـ «اضطررت أن أحكي لهم عن كل التفاصيل، وحتى يصدقواْ أعطيتهم العينات التي لدي لتحليل الحمض النووي».

ـ «لماذا؟»

ـ «طلب حموك ذلك حتى يثبت أنها عينات ابنته».

ـ «لا مشكلة في ذلك».

ـ «بل تلك هي المشكلة، اضطررت أن أرشدهم عن مكان الأشلاء». أشعر أن قدميَّ انزلقتا في وحل لا فكاك منه، كيف أقنع الجميع بأن زوجي أصبحت طائرًا بجناحين «وغدًا يُنتَدَب المعمل الجنائي، لاستخراج الأشلاء وفحصها، أسامة لا بُدَّ أن تظهر ومعك تسنيم، فإذا تم فحص (الدي إن إيه) للأشلاء وتطابق مع تسنيم، فستبرأ ساحتك».

كان هذا كثيرًا جدًّا في يوم واحد، أغلقت الهاتف وأرحت جسدي قليلًا، لكن عقلي لن يرتاح، تسنيم مشغولة بتنظيف الشقة، حتى وإن كانت تطير؛ فالمرأة لها أولويات لا تتنازل عنها أبدًا، من المستحيل أن ترتاح والمكان غير مرتب

ونظيف، كانت شقة صغيرة في شارع متفرع من شارع فيصل شديد الزحام، مكان مناسب للانصهار وسط الناس، تطل على شارع ضيق صاخب، التنظيف شاق جدًّا في وجود جناحين، فكل دقيقة أسمع سقوط شيء ما وصراخ تسنيم سخطًا، فأهُب لمساعدتها، أرفع ما سقط، وأحمل الجناح المتكئ على قطعة أثاث ما حتى تنتهي من تنظيف ذلك الجزء، قلت لها مازحاً:

ـ «يمكنك الصفق بجناحيك فيطير كل التراب»

ضحكت كما لم تضحك من قبل، خرجنا قليلًا من حالة النكد التي نحن فيها منذ الأمس.

في الصباح الباكر فتحت التليفون لدقائق، وكأنما دكتور وديع في انتظار فتحه:

ـ «أسامة يظنون أن الأشلاء هي جثة تسنيم المقطعة، ولم يصدقواْ أني رأيتها حية ترزق، واتهموني أني أخفي أدلة، ولولا أن المحامي طلب خروجي بكفالة لكنت محبوسًا الآن، عليك أن تأتي على الفور، وتبرأ نفسك وتبرئني معك».

يومان نتجادل أنا وتسنيم، كان رأي تسنيم أن نسلم أنفسنا، وهم سيصدقون قصتنا عند رؤيتها أمامهم، أفهمتها أن بعض الناس إذا أرادواْ أن يستخرجواْ أوراقًا، يطلب منهم الموظف -وهم الواقفون أمامه- ما يثبت أنهم على قيد الحياة! هذه ليست المنظومة التي يُصَدَق فيها قصة كقصتنا حتى بوجود جناحين، بعد كثير جدال قررنا أن ننتظر ظهور تحليل الحمض النووي، ولكن

قبل ظهور التحليل، تم استصدار أمر بالقبض عليَّ بتهمة قتل زوجي، مما نسف فكرة تسليم أنفسنا.

في اليوم الخامس حدث أمرٌ غيَّرَ خططنا، نزلت لابتياع بعض ما ينقصنا في البيت، وتركت تسنيم، مع توصيتها بعدم الظهور لأحد من الجيران.

تناهى إلى سمعها صوت صراخ، حسبته في البداية نواحًا على ميت، نظرت من النافذة، فرأت دخانًا يتصاعد من نوافذ منزل قريب، والناس مجتمعون يحاولون الوصول إلى شقة تحترق، سيارات الإطفاء متأخرة، ترتعش قدماها لمثل تلك المواقف، النساء هرعن بشعورهن الشعثاء، يصرخن لإنقاذ ذويهن، أتت سيارات الإطفاء تولول، جاهدوا ليدخلوا الشارع الذي زاد على ضيقه تكتل البشر، كل منهم يحاول أن يظهر بمظهر المفيد، يقفون أمام السيارة ويشيرون في اتجاه الحريق، ما أن يتخطى السائق جمع حتى يجد آخر يدله على اتجاه الحريق، وهكذا حاول السائق تخطي العقبات حتى وصل إلى العمارة، نزل مسعفان على السلم بمحفة تحمل رجلًا عجوزًا يصرخ من حرق في ذراعه، وينطلق سبًّا وتقريعًا لهم على تأخرهم في إنقاذه، تقف تلك المرأة واضعة يسراها على قلبها، ويمناها على رأسها تصرخ:

- «ابني يوسف، لم يخرج».

شعرت تسنيم بالألم يعتصر قلبها على الصغير، تشعر بالعجز، كيف يموت صغير والجميع يشاهدون، ثم جاءتها الفكرة.

وقفت على سور سطح البناية -ذات الستة عشر طابقاً- تنظر للبناية المحترقة، ترددت كثيرًا، هالها صغر حجم الناس والسيارات، كادت تسقط هلعًا للخلف، ثم تماسكت، الريح تعبث معها، تهددها بالسقوط، ثوبها الفضفاض يتطاير، أسدلت البرقع على وجهها حتى لا يميزها أحد، تشجعت قليلًا وكادت تفرد جناحيها لتنطلق، ولكنها تراجعت وهي تقول: «سينجيه الله برحمته».

واستدارت للخلف، لكن اختل توازنها، فسقطت إلى الشارع تصرخ، نبه صراخها المحتشدون فنظروا للأعلى، أعاقها ثوبها الواسع أن تفرد جناحيها، ظلت تدور عدة دورات، امتد الزمن دهورًا، وقبل أن تصل إلى الأرض، فردت جناحيها وطارت، يصرخ الناس من هول ما يرون، أكثر من صراخهم للحريق، إلا الأم المكلومة، التي صمتت ثم نظرت ثم انتظرت.

استقرت فوق سطح البناية المشتعلة، قلبها يخفق أشد من خفقان جناحيها، نزلت الدرج، الدخان الخانق يعمي بصرها، حتى أنها همت أن تتراجع، لكنها تذكرت الطفل يوسف فتشجعت، الشقة المحترقة على بعد أربعة طوابق نزولًا، كلما هبطت الدرج، ازداد الدخان كثافة وازدادت النار حرارة، وصلت إلى الشقة المحترقة، دخولها شبه مستحيل، لكنها تجاسرت واقتربت قليلًا، فكرت أن تتراجع، هاجس اجتاح عقلها؛ أن الصغير قد تفحم، هزت رأسها لتنفض الفكرة، دخلت وهي تختنق، سمعت وسط صوت أوار النار بكاء الصغير.

ـ «يوسف، أين أنت».

ـ «ماما... أمي».

يبكي ولا تدري أين هو، دخلت الغرف واحدة تلو الأخرى، كان في غرفة والديه، يجلس منكمشًا خلف السرير الذي لم تطله النار بعد، ولكنه على وشك أن يختنق بالدخان، وأصبح صياحه واهنًا، لا يتجاوز عمره الرابعة:

ـ «كيف يتركونك يا صغيري؟»

اقتربت فمد يديه إليها لتحمله، سحبت ملاءة السرير ولفته بها وحملته، حاولت الخروج من نفس الباب فوجدته موصدًا بجدار نارٍ، صرخت متراجعة، مروحة السقف الحديدية بدأت تنحني لشدة الحرارة، لم تجد منفذًا سالكًا سوى الشرفة، خرجت منها، سلم سيارة الإطفاء يقترب، ضِيقُ الشارع يبطئه، الأمل يحدوها أن يصل إليهما قبل أن تخرج النار للشرفة، بمعدل الصعود هذا سيستغرق وصول السلم دهرًا، طابقان ويصل، فقط عليها أن تتحلى بالصبر، جمدت حركة السلم فجأة حتى كاد الإطفائي الواقف عليه يسقط، مشكلة هيدروليكية منعت السلم من مواصلة صعوده، إن لم يتحرك الآن فالنار موعدهما، الأم في الأسفل صياحها يمزق الأعصاب، وقفت على السور تحمل الطفل، رجل الإطفاء يصيح: «لا تقفزي سأصل إليك قريباً». لكن يبدو أن القريب هذا بعد شوائها هي والطفل أحياء، في لحظة سمعت صوت انفجار أتى من الداخل، قاذفًا الحمم خارج الشرفة، فدفعها الضغط عن الجدار

فسقطت والطفل، صرخ الجميع وشهق الإطفائي، ولكن الطفل لم يصرخ، وكأنه يشعر بالأمان في حضن أمه، فردت جناحيها سريعًا، نظرت للجمع تحتها فآثرت ألا تنزل وسطهم، اتجهت إلى الإطفائي الذي انكمش مرتعبًا، ناولته الطفل، وصعدت إلى السماء مبتعدة، وسط صيحات ذهول، واستعاذة وحوقلة، وصمت ممن لم يستوعب عقله المشهد، بينما الإطفائي يهبط بالطفل على السلم الذي لم يتحرك، واخترق الحشود، أعطى الطفل لأمه سالمًا، وهي تنظر إلى السماء وترى الطائر الأسود يبتعد.

لم ينتصف الليل حتى ظهر فيديو جديد:

ـ «الطائر الأسود يعود للظهور في فيصل...».

«هل هو نفس جني المنيا؟ هل هي فصيلة جديدة ظهرت في مصر؟»

الآن عليَّ البحث عن مكان آخر للاختباء، فسرعان ما سيجدوننا، ولكن إلى أين؟

ـ «لا بد أن أسلم نفسي يا أسامة!»

ـ «لقد ناقشنا هذا يا تسنيم».

ـ «نعم لكن الظروف تغيرت».

نعم لقد تغيرت للأسوأ، فبعد ظهور الفيديو الثاني تلقفت وسائل التواصل والإعلام الخبر، وقتلته مناقشة وبحثًا، أصبح قضية رأي عام، بل وصل بأحد مقدمي البرامج أن يصفه «مسألة أمن قومي»، فما بين متعاطف، مثل أم الطفل

التي ظهرت في فيديو تبكي وتحمل ولدها، تثني على المَلَك الأسود الذي هبط من السماء لينقذ ابنها، وبين معادٍ لها بغير سبب، فقد يكون جنيًا أو شيطانًا، وآخرون أكثر عقلانية يؤكدون أنه كائن كان يعتقد أنه منقرض، وجاء من غابات مدغشقر أو موريشيوس، بل وذهب البعض إلى أنه قد يكون غزو كائنات فضائية. بدأ بعض الشباب رحلة بحث عن ذلك الكائن، وقد طرق أحدهم بابنا يومًا، يسألني هل رأيت أو زوجتي الكائن، نفيت وأغلقت الباب في وجهه، كل الظروف المحيطة تقول إن تسليمنا لأنفسنا فكرة غير صائبة، لكنها استمهلتني حتى توضح فكرتها، أن تسلم هي نفسها دوني، فلا ضير من ظهور القتيلة المزعومة، ولا يوجد في القانون ما يجرم امتلاك جناحين:

ـ «لكنك وقتها ستصبحين حقل تجارب، وأنا لن أسمح بذلك».

ـ «وهل إعدامك حل أفضل؟»

كلامها منطقي كما هي عادة النساء السيئة، دائمًا ما يكن غير منطقيات، حتى إذا احتجت أن يفكرن بلا منطقية، تجدهن عقلانيات جدًّا، لكني بكل لا عقلانية رفضت.

ثلاثة أسابيع مرت ونحن نفكر في حل، وجدت عملًا في أحد محال البقالة، فقد انتهت مدخراتي ولا يوجد من أقترض منه، جاءني اتصال أحمد عيسى وأنا في العمل، يخبرني أنه في القاهرة ويريد أن يقابلني، استأذنت من الحاج صلاح –

صاحب البقالة- حتى أنصرف مبكرًا، بحجة أني لدي موعد مع قريب لي أتى من الصعيد، هو رجل هين لين، لديه حكمة كبيرة رغم تعليمه البسيط، شعر من أول يوم عمل أن ورائي سرًّا ما، لكنه كان ضيفًا خفيفًا على أسرار حياتي، فلم ينقب، ولم يلح في السؤال، هرش (كرشه) وسمح لي بالانصراف، وأوصاني بإكرام قريبي المغترب.

كانت الثامنة مساءً، والجو خريفي جميل، أحمد هو الوحيد الذي يعرف أني في القاهرة ، تقابلنا عند عربة على كورنيش النيل، تبيع حمص الشام المطعم بالشطة والليمون (الحلابسة)، طلبت كوبين وجلسنا على سور الكورنيش نتلذذ به ساخنًا مع حبات من (السوداني) المغطى بطبقة من الذرة المقرمشة، سألني عما سأفعل، وأخبرته باقتراح تسنيم، وعن الثمن الذي قد ندفعه جراء ذلك، ثم صمتنا صمت عجز لقلة حيلتنا. يجلس قربنا أربع فتية يأكلون (الحلابسة)، يحمل أحدهم قصة مصورة، يعرضها على أصدقائه، ويتحدثون بصوت صاخب كل يفتي بفتواه:

ـ «وجدتها عند بائع الجرائد، هذا هو العدد الأول من السلسلة». ناولها لرفيقه: «أنا لا أحب هذا النوع، لكنها قصة عن تلك المرأة التي ظهرت في فيصل».

ـ «هل يمكنني أن أراها؟» طلبتُ من الفتى، تردد لثوانٍ ثم ناولني إياها، الورق مصقول، والألوان متوسطة الجودة، تصفحتها، بضع وثلاثون ورقة من الهراء، حول امرأة في حي جميل أمريكي الطراز، تنقذ طفلًا من موت محقق في حريق،

يا للهول هل أصبحت زوجتي مادة للسير الشعبية، تبادلت وأحمد نظرة ودفعت بالقصة للفتى وشكرته:

ـ «ما رأيك في تلك المصيبة؟» شكوت لأحمد.

ـ «نعم، الآن أدرك حجم معاناتك».

تمشينا على (كورنيش) النيل، ثم صاح أحمد:

ـ «لدي فكرة».

ـ «هات ما عندك» .

ـ «مشكلتك هي الخوف من تسليم تسنيم، حتى لا تصبح فأر تجارب، إذا فلنصنع منها بطلًا خارقًا، الفيديوهات المنتشرة كلها تصدر للعامة هذه الفكرة، فلن نبذل مجهودًا في ذلك، وما عزز فكرتي هو (الكوميكس) الذي رأيته الآن».

ـ «وهل جعلها بطلًا خارقًا، يمنع حجزها ككائن خطر وإجراء التجارب عليها؟»

ـ «بالطبع، ستكون الأعين عليها، وسيطالب الناس بخروجها، ألا تفهم أنها أصبحت تمثل للناس الأمل في الخروج من حالة الإحباط والهزيمة».

عدت إلى تسنيم بوجه غير الذي ذهبت به، وقد رأت ذلك في عيني، ناقشتها في فكرة أحمد التي اقتنعت بها، وكان رأيها أن نذهب أولًا لأهلها ونجعلهم في صفنا، أن نقنعهم أنها حية ترزق، وأن ما لديها تشوه يحتاج لعلاج، خشيت أن يسلمونا:

ـ «إنهم أهلي يا أسامة، وآخر شيء يفعلونه هو التخلي عن ابنتهم».

صرخت جنى أخت تسنيم لما فتحت الباب ورأتها أمامها، فهرعت ركضًا تستغيث بأمها.

ـ «جنى هذه أنا، تسنيم».

ـ «لا، أنتِ الكائن الذي قتل تسنيم واستحوذ على جسدها» .

إن أفلام الخيال العلمي أفسدت عقول الأطفال، خرجت الأم تهرع فزعًا، صرخت لما رأت تسنيم، كنت مختبئًا جوار الباب، فدخلت على صوت صراخ الأم، فزاد صراخهما، فأغلقت الباب خلفي حتى لا ينتبه الجيران:

ـ «لا تخافي يا أمي هذه تسنيم ابنتك، هي لم تمت».

ـ «بل أنت قتلتها وهذه شيطانة، لقد رأيتها تخترق النار وتلقي بذلك الطفل المسكين من أعلى، إنها جنية شريرة».

ـ «يا أمي انظري إلى وجهي، أنا بنتك حبيبتك تسنيم».

للحق كان وجهها مختلفًا وكذلك هيئة جسمها، حتى ملابسها السوداء مختلفة عن هندامها المعتاد، اقتربت الأم رويدًا ورجلاها ترتعشان، سمعت صوت إيلاج مفتاح الباب أعقبه صرير، دخل أبو تسنيم وما إن رآني حتى قفز علي وأمسك بتلابيبي، تعالت الصرخات ثانية من الأم والأخت، وزاد عليهما صراخ تسنيم فزعًا وصياحي: اصبر يا عمي، وزعيقه كأنما أمسك بفريسة:

ـ «يا مجرم يا قاتل، ماذا فعلت بابنتي؟»

ـ «يا عماه ابنتك أمامك».

فنظر إلى تسنيم غير مصدق:

ـ «نعم يا بابا، هذه أنا تسنيم».

فاقترب منها وهو لم يفلت مجامع ثوبي ويجرني معه:

ـ «لا تصدقهما يا عمرو، هذه ليست ابنتنا، إنها محتالة تشبهها».

ـ «لا أريد كلاماً» صاح حماي، واقترب رويدًا من تسنيم ثم أفلتني، ووقف أمامها، أمسكت تسنيم يده ورفعتها إلى وجهها:

ـ «هذه أنا يا أبي».

قربت يده من وجهها يتحسسه، فسحبها وجلًا، تمعن في وجهها وعينيها، ولم تكف المرأة عن الصياح:

ـ «ابتعد عنها يا عمرو، هي ليست تسنيم».

والصغيرة يتعالى بكاؤها ممزقًا أعصابي، والأب ساكت يحاول تجميع شتات أفكاره، ثم صاح:

ـ «تسنيم، ابنتي».

وضمها إليه، فاختبأت تسنيم في حضنه وأسندت رأسها على كتفه وأجهشت بالبكاء.

كان استقبالًا حافلًا، أرهق الجميع، جلسنا في غرفة الضيوف على الصالون المذهب، تسنيم بجانب أبيها وأنا على جانبها الآخر، الأم مليحة تحتضن ابنتها

جنى وترتعشان خوفًا، كانواْ ينتظرون تفسيرًا، وقد حكيت لهم ما حدث؛ منذ إخراجي تسنيم من مستشفى الحميات حتى اليوم، لم أرى تصديقًا في أعينهم، طلبت منهم الاتصال بالدكتور وديع وأعطيت الرقم لوالدها، الذي أكد كلامي حين اتصل به، ران الصمت هنيهة ثم سأل:

ـ «ماذا ستفعل الآن؟»

ـ «جئت إليكم نفكر معًا».

ـ «سأسلم نفسي يا أبي» أعلنت تسنيم، فرفع الرجل حاجبيه مستنكراً.

ـ «لماذا يا ابنتي؟»

ـ «أنا لا أرغب في ذلك يا عمي» برأت نفسي.

ـ «هذه هي الطريقة الوحيدة لنرتاح من الملاحقة، أن نظهر للعالم الحقيقة».

ـ «تلك الحقيقة التي لا زلت لا أصدقها» صارحنا الأب.

ـ «وما الذي يجعلك تصدق؟» سألته فتردد قليلًا ثم أجاب:

ـ «أن أرى الجناحين».

فصاحت مليحة:

ـ «لا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا تفعل».

ـ «خذي ابنتك وادخلي غرفتك يا مليحة» أمرها زوجها، لكنها ظلت تلح في أن يتخلى عن طلبه، حتى صاح:

ـ «امتثلي يا امرأة».

فخرجت هي وجنى وبقينا نحن معه:

ـ «والآن أريد أن أرى».

نظرت لي تسنيم، فأومأت برأسي موافقًا، وقفت وأزاحت الرداء عن كتفيها، وساعدتها في فك الأربطة، سقط الرداء، ثم خرج من فتحات الفستان الواسعة طرف الجناح الأيمن ثم الأيسر، ثم بدأت تنشرهما حتى خرج نصف الجناح، فشهق الرجل:

ـ «رباه»!

ولكن تسنيم لم تتوقف وظهر الجناحان بالكامل، وبدأ يعلو جناحاها وتفردهما رويدًا، ولكن ضيق المكان لا يتسع لباعهما، انتفض أبوها فزعًا، وسمعنا صوت مليحة -التي اختبأت خلف الباب- تصرخ هلعًا، ثم سقطت أرضًا مغشيًا عليها، أخذ الرجل يحوقل ويسترجع:

ـ «ماذا أصابك يا ابنتي؟»

أجهشت تسنيم بالبكاء وأعادت جناحيها، واتجهت لوالدها تواسيه واتجهت أنا لأمها أفيقها.

بتنا ليلتنا في بيت حماي، أسرَت لي تسنيم بأنها قلقة لأن الطمث لم يعاودها منذ شهرين، طمأنتها أنه ربما بسبب التحول، لكن ذلك لم يبدد مخاوفها من أنها تحمل جنينًا، ضحكت تهكمًا ولكن القلق كان يعصف بقلبي، في الصباح ذهبت إلى والدي، وجهي أصبح مألوفًا بعد فيديو المنيا -أو هكذا توهمت- فاحتطت

لنفسي بالخروج مبكرًا، واعتمرت (كابًا) لوالد تسنيم ونظارة شمسية، منظر أفزع أبوي وأخوتي عند رؤيتي، بعد فزعهم لإيقاظي لهم في وقت مبكر:

ـ «أين تسنيم يا أسامة؟» سألت أمي، التي كاد قلبها يتوقف فرحا لما رأتني:

ـ «عند أبيها يا أمي» وقصصت عليهم القصص.

ـ «إذًا وجودها عند أبيها خطر» حذر أبي.

ـ «وتواجدنا في بيتنا خطر، وهنا ليس أكثر أماناً».

ـ «ما رأيك أن تمكث في شقة حسن ابن عمي في أبو يوسف».

ـ «فكرة جيدة، لكن أخشى من ابن عمك أن يكشف سترنا».

ـ «اترك هذا لي، فقط اذهب واحضر تسنيم حتى أتصل بحسن وأحضر المفتاح».

لم أشأ أن أركب المواصلات، فلم أتمشَ منذ فترة؛ تمشية متمهلة، دائمًا ما أركض للحاق بشيء ما، حياة لاهثة لا تمهل فيها لالتقاط الأنفاس، الشمس ساطعة ونسيم البحر يحيي الأنفس الميتة، الوقت مبكر ولا تزال أغلب المحال مغلقة، صوت الشيخ مصطفى إسماعيل يصدح من محال المبكرين، لا بُدَّ أن اليوم الجمعة أو السبت -لم أعد أحصي الأيام؛ فالشوارع تكاد تخلو من عمارها، مررت على بائع جرائد، كنت قد اعتدت في صغري أن أبتاع منه المجلات المفضلة لدي، والقصص المصورة والروايات المترجمة، جذب نظري قصة مصورة، القصة التي رأيتها في يد الفتى اليافع بالأمس، التقطها سريعًا وسألت

البائع عن سعرها، وقد هالني أن سعرها عشرون جنيهًا، أين نسبتي أنا وتسنيم -أصحاب القصة- في المبيعات:

ـ «هناك عدد جديد، إن أحببت» أخبرني البائع.

هؤلاء القوم لا يضيعون وقتًا، ناولني القصة، مغامرة جديدة للمرأة الفراشة، هذه المرة تحارب الجريمة، تحمل الخارجين على القانون من أكتافهم وتلقيهم من علٍ، محتوى مبتذل جدًّا، الغريب أن الشعور الذي انتابني ليس الخوف أو القلق، بل هو الغيرة، فرغم أنها قصة مصورة لم تحدث، إلا أني غرت من حمل زوجي لرجال بين قدميها:

ـ «هل هناك طلب على السلسلة؟» سألت البائع.

ـ «نعم مطلوبة جدًّا، الأطفال ينتظرون صدور العدد التالي بنفاد صبر». توقف ليخدم زبونًا آخر ثم استطرد «دار النشر تعلن عنها بعرض فيديوهات تلك المرأة التي تطير، ويقولون إن القصة مبنية على أحداث حقيقية».

دفعت سعر العددين، وانصرفت وقد احمرت أذناي حنقًا، فأسرعت السير لأفرغ الأدرينالين الذي يأكل في جسدي؛ كأني سقطت في حفرة من إبَر.

كان أذان الظهر يصدح من مكبرات الصوت، عند دخولي الشارع الذي يسكنه حماي، شعرت بحركة غير طبيعية، عربتا شرطة، تقفان أمام بيت والد تسنيم، لم أقترب من البناية أكثر، عدد من العساكر ينتظرون في ملل، دقائق مرت ثقيلة قبل أن أرى مجموعة أخرى، فردَيّ أمن ونقيبًا يحيطون بوالد تسنيم، كدت

أهرع لأستبين الأمر، لكني تريثت، اقتادوه إلى إحدى العربات المخصصة لنقل المتهمين، وقبل هضمي لما رأيت أتت القاصمة، مجموعة أخرى تقتاد تسنيم إلى العربة الأخرى، انخلع قلبي من صدري لولا قفص يحجزه، هممت لنجدتها، ركضت تجاهها، كادت تدهسني سيارة، نبه صوت مكابحها تسنيم، كادت تصيح بي لنجدتها لكنها صمتت، تثاقلت خطواتي، ثم انتبهت فحثثت الخطى، لكن فات الوقت، انتصر الخور على النخوة، جَبُنت عن نصرة زوجي بدعوى التعقل، ألا لعنة الله على عقل كهذا، لحظة في عمري أمقتها وأخجل منها.

*****

ثالث المستحيلات

مسح البراء دموعًا سالت لأول مرة؛ منذ بَدَأ قراءة مذكرات أسامة المدني، احترم حزنه القديم، فأغلق الصفحات وانزوى هو أيضًا مختليًا بحزنه، لطالما لازمه شعور أنه يقرأ قصته، وكأن الكلام يمسه ولا يدري لذلك سبباً.

ـ «هل خلافك مع مراتك، يجعلك تقلل احترام حماتك؟»

شارد الذهن يجلس في غرفة الجلوس في منزل أم الشيماء، مما أثار حفيظة أمها عندما كلمته ولم يرد عليها:

ـ «هاه» ثم أخبره عقله بكلامها الذي -مشكوراً- خزنه في غيابه، فاستدرك: ـ «معذرة يا أمي، لم أقصد تجاهلك».

فتنهدت بحسرة لوقاحته المفرطة ثم أعادت:

ـ «هل ستظلان هكذا؟»

كان رده مزيدًا من الصمت؛ ليفسح لها مجالًا لإفراغ مخزونها، مما يعتمل في صدرها من هموم الحياة، والتي وجدت فيه متنفسًا لها، وراحت تكيل لي الاتهامات، كيف أنه ظفر بجوهرة لا يستحقها، ثم إنه يتركها كالمعلقة، وكيف أنها لم تظفر منه بطفل يؤنس حياتها، أخبرها أنهما ذاهبان الآن إلى الطبيب لمعرفة سبب تأخر الحمل:

ـ «وكيف ستحمل وأنتما متباعدان؟»

ـ «أنا جاهزة» قطع إعلان الشيماء إسترسالها، فقام مسرعًا ساحبًا زوجه من يدها، كطفل صغير.

صف السيارة في حديقة المشفى الوارفة، دخلا المبنى الحجري الفخم كأنه تاج محل، استغرقت مقابلتهما للطبيبة وخضوعهما للاستبيان، والفحص بأجهزة الأشعة وسحب العينات للتحاليل، وحصولها على موعد للتشخيص والعلاج، ثلاثًا وعشرين دقيقة.

ـ «ما رأيك أن تأتي معي إلى بيتنا؟»

ـ «لست مستعدة الآن».

لم يفهم ما نوع الاستعداد الذي يتطلب الإنسان ليذهب لبيته:

ـ «لن يكون أكثر من موعد، بدلًا من الذهاب لمطعم، أطهو لك العشاء ونتسامر قليلًا، ثم أعيدك لبيت ماما».

فكرت قليلًا ثم أومأت بالإيجاب، لم يتوقع أن يكون الأمر بهذه السهولة؛ فقد كان ينتظر مزيدًا من المقاومة والدلال، لكنها كانت هينة لينة على غير العادة.

لا يمكن أن نقول إنه هو من كان يجهز العشاء فعليًا، فقد كان يسألها عن كل كبيرة وصغيرة، بدءًا بماهية الصنف الذي تشتهيه، والمقادير والإعداد والتسوية وحتى نوع الآنية المستخدمة، حتى أنها قامت تمد يدها تجنبًا لكثرة سؤاله.

ـ «لقد شعرت بوخزة في الضمير، كأنني أنا الذي خذلت تسنيم».

ـ «ربما أنت فعلًا خذلتها» قالتها وعيناها على المقلاة، لم يستطع النظر في عينيها،

وآثر الابتعاد عن مرماها:

ـ «يزداد مع الوقت شعوري برابط، يجمعني بحياة أسامة المدني».

ـ «كل منا يرى وقت أزمته تشابهًا بين حياته، وبين حياة أي شخص تعرض لمأساة، وهو في هذا لا يبتعد كثيرًا عن الحقيقة، فحُمق الإنسان متشابه، وكذلك تتشابه أزماته عبر الزمن، لا جديد». توقف عند كلامها الذي خرج حكيمًا إلى حد كبير، ثم داعبت أنفه الرائحة الشهية للطعام:

ـ «الله، اشتقت لرائحة طبخك».

ـ «كل الأجهزة في مطبخي ذكية، من محضرات الطعام، إلى الطاهي مرورًا بالأواني والميكروويف، وكلها تشرح لك المقادير والتجهيز وتسوي بنفسها، فما مشكلتك بالله عليك، لماذا أتعبتني بإعداد العشاء؟» اعترضت الشيماء.

كاد يجيبها لأنه يحب الطعام من يدها، لكنه توقف عند قولها:

ـ «مطبخك؟»

ـ «ماذا في ذلك؟» سألت ناظرة إليه.

ـ «أحببت وقع الكلمة على لسانك، نعم هو مطبخك وأثاثك، وفراشك وحمامك وغرفتك، بيتك». قشعرت الكلمات جسدها نشوة، فدفنت نظرها في الطهي ولم تعقب، إن لم يستطع الطهي، فقد استطاع أن يهيئ جوًا حميميًا دافئًا، ضوءَ شموع ذات رائحة عطرة، وزهرة حمراء في إناء خزفي، على منضدة خشبية مستديرة، مقعدين وثيرين من الخوص عليهما زرابي خضراء مبثوثة، واكتمل

الأنس بوجودهما في شرفة تطل على حديقة صغيرة، ترسل إليهما نسمات الياسمين البلدي.

***

كل رنة هاتف تأتيني هذه الأيام تفزعني، تحطم أعصابي، لا أرغب في سماع أية أخبار، سواء طيبة أو الأخرى، وردني اتصال المحامي فاستبشرت رغم كل شيء، فلربما يخبرني بقرب براءتي، وتحرر تسنيم، لكنه أخبرني أن التحليل أظهر عدم تطابق الحمض النووي بين تسنيم وبين الأشلاء المدفونة! لم أفهم ما معنى ذلك، حتى أنني شككت في نفسي، هل ماتت تسنيم فعلًا، من إذًا التي صحبتها معي من المنيا؟ قطع أفكاري صوت الهاتف، اتصال من دكتور وديع، فالتقط الهاتف متلهفًا لسماع تفسيرات:

ـ «كيف حدث ذلك يا دكتور؟»

ابتدرت بالسؤال دون مقدمات، فالآن أنا رسميًا المتهم الرئيسي بقتل تسنيم، بمشاركة الكائن -كما يسمون تسنيم- الذي أمرت النيابة بحجزه في معهد البحوث بالإسكندرية، وعمل فحوصات لمعرفة كنهه! إنها زوجي يا بشر، فقط نبت لها جناحان:

ـ «لا بد أن نهدأ، ونفكر فيما سنفعله في ذلك الأمر».

ـ «وماذا سنفعل؟ لقد أسقط في أيدينا، ولا مناص من الهرب بقية عمري» اجتاحت غصة حلقي أعقبها مرارة في فمي «وتسنيم لا أعرف كيف أخرجها

مما هي فيه؟!»

ـ «لقد أرسلت رسالة إلى طبيب صديق لي في الخارج أسأله عن الحالة، وأرسلت نتائج الفحوصات وتحليل الحمض النووي وصور الأشعة ، وفي انتظار رده عليَّ».

ـ «وهل هذا سيحل المشكلة؟»

ـ «على الأقل سنعرف ما نحن بصدده، وقد تأخذ المحكمة به إذا كان كلامًا منطقيًا، سأرسل لك نسخة من الإيميل».

الإيميل الذي أرسله دكتور وديع كان موجهًا إلى دكتور (أوليگ بوسلاڤ)، وهو طبيب سلوفاكي يعمل في ألمانيا، قابلهُ دكتور وديع في إحدى المؤتمرات الطبية في ألمانيا، وأصبحا صديقين، كثير من المصطلحات العلمية لم أفهمها، لكني فهمت السياق العام بما يتوافر لدي من معرفة قليلة بالإنجليزية.

اتصلت بوالدها الذي أفرج عنه بعد يوم من القبض عليه، حتى أطمئن عليها وعليه:

ـ «ذهبت إلى معهد البحوث بالأمس ومعي أمها، حاولنا أن نراها ولكن لم أفلح، غدًا سأصطحب المحامي لنستطيع زيارتها».

ـ «ألم تتبين كيف يعاملونها، وما هم فاعلين بها؟»

ـ «بعض الممرضات والأطباء خائفون منها، والقليل متعاطف معها، وقد أعطيت إحداهن نقودًا حتى تحسن معاملتها وتوصل لنا أخبارها، وأدخلت لها

طعامًا، لكن هناك حالة من التعاطف».

أنهيت المكالمة، على أن أتصل به في اليوم التالي؛ لأقف على ما حدث في لقائهما.

في الشقة التي أجرها لي والدي في منطقة (أبو سليمان)، رحت أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، التي تتحدث عن رجل قتل زوجه، بمساعدة مسخ يشبهها، وهناك شبه إجماع على أنه جن، وعلى التلفاز في أحد البرامج، تم استضافة (عالم) أكد أن الجن يمكن أن يتشكل في أي صورة، ولديه القدرة على الطيران، لكن لم تسجل حالة واحدة في التاريخ مشابهة لتلك الحالة، وعالم أحياء الذي نفى وجود حيوان بهذه المواصفات، وأن أقوى وأكبر الجوارح لا يستطيع أن يحمل فتى، أو أن يكون بمثل هذا الحجم، وراحواْ طبعًا يعيدون مقطعي الفيديو مرارًا وتكرارًا، بينما راحت مقدمة برامج شاحبة شعثاء تتكلم كأنها مخدرة، تستضيف نساء يؤكدن أنهن تعاملن مع الجنية، وأنها كادت تقتلهن، واستضافت أم الفتى الذي أنقذته تسنيم، وراحت تكيل لها الاتهامات، بأنها أم مستهترة؛ تركت ابنها للنار ونجت بنفسها، مما جعله نهبًا لجنية كانت ستلقي به من حالقٍ، كل الشواهد تقول إنه لو تركت تسنيم الطفل للنار تأكله، لما كال لها أحد الاتهامات، ولما وقعت في المتاعب، ولكن أظرف شيء كان (يوتيوبر) له قناة للتمارين الرياضية، قام بتصوير سلسلة (فيديوهات) قصيرة تشرح كيف للكائن البشري المتحول أن يقوي جناحيه، ويجعلهما أقدر على الطيران، وقد ركب جناحين صناعيين، واستعان بدكتور من كلية العلاج

الطبيعي، يشرح بعض الأجزاء العلمية، بل وكانت هناك صور متحركة معالجة بالكمبيوتر ليشرح حركة العضلات وكيفية تدريبها، مجهود جيد لم أحسب أنه يخرج من (يوتيوبر) مصري، حتى أنه حصل على ثمانية عشر مليون مشاهدة في يومين. باختصار أصبحت تسنيم (ترند) تلك الأيام.

خرجت إلى الشارع محاولًا التخفي قدر الإمكان، بارتداء نظارة شمسية وكاب، تنكر فاشل لكن من قال إن أحدًا ينظر لوجه أحد تلك الأيام، شارع (أحمد أبو سليمان) شديد الزحام، شديد الصخب، شديد العشوائية، مكان مناسب للاختباء، جلست إلى مقهى، اتصلت بأحمد عيسى، وهو الصديق الوحيد المؤتمن الآن، جاء بعد حوالي الساعة، كانت الشمس قد غربت، ولا يزال هناك بصيص ضوء خفيف يختبيء خلف ضباب العوادم، كان يحمل قصة مصورة جديدة، التقطها منه وفتحتها، صور متتابعة لنفس المرأة الشقراء، تجلس مع زوجها ورضيعها على شاطيء جميل، تحوطه الأشجار والتلال الخضراء، مياه زرقاء رقراقة، فتيات يرتدون البكيني وأطفال يمرحون بكرة ملونة، طفل يبني قلعة رملية، وشباب يلعبون الكرة الطائرة بثوب سباحة، وصاحبتنا ترتدي رداء حمام يغطي جناحيها، وتضع نظارة شمسية زرقاء، وزوجها يطلب منها أن تنزل معه الماء فترفض وتقول له: «أنت تعرف أكثر من الجميع».

ثم يصيح أحدهم «غريق» فتتجه الأنظار إلى الماء، فنرى فتى يافعًا يصارع

الأمواج، يخرج رأسه محاوِل الوصول إلى الهواء، قدماه تخونانه فيهبط إلى القاع، يضربه بقدمه ويصعد ثانية، الرسومات تقدمت فعلًا في هذه النسخة، والحركة زادت، وكثرت الألوان، وتنوع الأشخاص، أتساءل: كيف سيكون مستوى العدد القادم؟ حاول العديد الوصول للصبي سريعًا، لكنه كان بعيدًا والموج هادر، تبادلت نظرت البطلة (المرأة الفراشة) إلى زوجها صاحب الجسد المفتول -نظرت لجسدي مقارناً- فأومأ موافقًا، ألقت الرداء عن كتفيها بحركة درامية، وظهرت ببكيني يظهر جسدها، فردت جناحيها على باعهما، ثم انطلقت تجاه البحر، طارت والجميع يهلل فرحًا، حتى وصلت إلى الطفل الذي اختفى تحت سطح الماء، فضمت جناحيها وسقطت بمقدم رأسها تجاه الماء واخترقته، ثوان مرت ثقيلة، الجميع مرتقب، كما هو واضح من الصور التي يفتح فيها الجميع فاه، والعرق يتساقط من الجبين، ثم بعد أن أيقن الجميع بهلاك الاثنين، انفجر الماء للخارج ليكشف عن المرأة الفراشة تحمل الولد الصغير، وتصعد به إلى الفضاء، وسط تصفيق وتهليل وصفير، وبكاء الأم التي اتجهت إليها المرأة الفراشة تحمل الفتى، ثم الشكر المعتاد، وتقبيل الزوج لها.

ـ «قصة أخرى فاشلة» قال أحمد.

ـ «لكنني أفكر في شيء آخر؛ هؤلاء القوم يبثون دعاية إيجابية لصالح تسنيم، فلماذا لا نحقق لهم ما يحدث في القصص؟» اقترحت.

ـ «هل تقصد أن نبحث عن فتى يغرق ونجعل تسنيم تنقذه؟»

ـ «ليس بالضبط، ولكن لنفكر في طريقة تجعل صورة تسنيم في ذهن المجتمع هي صورة البطل الخارق» .

ـ «على كل حال علينا أولًا أن نخرجها من محبسها ثم نفكر في خطتك».

اغتممت لتذكر كربها، وطلبت من أحمد أن يذهب من غده مع والد تسنيم والمحامي؛ لرؤيتها ثم يطمئنني.

ودعني أحمد عيسى -الخل الوفي- وهو يدعو لي بفك الكربة، لا توجد كلمات توفيه حقه، عاد ذلك اليوم إلى بيته، يجهز نفسه لزيارة الغد، سأل زوجه مها عن المال الذي أعطاه إياها لتشتري محضر الطعام الذي تحتاجه، سألته عما سيفعل به فلم يرد أن يخبرها، لكنها فهمت أنه سيعطيها لصديقه، راحت تلقي عليه محاضرة في عدم تحمل المسئولية، وأنه يساعد صديقه قاتل زوجته لأجل مسخ، ثم إنها دعته بالأحمق! دب بينهما شجار انتهى بتهديدها بالطلاق، فغادرت إلى بيت أمها في الصباح.

هذا جزء بسيط لما تعرض له أحمد بسببي، حياته تكاد تسقط في هاوية، من أجل أن يكون بجانب صديقه.

في ذلك الصباح ذهبت إلى معهد البحوث الطبية في منطقة الحضرة بشارع أبي قير، وهو مشفى ومركز أبحاث طبية، وقفت قرب المشفى متخفيًا حَذَرَ الاعتقال، كنت قد اتفقت مع أحمد أنه إذا نجح في مقابلة تسنيم، أن يجعلها تنظر من النافذة ويتصل بي لأراها، خطة يائسة لرؤيتها دون أن أتعرض للخطر.

وصل أحمد مبكرًا، انتظر أمام باب الدخول الجانبي، دقائق ووصل والدي تسنيم يصحبهما المحامي، سلم أحمد عليهم ودخلواْ المشفى، الوقت يمر ثقيلًا، عيني بين الهاتف والنوافذ، علني ألمح التفاتة منها.

الساعة تقترب من العاشرة صباحًا والقيظ يشتد، الناس يتزاحمون أمام مستشفى المواساة لزيارة أقاربهم، ويتحملون المهانة في سبيل ذلك، تأخر أحمد في الاتصال، رأيت اضطرابًا عند الباب، هرع بعض المرضى والزائرين خارجًا يتبعهم أمن المعهد، ورأيت والد تسنيم وأمها والمحامي وأحمد يركضون، غُلِّقَت الأبواب، صوت صراخ نساء يخرج من أحد النوافذ، تجمع الناس في الشارع، وتوقفت السيارات في شارع (أبي قير) المزدحم، كرسي خشبي ينطلق من نافذة جارفًا في طريقه قطع الزجاج المهشم، وقبل أن يرتطم الكرسي بالأرض انطلق من النافذة شخص يسقط، صرخ المحتشدون في الشارع، هل هو انتحار أم جريمة قتل، ولكنه لم يسقط، ارتفع في الهواء فاردًا جناحين، تسنيم! تتشح بملابس المشفى البيضاء، المئات يخرجون هواتفهم يصورون ما يحدث، أحمد يتجه إليَّ يحثني على الهرب، وأنا ... أنا قلبي طار مع زوجي، أكاد أرى المدينة بعيني الطائر كما تراها تسنيم، طارت بعيدًا عن قسوتهم، وتركت لهم الحيرة، اتجهت إلى عمق منطقة الحضرة، باتجاه محطة القطار، جريت خلفها وأحمد يناديني، انطلق في إثرها بعض المتحمسين الذين يريدون أن يحصلوا على أكبر وقت من التصوير، أبوها أيضًا يتبعها، لكن الركض استنزف قوته

فتوقف، الحقيقة أن الجميع قد أنهك بما فيهم أنا، تخيل أنك تحاول متابعة طائر مسرع، يتخطى الأسوار ويحلق فوق البنايات، وأنت مقيد في مسارات ينبغي أن تسير فيها كما تقيدك الحياة، تخطت خط السكة الحديد، حلقت فوق سجن الحضرة، وغابت عن ناظري، سمعت صوت صافرات الشرطة تقف أمام المعهد، فآثرت الابتعاد عن المكان، قلبي ينخلع فرقًا عليها، ويرقص طربًا بخلاصها.

طبعًا لم تمر دقائق حتى طارت مشاهد الهروب في أرجاء المعمورة، هذه المرة معروف صاحبها، بل إن وجهها ظهر في بعض اللقطات جيدة التصوير، تكهنات عن مكانها، وكلام عن شهود رأوها في أماكن أخرى، لكن لم يتم الإمساك بها.

*****

طائر القمر

اسمها هالة، منذ وعت معنى اسمها وهي تشعر أنها تحمل نصيبًا من معناه، كانت في الصف الرابع الابتدائي؛ عندما عمدت إلى المعجم الوجيز الذي استلمته أختها حنان مع بداية المرحلة الثانوية، كانت قد تعلمت منها كيف تبحث عن معنى كلمة، لم يكن الموضوع صعبًا، فقط تذهب إلى الباب الذي يحوي أول حرف للكلمة، ثم تبدأ البحث من بداية الفصل، حتى تصل إلى المعنى المطلوب، بعد طول بحث، وقلق أن تكتشف أختها اختلاسها المعجم، وصلت للمعنى:

«(الهَالَةُ): دارةُ القمر، أو دائرة من الضوء تحيط بجِرم سماويّ».

ورسم رديء للقمر تحيط به هالة من ضوء، ظلت أيام تحاول فهم المعنى، إلى أن نظرت يومًا من النافذة إلى القمر فرأت دائرة الضوء تحيط به، ما أجمل مرأى اسمها، أحبته واغتبطت لوالدها الذي سماها به، أصبحت والقمر صديقين، علاقة أزلية بين المراهقين وجار الأرض ذي القربى، تضيق عيناها لتزيد من وضوح دائرة الضوء حول القمر، أحاطت نفسها بهالة من الغموض، في الجامعة لا تعرف زميلاتها عنها الكثير، ليست مجتهدة كثيرًا فتكون محط الأنظار، ولا فاشلة مستهترة تسيل اللعاب، شخصية تخطئها عيناك في أي مكان، فلا تُعْرَف في حضورها، ولا تُفتَقد حال غيابها.

تعود من الجامعة إلى بيتها المتواضع، البيوت القديمة الكئيبة، تُعَانِق مصنع الإسمنت المتهالك، كل شيء يكسوه الغبار الرمادي، كأنها (بومبيي) دُفنت تحت رماد البركان، لن تصدق أبدًا أن هذا المكان اسمه (وادي القمر)، تغلق باب الغرفة، تخرج إلى الشرفة، تتنشق بعض نسمات هواء؛ نجحت أن تمر بسلام وسط دخان المصانع، وعوادم الشاحنات والسفن الراسية بميناء الدخيلة، القمر بدر مكتمل، تسرح مع صديقها الذي لم يغادرها مع مغادرة المراهقة لها.

طائر يحلق أمام القمر، يرسم الجرم السماوي ظلالًا حوله، خلفية القمر جعلتها تطيل النظر إليه، راح يقترب، يزداد حجمه، أحست أن تكوينه غريب عن بقية الطيور، يحلق مسرعًا تجاهها، بدأت تتضح معالمه شيئًا فشيئًا، له رأس كبير، وأربعة أرجل، ظلت ساكنة لا تتحرك، كأنما أسرها منظره، مخيف الشكل، رغم أنها لا تتبينه في ظلام الليل وسطوع ضوء القمر في عينيها، حث الخطى مسرعًا، حتى أيقنت أنها هي وجهته.

يركن الأسطى عليّ سيارته في (گراج) المعلم عامر مسعود صاحب سيارات النقل الثقيل، مرت عليه ثلاثة أجيال من أصحاب الگراج، تغيرت الألقاب من معلم إلى حاج ثم أستاذ، وهو لا يزال على حاله سائق شاحنة، يعود لأبنائه بالقليل الذي يحصله. يلقي السلام على أم البنات، فترد على أبي البنات، وتأخذ منه طاقيته الصوفية التي يعتمرها صيف شتاء، فتكشف صلعة لامعة، بعد الغداء يجلس مع زوجه منى والبنات، يشاهدون التلفاز، برامج تزيد القلب همًا

والرأس غباءً، يضحكان على لا شيء ويبكيان لكل شيء، تأتي الصغيرة رانسي لتجلس في حضنه، فهي تعده مِلكًا خالصًا لها، لا حق لأحد آخر فيه حتى أمها، وتجلس بجانبه سارة، سأل عن هالة، فأخبرته أمها أنها في غرفته، تمسك بالهباب -الهاتف- فدعا لها بالهداية، وأكمل القزقزة والمشاهدة، ورَشْف الشاي وأكل البطيخ، وهرش البطن والتثاؤب، والضحك والحزن، حتى قطع تلك الأنشطة البيولوجية صراخ هالة من غرفتها، صراخ متتابع لا يترك وقتًا للتفكير، جرى الجميع خلف الأب الذي أصبح -رغم ثقله- في أقل من ثانية داخل الغرفة، فوق رأس ابنته التي كانت ترتعش فرقًا وتضع يديها على فمها، بحث عن المغتصب فلم يجده، نظر تحت السرير ومعه عصا المكنسة ليقتل أفعى الكوبرا، لكن لا بد أن الكوبرا هربت، نظر لابنته يبحث عن الموس الذي قطعت به شرايينها فلم يجده، لا بد أنها اختارت احتساء السم، خرج إلى الشرفة ينظر، هل من لص هارب، لكن الشارع خاوٍ على عروشه، لم ير بأسًا في الغرفة أو في ابنته، ثم قرر أن يسألها عما ألم بها:

ـ «ماذا هنالك يا بنت؟»

بعد أن وضعت يدها على قلبها تمسكه حتى لا يقفز من صدرها، واحتضنتها أمها ترقيها، وارتعشت سارة وبكت رانسي بحرقة، وغرق عم علي في عرقه، انتظروا المصيبة التي ستنطق بها الفتاة:

ـ «وطواط».

ـ «وطواط؟» سأل الأب.

ـ «خفاش» أوضحت الفتاة.

ـ «أعرف ما هو الوطواط». صاح الأب منتظرًا مزيدًا من التفصيل.

ـ«خفاش كبير هجم عليّ وأنا في الشرفة، ولما صرخت وضربته بيدي، طار مبتعداً».

ـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». استعاذت أم البنات.

ـ «هل عضك؟» سأل «هل تحتاجين لحقنة كَلِبْ؟»

ـ «لا يا بابا، فقط أفزعني».

جلس الأب على السرير ينهج واضعًا يده على قلبه، ناولتها سارة كوبًا من الماء، فأخذه الأب قبل أن يصل يد ابنته، ورشف منه رشفة وأعطاه لها، وخرج من الغرفة يتمتم بشيء ما عن خلفة البنات، رقتها الأم وهي في حضنها، ثم خرجت وخلفها رانسي، بقيت سارة تمسح على شعر أختها الأسود المنسدل:

ـ «أصبحت أفضل الآن يا سارة، يمكنك أن تلحقي بهما».

ـ «دعيني أكن معك».

ـ «لا أنا بخير، أرغب في أن أختلي بنفسي».

خرجت سارة الوسطى طيبة القلب، أغلقت هالة الباب بالمفتاح بهدوء، خرجت إلى الشرفة، نظرت يمينًا ويسارًا، ثم نظرت تحت الشرفة في النقطة العمياء، وقالت:

ـ «يمكنك الصعود الآن».

ظهر من تحت الشرفة جناح كبير، يعقبه آخر، ثم ظهرت تسنيم التي كانت متشبثة بحديدة تحت الشرفة، وتحاول بجناحيها توازن جسدها حتى لا تسقط، رفرفة جناحيها أثارت ريحًا قوية، جعلت هالة تشيح بوجهها، ووقفت فوق السور ثم قفزت إلى داخل الشرفة، فزعت هالة ثانية لمرآها لكنها لم تصرخ، نظرت لها قليلاً:

ـ «أعتذر على إفزاعك». قالت تسنيم التي كانت منهكة من طول طيران، لم ترد هالة ذاهلة، ثم تداركت:

ـ «لا أبدًا يا حبيبتي، تفضلي إلى الداخل».

ترددت تسنيم قليلًا، وأرادت أن تطير عائدة إلى الهواء، لكن التعب استنفد طاقتها، فنظرت إلى الداخل، ونظرت في عيني هالة، أصبحت لا تثق في أحد، فلربما تسلمها، لكن ما بيدها حيلة، تحتاج لمكان ترتاح فيه:

ـ «ما اسمك» سألت تسنيم.

«هالة، وأنـ..» لم تكمل سؤالها، فهي لم تظن يومًا أنها ستقف أمام كائن متحول؛ تسأله عن اسمه.

ـ «تسنيم، اسمي تسنيم».

ـ «تفضلي يا تسنيم».

تريثت هنيهة، ثم تقدمت تخطو إلى داخل الغرفة.

الكايميرا

لم يلتقِ بحازم السنوسي منذ أن كتب المقال عنه، لذا كان غريبًا أن يتصل به يطلب منه خدمة، تقابلا في حديقة هضبة الهرم الغنَّاء؛ فالسنوسي لا يحب المقاهي والأندية المغلقة، لأن بها كثيرًا من الضجيج الإلِكتروني، كما كان دائمًا يردد، كان طلبه أن يتجسس على هاتف نادر نور الدين، لشكه في أنه يكذب بشأن طلاقه من زوجه، وأن هناك ما يخفيه نادر بشأن ذريته، التي ربما تكون قد ورثت قدرة الطيران عن جدته، وطلب من حازم أن يتابع مراقبته ويخبره بما يكون مثيرًا للاهتمام.

تصفح البراء مجموعة البريد الإلكتروني التي استطاع وليد فك شفرتها، والمتبادلة بين دكتور وديع معزوز ودكتور (أوليگ بوسلاڤ)، الإيميل الأول كان من دكتور وديع يستفتي دكتور بوسلاڤ عن حالة تسنيم، والإيميل الثاني هو رد من دكتور بوسلاڤ ورد بعد حوالي أسبوع:

«عزيزي دكتور معزوز،

تحية لك.

شكرًا لسؤالك على أحوالي، الذي أسعدني فأنت صديق عزيز أتشرف به.

بالنسبة للحالة الغريبة التي أرسلت تستشيرني فيها، فالأمر محير يا صديقي ويحتمل عدة أشياء، وقد استبعدت النصب أو(الفبركة)، لأن هناك طبيبًا

موثوقًا مخضرمًا (وهو أنت) رأى الحالة بعينيه، في معظم حالات التشوه عادة ما يكون العضو الزائد غير ذي نفع، ولكنك تقول إنهما جناحان متكاملان، وطريقة التحول هي (التشرنق)، التي نراها في الحشرات المتحولة، من يرقة إلى دودة، ثم إلى فراشة.

حسنًا سأبدأ أولًا بما هو واضح لي، وأُثَنِي بتوقعاتي، وثالثًا سأذكر توصيات لاستقصاء الحقيقة:

أولًا فيما يخص تحليل ال(دي إن إيه):

وجود شخص يحمل حمضين نووين مختلفين ليست حالة غير مألوفة، ففي كثير من حالات الحمل في توائم، يحدث إما أن يتلاشى أحد التوأمين تمامًا، وهي حالة التوأم المتلاشي، أو يندمج أحد التوأمين داخل جسد التوأم الآخر فيصبحا شخصًا واحدًا، ولكن بحمضين نوويين مختلفين، وهي حالة تسمى (الكايميرا)، أي أن الشخص يحمل توأمه داخله متحدين، وهي نادرة الاكتشاف، وتسمى (كايميرا)، وأثق أنك قرأت حالة (ليديا فيرتشايلد) الأمريكية في الدوريات الطبية.

ثانيًا فيما يخص توقعاتي عن حالة السيدة (المدني) التي راسلتني بشأنها:

فتشخيصي أنها نوع من (الكايميرا)، لكن لفظ إحدى الجسدين الجسد الآخر، بالشكل الذي وصفته لي، فخرج إحدى التوأمين بعد تمام نموه من التوأم الظاهر، والذي اتخذ كقشرة يتغذى عليها ثم ينسلخ عنه ليظهر الجسد النامي

الجديد، وأظن أنه في حالة إجراء تحليل للحمض النووي من مناطق عدة من الجسد، سنجد وجود أجزاء من الحمض النووي للقشرة الخارجية داخل الجسد الجديد.

ثالثًا توصياتي:

يبدو أننا أمام حالة لعب في الجينات، تهجين ما بين جينات بشرية وأخرى حيوانية، نتج عنها هذا التحول، أوصي بأن ينظر لتاريخ عائلة المريضة، وخاصة الوالدين، وأيضًا تحليل للإخوة والأبناء إن وجد، وما إذا كان أحد أفراد أسرتها ضحية تجارب جينية، سواء بموافقته أو بالإكراه؟ هل تعرض أحدهم لنسب إشعاعات ذرية؟ فيغلب على ظني أن المشكلة بدأت مذ كانت جنينًا في بطن أمها أو قبل ذلك.

أرجو أن تُشركني في بحثك، فالأمر حاز اهتمامي، واهتمام الزملاء هنا في ألمانيا، ويمكن أن أنفعك في حالة أرسلت لي مزيدًا من التحاليل، أو الأفضل، إن أمكن، أن تأتي الحالة إلى هنا لفحصها، والوقوف على مشكلتها، وربما إيجاد علاج.

شكرًا لك.

دكتور أوليگ بوسلاف

أخصائي الأمراض الوراثية

مستشفى دوسلدورف الجامعي»

مسوخ (البوشناق)

لم يكد عقلي يصدق ما قرأت في ذلك البريد الإلكتروني -الصعب على غير المتخصص- لولا أن البرهان كان ينام في حضني، كلام الطبيب الأوكراني، سلك في عقلي سبلًا لم تكن مطروقة، وحول نظري إلى من لم يكن يومًا موضع اتهام؛ أم تسنيم، الفتاة التي قدمت من البوسنة صغيرة، هذا هو العامل المجهول في تلك المعادلة، فلا بد إذًا من استقصائه. من أجل ذلك وجدتني أقف متخفيًا قرب بناية والد تسنيم، انتظرت حتى نزل الأب إلى العمل والأبناء ذهبواْ إلى مدارسهم، وفي غفلة من البواب تسللت صاعدًا الدرج، حاملًا دفترًا ورقيًا وحقيبة جلدية صغيرة، وقفت أمام باب الشقة مختفيًا خلف النظارة الشمسية و(الكاسكيت)، ممسكًا بقلم ومُقَلِّبًا في الدفتر، وكأني أبحث عن فاتورة شيء ما (كهرباء، ماء، غاز)، طرقت الباب، وقفت بجانبي بحيث لا يظهر وجهي، بالطبع ترددت في أن تفتح لي، فهي تعرف المحصلين، لكنها غالبًا أقنعت نفسها أني موظف جديد:

ـ «غاز» تبادر إلى ذهني أن محصلي الغاز الطبيعي هم أكثر المحصلين تغيرًا، تأخرَت قليلًا، سمعت صوت المزلاج الأول يليه الثاني، يليه صوت تكات المفتاح، ثم صوت إدارة المقبض، وفي النهاية فُتح باب الحصن:

ـ «كم؟» سألت دون أن تنظر في وجهي، فأجبت محاولًا تغيير صوتي:

ـ «خمسة عشر جنيهاً».

ـ «غريبة، لماذا قليل هذا الشهر».

ما هذا الذي قلته! لم يعد أحد يدفع هذه المبالغ التافهة، لكني لم أرد عليها وتصنعت أني أجهز الفاتورة، فدخلت لتحضر المال، وأغلقت الباب، حرصًا منها، فانتظرت ألومُ جبني عن اقتحام البيت، فقررت أن أكشف لها عن هويتي، ربما تستقبلني بهدوء، فتحت الباب ثانية وهي تقول:

ـ «تأكد أن الفاتورة باسم عمرو حسن، فالقيمة قليلة عن كل شهر». وناولتني النقود، كنت قد خلعت نظارتي وواجهتها.

ـ «أنا أسامة يا أمي».

ظني لم يكن في محله، فما أن رأت طلعتي، حتى صاحت بأعلى صوتها، لولا أني كتمت فاها بيدي، ويدي الأخرى خلف رأسها، دخلت بها المنزل، وصفقت الباب بكعب حذائي، ظللت أدفعها وهي تحاول التملص، صراخ مكتوم ينثر اللعاب على يدي، حتى وقعت بها على الأريكة، فأفلت يدي من فوق فمها، فخرجت صيحة أخرى، فأعدت يدي سريعاً:

ـ «اهدئي يا أم تسنيم، لن أؤذيك».

ظلت تحاول التملص، تلهج بصوت مكتوم:

ـ «أنت قتلت ابنتي».

ـ«لم أقتل أحدًا، وابنتك حية ترزق، أنت بنفسك حاولت زيارتها ذلك اليوم».

لم ترد وظلت تبكي، وانسابت دموعها على يدي، ازرق وجهها من قلة الهواء، واحمرت عيناها من فرط البكاء، جسدها يرتجف كيربوع سمع صوت الرعد، رق قلبي لحالها:

ـ «سأتركك الآن، لكن لو صرخت أقسم بالله أن أُفْقِدُك الوعي، فقط أريد أن أسألك بضع أسئلة ثم أذهب، ولن تريني ثانية».

أومأت برأسها أن نعم، فرفعت يدي برفق، مسحت كفي المبتلين في ملابسي، وتركتها هنيهة تلتقط أنفاسها وتعدل وضعها، صببت لها قليلًا من الماء في كوب، وأعطيته إياها.

ـ «تسنيم حية، وأنت تعلمين ذلك، فلم سلمتها؟»

قاومت رغبتها في مزيد من البكاء، أعطيتها منديلًا، مسحت المخاط المنساب من أنفها ثم مسحت دموعها، كدت أخبرها أنهم علمونا في المدرسة أن نمسح العين قبل الأنف، لكني رأيت أن الوقت غير مناسب لتلقينها آداب النظافة:

ـ «لقد خفت، هلعت، كيف يكون ذلك الشيء ابنتي؟»

ـ «لكنك أم، لا بد أن تحني إلى قطعة منك».

ـ «هل رأيت ابنك يتحول إلى مسخ حتى تحكم عليَّ؟» أُسقط في يدي، فأنا نفسي لم أصدق أنها تسنيم في بادئ الأمر «هل حدث هذا لأي أحد في التاريخ، حتى ينظر الجميع إليَّ على أني أم قاسية؟ لقد طار كبدي فرقًا يوم طارت تسنيم».

ـ «ما عن هذا أتيت أسألك» غادرت الأريكة وسحبت كرسي سفرة، وضعته قبالتها، وجلست مقربًا وجهي من وجهها، حتى شَعُرْتُ بحرارة انفاسها على وجهي:

ـ «أتيت لأعرف الحكاية».

ـ «أيُّة حكاية؟»

ـ «أنت من البوسنة؟»

جفت دموعها فجأة، وذهل عقلها عن مصيبتها، وسألت كأنها تنفي اتهاماً:

ـ «وماذا في ذلك؟»

عدت بظهري للخلف، وتباطأتُ في ردي منتشيًا بممارسة دور المحقق:

ـ «لقد استشرنا أطباء ألمان وروس، أكدواْ لنا أن مشكلة تسنيم وراثية، عن طريق أحد الأبوين، وقد طلبواْ عينات منكما، لكنهم رجحواْ أن يكون أحد الأبوين غير مصري».

تحول وجهها من الزرقة إلى الحمرة احتقانًا، وكأنني نكأت جراحًا علتها قشرة صلبة، مما بشرني أني على الطريق:

ـ «لا أفهم، ما علاقة هذا بحالة تسنيم؟»

ـ «يا أمي، تسنيم تحتاج لمساعدتك، أي شيء تعرفينه قد ينفعنا في علاجها، فبالله عليك إن كان هناك شيء يجب أن أعرفه؛ خَبِّريني به».

ـ «لا يوجد شيء يا بني، اتركني لحالي، يكفي ما أنا فيه».

ميزت في لكنتها عُجمًا، وكأن تذكيري بمنبتها أعاد إليها خبرة قديمة، يوم جيء بها إلى مصر صغيرة لا تجيد العربية:

ـ «لقد جئتِ إلى مصر في منتصف التسعينيات، حوالي عام أربع وتسعين؟» سألتها.

ـ «خمس وتسعون» صححت «نهاية خمس وتسعين».

ـ «بعد (سربرينتشا)؟»

تنهدت بحرقة وأومأت برأسها أن نعم.

ـ «كم كان عمرك وقتها؟»

ـ «أربعة عشر عاماً».

ـ «هل شاهدت المذبحة؟»

ـ «لا، كنت في مدينة أخرى، لكن ما حدث لي أبشع من المذبحة»

بدأ لسانها يسبر كهف أسرارها، فآثرت أن أدعها تسترسل:

ـ «ماذا فعلواْ؟ تحدثي إليَّ».

ـ «لم أكن قد أتممت الثانية عشرة عاماً؛ عندما اقتحم الصرب قريتنا، قرية صغيرة اسمها (أهميتشي)، لم يكن غرضهم القتل والاغتصاب والحرق، كما سمعنا من أخبار في المدن الأخرى، بل كانواْ يركزون على اختطاف الأطفال، خاصة الفتيات، استيقظت على صرخات نساء القرية، وجدت أمي ترتجف وتبكي، أبي يقف أمام البيت مع عدد من الرجال، يعترضون على ما يفعله

مرتزقة الصرب، البيوت المتلاصقة يخرج منها عمارها منافحين عن أبنائهم، لكن السلاح في يد الجبناء كان له المضاء، خبأتني أمي وإخوتي تحت خشب الأرضية، بكى أخي الصغير (بيريسلاف)، كتمت فمه بيدي، اقترب المرتزقة من بيتنا، أمي تتلو القرآن، ترتجف، أبي يقف أمام باب البيت منتظرًا وصولهم، ليذود عن حوضه، أو يموت دون عرضه، صوت أبي يصرخ في المعتدين يعلو فوق صرخات النساء، صوت طلقة رصاص شق قلبي نصفين، بعدها صراخ أبي تألمًا وأمي تنادي عليها فزعًا، صرخنا نحن الثلاثة، ولكن وسط ذلك سرني سماع تألم أبي، إذًا الرصاصة لم تقتله، لقد أصابواْ ركبته وأصبح عاجزًا عن الوقوف، كسرواْ باب البيت، صياح أمي يتعالى، من بين ألواح الخشب، رأيت أحد الكفار يضرب أمي بمؤخرة البندقية على وجهها، أفزعني صوت ارتطام جسدها بخشب الأرض، صرخاتنا تنبئ عن مخبئنا، أزاح أحد الخنازير البساط وجذب مقبض باب مخبئنا، جذبنا إلى الأعلى، ناولنا واحدًا تلو الآخر للقتلة الآخرين، سُحبنا إلى الخارج، لمحت أمي تئن على الأرض مدرجة في دمائها تحاول النهوض، وخيل إلي ـ ونحن على الباب ـ أن أحدهم يمزق ملابسها وهي تقاوم، مد والدي يده يائسًا محاولًا تخليصنا من أيديهم النجسة، مئات الأطفال مثلنا نزعواْ من يد عوائلهم، وبين حين وآخر أسمع صوت طلقة رصاص تردي أحد المعترضين، شاحنات مصطفة يرفعوننا عليها وحدًا تلو الآخر، حشرونا كالخراف، ثم أُغلقت بوابات الشاحنات، الرجال والنساء

يحتشدون، يحاولون إنزالنا من الشاحنات، ضُرب أحد الشباب في وجهه بمؤخر البندقية قبل أن يصل إلينا، فتبعه آخر يضرب الجندي الذي ضرب، فيطلق الرصاص الذي يصيب البعض، يتفرقون فزعًا، تتحرك الشاحنات، يهرعون ركضًا خلفنا، نبكي لمفارقة عوائلنا، الدموع تختلط بالتراب الذي تثيره العجلات والعادم يخنقنا، بعض الأطفال سقط مغشيًا عليه، آخرون يتقيأون فأصبحت رائحة العربة لا تطاق، كنت لا أزال أحتضن إخوتي الاثنين، خرجواْ بنا من القرية إلى الطريق المؤدية إلى (سرايبفو)، توقفت الشاحنات خلف شاحنات أخرى، تحمل أطفالًا من قرى عدة، أنزلونا من الشاحنات، وأوقفونا صفوفًا، كان الجو باردًا وملابسنا رقيقة؛ لا تقينا لسعات الصقيع، نزل ضابط من سيارة، يبدو أنه أحد القادة، ظل يسير أمامنا وينظر إلينا، ولا يزال أكثر الأطفال يبكون حتى تكاد تتقطع قلوبهم، كان يمس بعصاه كتف أحدنا فيخرجونه من الصف، ويرفعه جندي على إحدى الشاحنات، كان قد وضح أنهم يفرقون بين الفتيات والصبية، فيضعون الإناث في سيارات منفصلة والذكور في أخرى، أخذوني من إخوتي، ثم رأيت أخي يقاد إلى عربة أخرى، انتظرت أن يأتواْ لي بأختي، لكنها ظلت واقفة، بعد أن وزعونا على العربات، تبقى على الأرض ما يزيد على الخمسين طفلًا، السيارات تحركت ثانية تنثر التراب على الواقفين، شعرت بالحسد تجاههم، فهؤلاء المحظوظون غير المرغوب فيهم، سيعودون لأهلهم، ونحن ربما لن نراهم ثانية، بعد أن غابواْ

عن الأنظار، سمعنا صوت صدى طلقات مدفع رشاش يتردد خلف الجبال، قلة منا من فهم ما حدث، للأسف كنت أنا منهم».

صَمَتَتْ تمسح دموعها.

ـ «لم أعرف إلى أين ذهبواْ بالذكور، تفرقت السيارات في مجموعتين، سارا في طريقين متفرعين، رأيت أخي يبتعد عن ناظري، وحال بيننا الشجر فكان الفراق، وصلنا إلى مبنى أبيض كبير في وسط غابة، وفي الأفق أرى سلسلة جبال يغطيها الضباب، يتكون المبنى من طابقين، أشبه بمشفى، سلمونا إلى نساء يرتدين الزي العسكري، صارمات الخُلُق حادِّي الخِلْقَة؛ مشرفات تمريض، اقتدننا إلى عنابر حيث جردننا من ملابسنا، واغتسلنا جماعيًا، كنا نداري عورتنا عن بعضنا، لبسنا ملابس بيضاء، سلمونا لفتيات ترتدي زِيِّ الممرضات الأبيض، كنَّ أكثر رأفة لبنات الجانب، سجلن أسماءنا ووشمن سواعدنا بأرقام تميز كل فتاة عن الأخرى».

ـ «يجهزونكن للرق؟»

ـ «كنت أظن هذا في البدء» مسحت دموعها بكمها «بعد عدة أيام قضيناها في عنابر كبيرة على أسرة بيضاء، وإكرام وفادتنا بطعام ورعاية طبية، بدأ توزيعنا على أقسام داخل ذلك المبنى الكئيب، ثم بدأواْ...».

توقفت لتبكي.

ـ «الاغتصاب؟» سألت.

بعد أن التقطت أنفاسها قالت:

ـ «كان الاغتصاب عرَضًا جانبيًا، إلا أنه لم يكن الغرض من جلبنا. وضعوني على سرير وقيدواْ يدي وقدمي، وفعلواْ ذلك مع أخريات، وضعواْ محاقن في أوردتي تتصل بخراطيم في نهايتها أجهزة، وبدأواْ في حقن عقاقير، ما إن جرت في عروقي حتى شعرت بدوار وغثيان شديد، ثم حرقني جسدي كأنهم يصبون عليه ماء مغليًا، دخلت في نوبة رهيبة، تشنج جسدي وتيبست عضلاتي، آلام رهيبة وعدم قدرة على التنفس، صرخة مكتومة تمنعها أسناني المطبقة بشدة أن تخرج، أمسكت ممرضة بذراعيَّ حتى تمنعني من الحركة، دقائق مرت ثقيلة جدًّا، مؤلمة مرعبة، أيقنت بالهلاك، قفز إلى ذهني بعض آيات القرآن، لم أستطع أن أجريها على لساني، لكني مررتها على عقلي، وحتى على هذا الحال كان الألم يجعل عقلي يتلعثم في تلاوتها، حتى شعرت أني أغوص في جب سحيق مظلم، أهوي ولا أمانع؛ إن كان في الهاوية الخلاص، استيقظت في غرفة ضيقة يسمونها الخلية، لا يوجد بها سوى سرير حديدي عليه فراش، وحوض ومرحاض، كانت باردة جدًّا، قاسية كلياليّ عذاباتنا التي امتدت إلى مالا نهاية.

كل منا تلقت معالجة مختلفة عن الأخرى، بعضها عنيف مؤلم كما حكيت، وبعدها كان يمر بسلام، كنا مستسلمات لقدرنا، فئران التجارب لا تسأل عن سبب التجارب، وليس لها حق الاعتراض، ولا تملك حتى الاستسلام، فالاستسلام فعل من يملك المقاومة. حُقنت بألْعَنِ أنواع العقاقير، تعرضت

لجرعات إشعاع متواصلة، صعق كهربي، إغراق في الماء البارد، والساخن، عمليات جراحية كثيرة، كان هذا يحدث يوميًا، ولم يكن الجند بعدها يتركوننا، فكانواْ بعد التعذيب، يعتدون علينا بانتظام، ولكن سرًا، فالأطباء كانواْ يغضبون إذا عرفواْ ذلك، ليس رأفة بنا، ولكن ذلك بمثابة العبث بفأر تجاربهم مما يهدد بفسادها، لكن مع ذلك كان هناك بعض الفتيات، من يضعون داخل أرحامهن نطفهم النجسة، كجزء من التجربة ليرواْ نوعية الجنين الذي تنتجه أرحام الصغيرات بعد التجارب، وكانت النتيجة في الغالب، إما أن يسقط الحمل، أو تموت الفتاة أثناء الحمل، أو تموت أثناء الوضع، أو يموت الجنين بعد الوضع، أو يموت الاثنان، وفي الحالات نادرة التي كانت الفتاة تضع جنينًا دون أن تموت، يخرج جنينًا مشوهًا، رأيت أجنة تشبه القرود، وآخر كأنه دودة كبيرة رخوة مقززة، وآخر كأنه زاحف بشري، طبعًا في كل تلك الحالات كان يولد ميتًا، أو يموت مباشرة بعد الوضع، لكن في إحدى الحالات وضعت الفتاة توأمًا ملتصقًا أحدهما يبدو أقرب إلى حيوان قارض والآخر بشري مشوه، كان المنظر مخيفًا، عاش هذا الجنين بضعة أيام، ثم مات بعدها.

كان الموت أهون من أن يخرج من أحشائي مسخ مقزز، كانواْ يستخدمون حيوانات مختلفة، يأخذون منها جيناتها ويحقنونها داخل بويضاتنا، لم أفهم الكيفية العلمية، لكنها حتمًا معقدة جدًّا، وتحتاج لكثير من التجارب الفاشلة، لذلك احتاجواْ إلى الكثير منا، بعد فشل التجربة، يحرقون جثة الفتاة داخل فرن

النفايات البيولوجية، والنتاج المشوه يضعونه داخل آنية زجاجية تحت رقم، للحفظ والدراسة ومن ثَمَّ الأرشفة، مر على ذلك أكثر من عام.

كانواْ يأخذون منا عينات يوميًا للتحليل، وفي إحدى الأيام غضب الطبيب المسئول عني، فقد أظهر تحليلي أني حُبلى، لم يكن هذا مخططًا له في جدول تجاربي، لذا أخذ يرغي ويزبد ويتوعد، وعاقب بعض الممرضات، ولم يحددواْ أي جندي أتى هذه الفعلة، تناقش فريق الأطباء في إذا ما كان الأصلح للتجربة أن يتركواْ حملي يستمر أم يجهضون الجنين، وقد قررواْ أن ينتظرواْ عودة رئيس الأبحاث، حتى يقرر ما يجب فعله.

في يوم سمعنا صوت طلقات رصاص تتردد في جنبات سلخانة التعذيب تلك، هرع الجنود يحملون أسلحتهم، والأطباء كأنهم يفرون من قسورة، الممرضات يصرخن ولا يعرفن إلى أين يذهبن، كثير ضرب وصراخ، دماء تناثرت وقتلى، اقتادتنا مشرفة تمريض عسكرية خارج زنزانتنا، مررنا في طريقنا بغرفة بها رفوف حديدية يحفظون بها الأواني الزجاجية التي تحوي الأجنة المشوهة، ورأيت طبيبًا يأمر الجنود بتكسير الآنية، ثم سكبواْ بنزينًا وبقاذف لهب أشعل أحد الجنود بها النار، دخلنا ممرات تحت الأرض كانت مغلقة بأبواب مصفحة، مظلمة وباردة، أدخلتنا غرفة واسعة رطبة تحت الأرض، وأغلقت علينا الباب واختفت، بعد ساعات من القتال، لم نعد نسمع أصواتًا، صرنا نصيح حتى يسمعنا أحد، مرت أيام لم نميز فيها الليل من النهار، محبوسون في مكان مظلم

ضيق رطب كريه الرائحة، نرتجف خوفًا، ننتظر أن نموت من الجوع أو نموت من الآتي.

في الصباح سمعنا صوت خطوات، وصوت شباب يتحدث (البوسنية)، حاول أحدهم فتح الباب لكنه استعصى، فنادى علينا:

ـ «يا فتيات، ابتعدن عن الباب».

تحركنا تجاه الحائط نحتشد ونلتصق ببعضنا البعض، سمعنا صوت رصاص يضرب الباب، ثم فتح الباب وظهر جنود (بوشناق)، أخرجونا من محبسنا، رأيت ضوء النهار لأول مرة مذ دخلت هذا المكان، أخذونا في شاحنات، كان عددنا يقل عن نصف العدد الذي دخل هذا المسلخ، سارت بنا الشاحنات طويلًا وسط الغابات، وفي طرق جبلية وعرة، شعرت بماء دافئ ينساب على باطن فخذي، نظرت فرأيت خيط دماء يخط على قدمي، فزعت الفتيات واعتنيت بي أثناء الطريق، حتى وصلنا مدينة (توزلا).

كانواْ من جيش جمهورية (البوسنة والهرسك) والذي كان يقوده (سيفير خليلوفيتش)، وضعونا في معسكرات لجوء، أُجهضت من أثر اهتزاز الشاحنات، أجرواْ لي عملية تنظيف ورعوني طبيًا، ثم جاءت الأمم المتحدة بعد مذبحة (سربرينيتشا)، وزعونا على دور للرعاية، وظلواْ أيامًا يستجوبوننا عما حدث».

ـ «متى كان ذلك؟»

ـ «عندما خطفونا من قريتنا كان ذلك في أوائل أبريل سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين، أتذكر هذا الشهر جيدًا، فبعد تحريرنا على أيدي المجاهدين البوشناق، سألوني عن قريتي، أخبرتهم أني من قرية (أهميتشي)، ثم سألت في حماسة عن أمي وأبي، أخبروني أنه في صبيحة السادس عشر من أبريل، اقتحم الصرب القرية، قتلواْ أكثر من مائة وستة عشر نفسًا، أكثرهم من النساء والأطفال، أصغرهم رضيع عمره ثلاثة أشهر، قتلوه وهو في حضن أمه، أحرقواْ البيوت والمسجد، أحرقواْ الجثث بعد قتلها، ومنهم من احترق حيًّا، كنت أُمَنِّي نفسي -بعد التحرر- بالعودة لقريتي، لأحضان أمي وأبي، وإخوتي، لكن أبويَّ ماتا، وقبلهما أختي، ومصير أخي لم أعلمه أبداً».

ـ «وكيف جئتِ إلى مصر؟»

ـ «بعد المذابح المستمرة في البوسنة والهرسك، كانت الأمم المتحدة، تأخذ الأيتام، وتسفرهم إلى دول عربية، عرضت استقبال الأطفال الذين فقدواْ عوائلهم. توزيعي كان إلى مصر، وضعوني في دار للأيتام في الجيزة لعدة أشهر، ثم كفلتني عدة أسر، كل أسرة منهم تكفلني بضعة أشهرٍ، حتى استقر بي المقام في بيت للطالبات (البوشناق)، حتى جاء أبو تسنيم ليخطبني».

ـ «طوال تلك السنوات التي تلت الفاجعة، لم تلحظي أي تغيرات غير طبيعية في جسدك؟»

ـ «لسنوات كنت أمرض أغلب الوقت، أتقيأ دمًا، أنزف من رحمي، كانت الحمى تلازمني، يظهر دائمًا طفح وقروح على جلدي، وكأن جسدي يرفض شيئًا ما، لكن عندما تخطيت الثامنة عشرة استقر جسدي، وتلاشت الأعراض تدريجيًا حتى زالت تماماً».

ـ «وتسنيم؟»

ـ «لا أعرف، فهي أول حمل لي، ولم أجهض قبلها مثلًا، وكان حملها سهلًا لا مشاكل فيه، بل على العكس؛ كانت فتاة صحيحة جميلة الطلعة منذ ولادتها، بل كانت لا تشكو طوال حياتها من شيء، حتى الآلام التي تلازم الفتيات في بداية الطمث لم تحدث عندها».

هذا هو مربط الفرس، هذه الفتاة ولدت مختلفة، لم تؤثر التجارب على الأم مباشرة، بل ظهرت نتيجتها على ذريتها:

ـ «إنها ذكرى نسيتها، وظننت أنها نسيتني، تركت في نفسي ندوبًا، ولم أحسب أنها ستحدث في ابنتي طعنات».

فكرت قليلًا، كيف يمكن أن أفيد من تلك المعلومات:

ـ «أم تسنيم، ما حكيته لي مهم جدًّا، وممكن أن يثبت براءتي وبراءة ابنتك» لم تتوقف عن نشر الغسيل «ويمكن أن يساعد في علاج ابنتك».

ـ «إن ما يحدث لتسنيم ليس من أثر ما جرى لي، بل هو مس من الجن» لم أصدق ما سمعته «نفسية ابنتي ضعيفة، يمكن أن يتملك منها أي شيء، وربما حدث هذا في القرية التي عاشت فيها معك، ربما أحدهم عقد لها سحراً».

ـ «يا الله! الأمر واضح كالشمس يا امرأة، ابنتك حدث لها تحول جيني خطير، وبالمصادفة أُجري على أمها تجارب غير آدمية، غرضها إنجاب أجنة متحولين جينيًا، ألا يذكرك هذا بشيء؟»

صمتت مطرقة تفكر، وكان رد فعلها الوحيد أن قامت لنشر غسيلها:

ـ «سأحكي القصة للدكتور وديع».

ـ «لا، لا تفعل بالله عليك، فهذا سر لا يعرفه أحد سوى زوجي».

ـ «لا نقاش في هذا، فهذه رقبتي ورقبة ابنتك، وربما يحتاج الدكتور عينة منك لفحصها وإثبات كلامك».

ترقرقت الدموع في عينيها، أشعر بما يعتمل في صدرها؛ فهي تخلصت من تلك الذكرى منذ زمن بعيد، ولا تريد أن تعود لتكون فأر تجارب مرة أخرى، لكنه قدر يلاحقها، إن لم يكن فيها ففي ابنتها. قمت مغادراً؛ فقد طال بقائي، وهذا ليس في مصلحتي:

ـ «يا أمي، تسنيم في خطر عظيم، وفي يدك إنقاذها».

ـ «سأفعل ما بوسعي يا بني».

انحدرت دمعة من عينيها، أعطتني قليلًا من الأمل، وغادرت دون كلمة أخرى.

اتصلت بدكتور وديع، قصصت عليه القصص، وعدني أن يرسل بتلك المعلومات إلى دكتور (أوليگ)، علّه يستفيد منها، ثم أخبرني أن تسنيم حامل، وكأن هذا ما ينقصنا.

*****

كرامات الأولياء

هكذا دخل كائن أسطوري -حقيقة لا مبالغة- إلى غرفة هالة، لم تستطع أن تشيح بصرها عن جناحي تسنيم، رؤيتهما تثير الرهبة في قلبها، والاشمئزاز، مشاعر متناقضة تنتابها، لكن لا شك أن هناك غبطة تخالط قلبها فرحًا بأن تكون هي أول من يقابل هذا الكائن وجهًا لوجه.

ـ «أعتذر مرة أخرى عن إخافتك، فقط سأستريح قليلًا ثم أذهب».

أرادت أن تعرض عليها المبيت معها، لكن كيف؟ هي ليست غرفة خاصة بها، وأختها تبيت معها، وإن ضمنت أختها، فإن ضيق المكان يجعل إخفاءها عن أعين أمها مستحيلة.

ـ «هلا سقيتني، فقد استبد بي العطش».

أعطتها هالة بقايا زجاجة المياه التي تضعها بجانب السرير، فلا تريد أن تجازف بالخروج وإحضار كوب نظيف:

ـ «من أنت يا تسنيم؟»

ـ «تقصدين ما أنا؟» لم ترد خجلًا «ربما يومًا ما ستتقابل ثانية، وأحكي لك كل شيء، لكنني الآن لا أريد أن أسبب لك مزيدًا من المشاكل، سأبحث عن مكان أستريح فيه، فقوتي استنفدت».

اتجهت إلى الشرفة، فردت جناحيها، شهقت هالة من فرط الانفعال، وهمت بالطيران.

ـ «انتظري» استوقفتها هالة «يمكنك الصعود فوق سطح البيت، والمبيت في غرفة الطيور».

ـ «وماذا عن الجيران؟»

ـ«باب السطح مغلق، ومفتاحه معنا نحن فقط، ولا أحد يصعد إلا فيما ندر».

فكرت وترددت، نظرت لأعلى، الليل ما زال طويلًا وهي مرهقة:

ـ «أمري إلى الله». وهمت بالطيران.

ـ «انتظري، الليل برد» وأتت ببطانية من الدولاب «تدثري بهذه البطانية».

ـ «شكرًا يا هالة».

لم ترد هالة، فقد طرقت أختها الباب، فنظرت إلى تسنيم تحثها على الإسراع إلى أعلى، فطارت تسنيم إلى السطح.

من أعلى ترى غابة إسمنتية، جدران من الطوب الأحمر غفل عنها الجمال، سطح البناية مليء (بالكراكيب)، بقايا خشب قديم، عبوات طلاء بلاستيكية فارغة، طبق استقبال أقمار صناعية، صدأ منبعج ملقىً بجانب السور، وها هي عشة الطيور المهجورة، غرفة خشبية كبيرة، الباب مخلوع ومرمي داخل الغرفة، هبطت تفحص مكان مبيتها، أجفلت قطة وهرعت مختبئة، فأغلب الظن أنها لم ترَ امرأة تطير من قبل، نظرت داخل الغرفة، فوجدت نصف عبوة إسمنت

متحجر، ونصف عبوة جبس متحجر، ونصف عبوة لاصق سيراميك متحجرة، خرق ممزقة كريهة الرائحة، وأجزاء من سرير قديم مفكك، رعب القذارة يجتاحها، المبيت في هذا المكان هو كابوس كل امرأة، لا طاقة لديها للتنظيف، وسعت وسط هذه الفوضى مساحة كافية للنوم، مزقت صناديق كرتونية وفرشتها، وفرشت فوقها البطانية التي أخذتها من مضيفتها، نامت على نصفها والتحفت بالنصف الآخر، الهواء بارد، المكان قذر، رائحة كريهة تخترق أنفها، صوت خشخشة ربما تكون لفأر أو عرسة، صوت كلاب تعوي، قهقهة شباب في الشارع؛ توشي بأنهم يبحثون عن سطح ليتعاطواْ فوقه الحشيش أو البانجو، جوعانة وظمأى، لكن كل ذلك لم يتغلب على تعبها، ألم يعتصر كتفيها، خوف من المستقبل، قلق على زوجها، شوق لأمها، مرارة تجتاح حلقها، لكنها مرهقة كمكسري الحجارة في السجون قديمًا، لا تملك ترف التفكير في كل ذلك، عيناها في ثقل هموم أب هندي لديه خمس بنات، فقط غابت عن الوعي، وعقلها الباطن وجدها فرصة ليستريح، فلم ترَ أحلامًا، حتى الشياطين لم تستطع إيقاظ عقلها لتبث له كوابيسها، فقط نامت. فتحت تسنيم عينيها لتجد هالة تجلس قريبًا منها ومعها صينية إفطار، وتحمل قارورة ماء مُشَبَّرَة، شربت تسنيم ثم بدأت تأكل بخجل ثم غلب جوعها خجلها، فراحت تفترس الطعام، مع بدء شبعها لاحظت في عيني هالة تساؤلات لا بُدَّ منها:

ـ «أعرف أنك تريدين معرفة كل شيء». بادرت تسنيم.

ـ«لا أبدًا، لا تحتاجين لشرح أي شيء». ثم فهمت من نظرة تسنيم لها إنها تجاوزت حدود المنطق «نعم أريد أن أعرف كل شيء، فحتى بعد رؤيتك بعينيَّ، لا أصدق ما رأيت».

راحت تسنيم بآخر لقمة من الأرغفة الأربعة تمسح بقايا طبق الفول، وجرعت ما تبقى من ماء في القارورة:

ـ «حقيقة يا هالة لا أعرف ما أنا، ولن تصدقي ما حدث لي لو حكيت لك».

ضحكت هالة:

ـ «لقد رأيتك تطيرين، وهذا أغرب ما يمكن أن يحدث، فكل ما ستقولينه حتمًا سيكون دونه غرابة».

راحت تسنيم تروي لهالة ما مر بها منذ بدء مرضها، وهالة لا تكاد تصدق، هل هذا حقيقي أم في الأمر خدعة؟ لولا أن المعجزة ماثلة أمامها، لظلت على عقيدتها بأن الأمر لا يعدو كونه خدعة سينمائية:

ـ «كيف هَرَبْتِ من معهد البحوث؟»

سُرَّت تسنيم لطلب هالة، فهي بحاجة إلى الفضفضة، إلى أذن تبث لها همومها:

ـ «كانواْ يمنعون أبي وأمي من رؤيتي، في ذلك اليوم كنت قد تلقيت وعدًا من الطبيب أن يحاول أن يجعلني أراهما، كان الطبيب المساعد لكبير الباحثين –فقد كنت فأر تجارب– وعلى الأرجح كانواْ يرون فيَّ فرصة للشهرة، آلاف من الفحوص، وملايين الأسئلة، كان يجتمع حولي العشرات من الأطباء،

يتناقشون حول طبيعتي، في البدء كان الجميع خائفًا من الاقتراب مني، خوف الأطباء كان خشية أن أكون أحمل فيروس هو ما أدى بي لذلك، أما خوف الممرضات والعاملات، فهو لاعتقادهم الجازم أن جنًّا تلبسني أو الأسوأ؛ أكون أنا الجني متجسدًا، لكن مع الوقت بدأ فريق التمريض والعاملات يطمئنون إليَّ، شعرواْ بحدسهم الأنثوي أنني لست جنيًا، بل على العكس، أصبحواْ يعتقدون أنني معجزة من السماء، بل قد أكون مَلَك، كان بعضهن يتبركن بي، وأصبحن يتسابقن لتلبية احتياجاتي.

أخبرنني في يوم بأنهم سمحواْ لأمي وأبي بزيارتي، استبشرْتُ، وهللت النسوة فرحًا، استعددت للقائهما، حاولت البنات مساعدتي في إخفاء جناحيَّ بعباءة فضفاضة لإحدى العاملات الطيبات، وضعت لي نسرين عطرًا من زجاجة صغيرة في حقيبتها، ومروة رسمت شفتي بأحمر شفاه (فوشية)، أدخلوني مكتب مدير الأمن، كانت معي ممرضتان واثنان من الشرطة ومدير أمن المشفى، كانت هناك عاملة تنظف المكتب، أخبرني مدير الأمن أنه سُمح لي برؤيتهما، وقعت عيناي على النافذة التي كان مفتوح مصراعيها، لا قضبان حديدية عليها على عكس الغرف الأخرى، ما إن تراجع الجنديان في اتجاه الباب، حتى فردت جناحي متجهة إلى النافذة، صدم الجناح الأيمن إحدى الفتاتين، فصرخت، انتبه الجنديان واتجها إليّ، صاح بهما (المقدم) وهو يركض نحوي:

ـ «لا تُفلتاها».

مررت بالعاملة، صدمتها، سقطت، صراخ العاملة والفتاتين وصياح الرجال نبه كل العاملين، وصلت إلى النافذة ضربت بجناحيَّ سطح المكتب فسقط ما عليه أرضًا، رفعني ضغط الهواء تحت الجناحين بضعة أشبار وضعت قدمي على إطار النافذة، لكن جناحي الكبيرين اصطدما بالحائط، أمسك الجنديين بخافقيَّ، البنات تصرخ، المقدم يجذب ملابسي، تمزقت العباءة في يده، وأصبحت بملابس المشفى البيضاء، زمجرت، دب الرعب في قلوبهم، ضربت جناحي في الحائط، سقط الجنديان، دخل الغرفة مزيد من الممرضات والأمن والزائرين والموظفين والعاملات، صراخ وصياح وإلقاء أثاث لعرقلتي، صدمني مقعد خشبي، كسر النافذة وسقطت خلفه، لم أشعر إلا وانفرد جناحيَّ تلقائيًا وحلقت مبتعدة.

يوم كامل أسبح في الهواء أخاف أن أهبط في أي مكان، تعب ورعب وحزن يجتاحني، حلم كل إنسان أن يمتلك جناحين، لكني أريد أن أتخلص منهما، أريد أن أتحرر من حريتي، حتى ساقني الإرهاق لهذا المكان، الذي أقصده لأول مرة في حياتي».

شعرت هالة بجفاف حلق من حكاية تسنيم، شربت قطرات متبقية في قاع القارورة:

ـ «في بلدنا، حتى من يملك أجنحة حقيقية؛ لا يستطيع التحليق بهما». قالت هالة حسرة.

ـ «عليَّ أن أذهب الآن، حتى لا أسبب لك المتاعب».

ـ «إلى أين ستذهبين؟»

ـ «لا أدري، لكني سأبحث عن زوجي».

ـ «يمكنك أن تمكثي ليلًا في غرفتي».

ـ «بيتكم لا يتسع لضيف يمكث في السر دون أن تعرف أمك، ولا تنسي أختك التي تبيت معك، لن تصمت».

ـ «يمكنني إقناعها بالسكوت، بعد نوم الجميع تتسللين إلى داخل الغرفة، وفي الصباح تعودين للأعلى».

نطقت هالة العبارة بنبرة واهنة، فهي تتكلم بغير قناعة حقيقية بما تقول، صمتت تسنيم فهي تريد أن ترتاح، ولا ترغب في الخروج إلى الفضاء الموحش، شعرت هالة أنها تورطت؛ فصمت تسنيم دليل على القبول.

استيقظ الأُسطى عليّ يشعر بالخمول، انقلاب ليله نهارًا يعبث بساعته البيولوجية، يفتح البراد يبحث عن شيء ما لا يعرفه، بعد تأملٍ سحب قارورة ماء بارد، عبَّ منها جرعة كبيرة، يتساقط أكثرها على صدره، يترك القارورة نصف الممتلئة خارجًا، يبحث عن شيء يأكله، نادى على زوجه، لا رد، نادى

على ابنته ولا رد، أعد كوبًا من الشاي، سحب علبة السجائر، لا يحب أن يدخن في الشقة، خوفًا على بناته، بحث عن مفتاح السطح فلم يجده، صب الشاي، حمله وخرج من الشقة صاعدًا الدرج إلى السطح، فعلى الأرجح زوجه بالأعلى تفعل شيئًا ما.

ـ «أريد أن أرى جناحيك» طلبت هالة متحرجة «إن كنت لا تريدين فلا بأس».
شعرت تسنيم بأنها قرد في حديقة الحيوان، يرغب الأطفال في أن يقلد (عجين الفلاحة)، لكنها تحتاج المبيت حتى ولو لليلة أخرى، فلن ترفض للفتاة (الجدعة) مطلباً:
ـ «لا بأس».
وقفت تسنيم وخرجت من العشة الخشبية، كانت ملابس المشفى لا تخفي الجناحين، لكن الفتاة كانت تريد أن تراهما مفرودين، تلفتت هالة حولها؛ ترى إن كان هناك من يتلصص عليهما من سطح آخر، نظرت إلى تسنيم وأومأت برأسها، استعدت تسنيم، سحبت نفسًا عميقًا، لم تتعود أبدًا على شعور بسط الجناحين، مخها لا يزال يستغرب -كل مرة- الأمر الذي يمليه عليه وعي تسنيم، أمام عيني هالة الذاهلتين راحت تسنيم تمد جناحيها رويدًا، ندت من هالة شهقة كتمتها بيدها، ظل الجناح يتمدد ببطء حتى ظهرا على باعهما، يغطيان السطح من السور إلى السور، لم تعرف الفتاة ما تقول، ترقرقت دمعة في

مآقيها، أرادت تسنيم تقديم المزيد، فبدأت ترفع الجناحين لأعلى حتى أصبحت كهيئة تمثال (إيزيس) المجنحة، ثم حركتهما للأمام حتى غطت وجهها، ثم نزلت بهما لأسفل وهي ترجعهما إلى الخلف، حركة بطيئة على شكل رمز اللانهاية الرياضي، راحت تكرر ذلك وتزيد في السرعة، حتى بدأت تهب ريح تثير التراب، جعلت ملابس هالة الفضفاضة تتموج على بشرتها، وراحت تصفق بيديها، مع ضحكة هيستيرية حاولت كتمها ما استطاعت.

ـ «رباه! ما هذا؟»

جاء الصوت من خلف هالة، التفتت، كان أبوها يسد بجسده باب السطح، صرخت فزعًا، أسقط كوب الشاي من يده، وانطلق باتجاه ابنته، بذراعه أزاحها خلف ظهره، ثم أمسك بقطعة خشب طوحها باتجاه تسنيم، فارتفعت في الهواء تتفاداه، فزاد هلعه:

ـ «أعوذ بالله من الشياطين، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة»، ظل يرجع إلى الخلف بابنته، تسنيم تصيح هلعًا، وهالة تصرخ «بابا لا تخف، اسمعني» ولكن من يتعقل في موقف كهذا! «اجري يا هالة، لا تقترب أيها الشيطان».

ـ «يا أبي دعني أوضح لك» كانت هالة تقاوم أباها لكن هيهات، وتسنيم ترتفع وتنخفض خوفًا، يكاد قلب الرجل يتوقف رعبًا «أرجوك أنا لست شيطانة، أنا بشر مثلكم».

ـ «يا الله! إنها تتكلم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما أنت، جِنِّيَة؟»

هبطت تسنيم على السطح، ضمت جناحيها خلفها، واقتربت خطوة إلى الأمام، تراجع على إثرها ثلاث خطوات للخلف، شعرت بثقة أكبر:

ـ «يا حاج، أنا لست جنية ولم يتلبسني جن، هذا تشوه حدث نتيجة مرض».

سأل وهو لا يزال متحفزاً:

ـ «لا أرى عيبًا خلقيًا يعطي صاحبه أجنحة».

ـ «لا أعرف ما أصابني بالضبط، ربما ليس عيبًا خلقيًا، غير أني لا زلت إنسانًا».

ـ «ربما هي معجزة يا أبي».

ـ «تقصدين أن ما لديك كرامة من كرامات الأولياء؟»

ـ «لا أعرف، لكن ما أعرفه أني لست من الأولياء».

اقتربت خطوة أخرى، فلم يتراجع هذه المرة، أطلق سراح ابنته وإن كان لم يدعها تقترب من تسنيم:

ـ «لم يكن خفاشاً؟» وجه السؤال لابنته.

ـ «ماذا؟»

ـ «صراخك بالأمس، لم يكن بسبب خفاش، كانت هي، أليس كذلك؟»

ـ «بلى». ثم قصت عليه ما حدث.

ـ «ها قد استرحتِ، اذهبي عنا» طلب من تسنيم.

ـ «نعم، كنت سأرحل قبل مجيئك».

ـ «يا أبتي، لا مكان تذهب إليه، دعها تبقى عندنا ولو ليلتين».

ـ «سأكون شاكرة لك إن قبلت». توسلت تسنيم.

فكر وقَدَّرْ، لكنه لم يستسغ فكرة أن يستضيف في بيته مسخًا مجنحًا:

ـ «أنا لا أعرف ما أنت، فكيف سآمن وجودك وسط بناتي؟»

أطرقت إلى الأرض وردت:

ـ «معك حق يا حاج علي، سأنصرف الآن».

نظرت ابنته إليه متوسلة، تلكأت تسنيم في الارتفاع، الحاج علي لا يشيح ببصره عنها، بدأت ترتفع مثيرة عاصفة ترابية تجبره على إطباق جفنيه، يصيبه الذهول، يبسمل ويحوقل ويستعذ بالله:

ـ «أبي سيقبضون عليها ويعذبونها، ارحمها».

لم ترتفع تسنيم أكثر، أصبحت أكثر تحكمًا في حركتها، أكثر قوة وأكثر ثقة، أفكار تتصارع في رأسه، كيف يأمن هذه الأيام لأي شيء؟ وكيف سيقنع أم البنات باستضافة جِنِّي في البيت؟ ترتسم في عينيها نظرة لا يخطئها، نظرة قطة رضيعة تاهت عن أمها في شتاء قارس، هو رجل ذو فراسة (ابن سوق)، يعرف الذين صدقواْ ويكشف الكاذبين، وتلك الفتاة في أزمة لا ريب، لم يعد للمروءة مكان في أيامنا هذه، فدائمًا ما تورد صاحبها المهالك، لكن تجاهل مروءته ضد فطرته، يعلم أنه سيندم إن استضافها، ويعلم أن ضميره سيعذبه لو لفظها، وما بين هذا

وذاك تحدق به وبعياله الأخطار، يئست تسنيم من عدوله عن قراره، وانحدرت من عيني هالة دمعات حارة.

ـ «اقتربي» أمرها الحاج علي، فهبطت على الأرض، راح يتأمل الجناحين، ينظر حوله خشية الفضوليين -سبب كل نكبة- خطا خطوة نحوها، عيناه معلقتان بالطرفين الزائدين المزغبين:

ـ «حسن، ليلة واحدة فقط، انتظري هنا، حتى أخبر الولية». ثم أمر ابنته أن تحضر لها زجاجة ماء وطعام، وعباءة من عباءات أمها، لتستر جسدها من ثياب المستشفى الرقيقة.

اقترب الأسطى عليّ أكثر من تسنيم، فضول يشوبه حذر، لا يعلم أن الكائن المخيف الذي يقترب منه خائف أكثر منه، دار حولها رغبة في نظرة أوضح على الجناحين، سرت في أوصاله رعدة، مد يده محاولًا لمس الجناح.

ـ «احفظ يدك» أجفل وأخر يده «هذا لا يزال جسد امرأة، لا يمكنك لمسه».

عاد بظهره وكأنما يخشى أن تنقض عليه، كحورية بحر جميلة تتحول إلى وحش مخيف قاتل، ثم أغلق عليها باب السطح واضعًا القفل.

*****

جنٌّ على عمود (السواري)

حكت لي تسنيم لاحقًا، عن معركة حامية الوطيس، بين عمُ عليّ والزوجة الغاضبة، كادت تنتهي بالطلاق، وكيف أنها عندما رأتها سقطت مغشيًا عليها، وعندما استفاقت كانت تظن أنها رأت كابوسًا، فلما رأت تسنيم ثانية صرخت كأنها تحترق في سقر، وهكذا مر النهار بين صراخ وإغماء المرأة، وصراخ الصغيرتين لصراخ أمهما تارة وخوفًا من تسنيم تارة، حتى تمنت تسنيم لو أنها طارت، في النهاية هدأت المرأة لعشر دقائق استطاع الرجل أن يحكي خلالها الحكاية لها، ثم بعد ذلك بدأت المفاوضات لتسمح ببقائها.

في أول ثلاثة ليالٍ لم تسمح الأم لابنتيها بالمبيت مع تسنيم في الغرفة، وكانواْ يبيتون معها في غرفتها، وعم عليَّ كان يبيت على الكنبة، كانواْ يغلقون الباب عليها ليلًا، فهم لن يعطواْ ذلك الكائن فرصة الانقضاض عليهم، إذا أرادت أن تطير خارجة فلتفعل، لكنها لو أرادت حتى الذهاب إلى الحمام فعليها أن تطرق الباب ليفتح لها عليّ، وينتظرها حتى تقضي حاجتها، ثم يغلق عليها الغرفة ثانية، في الليلة الرابعة سمحا لهالة - بعد إلحاح- أن تبيت معها، وهذه المرة لم يكونواْ ليغلقواْ الباب بل يتركونه مفتوحًا، ويظل الأسطى علي يبيت أمام الغرفة لينقذ ابنته إذا استغاثت، لقد تخلواْ عن فكرة طردها بعد ليلة أو ليلتين، في الحقيقة بدأت الأم تتعاطف معها، ثم نبت في قلبها حب لها، وكذا حدث مع

البنات الثلاث، هالة تهتم بها، وسارة تصادقها، رانسي كانت تخاف منها في البدء، ولكنها أصبحت تقترب منها شيئًا فشيئًا، ثم أصبحت تلعب معها، شعرواْ أنها مسئوليتهم، كانت الابنة الخامسة لهم، غير أنها ابتليت بإعاقة، صحيح أن هذه الإعاقة تجعلها تحلق في الهواء حيثما شاءت، لكنها في نظرهم ابتلاء من الله، ينظرون لها نظرة شفقة. بعد أسبوع سمحت الأم لسارة بالعودة إلى الغرفة، وهذا معناه أن إحداهن ستبيت على الأرض، لأن الغرفة لا تحوي سوى سريرين، أصرت تسنيم - ولم تترك مجالًا للنقاش- أن تكون هي من تبيت على الأرض، ورغم ذلك شعرت بسعادة غامرة؛ لأنها أصبحت جزءًا من الأسرة البسيطة، وابتعدت قليلًا عن الإرهاق النفسي، غير أنها كانت تشتاق إليَّ.

الفتاة اليافعة سارة أحبت دراستها، وأصبح تفصيل الملابس شغفها، وقد اشترى لها أبوها ماكينة حياكة يابانية قديمة من النوع المنزلي، ومن أول يوم رأت فيه تسنيم، قررت أن تكون موضوع تجاربها الجديدة، راحت تخط على الورق عدة مسودات (باترون)؛ ملابس تلائم وجود ستة أطراف بدلًا من أربعة، أرادت أن تصنع لتسنيم شيئًا يداري جناحيها في الحالة الطبيعية، ثم إذا ما أرادت مد جناحيها، يمكنها أن تخرجهما بسهولة، لم تكن المهمة سهلة، فلن تجد ذلك في مجلات الموضة المستعملة؛ التي يبتاعها لها والدها من شارع النبي دانيال، راحت ترسم وتحيك وتجرب على تسنيم، وتأخذ الآراء، ومن ثم تعيد

التصميم والحياكة والتجربة، حتى توصلت بعد عدة أسابيع، وإتلاف أمتار من الأقمشة، إلى أفضل تصميم في ظنها، وأرادت تجربته على تسنيم.

السطح هو أرض تجاربهم الليلية، لبست تسنيم الثياب في الغرفة، وصعدت على الدرج إلى السطح، تصحبها الفتاتين، كان الثوب معقدًا حقًا، فهو يتكون من جلباب فضفاض في ظهره فتحتان، يمكن تضييقها أو توسيعها عن طريق سحاب، تخرج تسنيم جناحيها من تلك الفتحتان، وعلى كتفيها يوجد رداء منسدل على ظهرها يخفي الجناحين، فأصبح الجناحان ما بين الرداء والجلباب مختبئين، انتظرواْ قبيل الفجر حتى يجربواْ الثوب، واحتاطواْ كي لا يراهم أحد، نظرت حولها، سحبت نفسًا عميقًا، مدت جناحيها، فانزاح الرداء ليكشف عن الخافقين، وأصبح -الرداء- محصورًا بينهما، رفرفت فلم يعقها الرداء عن الخفقان، ثم صعدت في الهواء شيئًا يسيرًا، صرخت سارة وصفقت بيديها حماسة، فهي أول من صنعت ثوبًا خصيصًا لإنسان محلق، هبطت تسنيم سريعًا حتى لا تلفت الأنظار، راحت البنات تهلل بصوت هامس فرحًا، ويقربن رؤوسهن من بعضهن البعض.

ـ «لكن الروب يعيق خفقان جناحي».

ـ «سوف أصلحه لك».

ـ «أنت رائعة يا سارة».

احمر وجه سارة لإطراء تسنيم.

فتحت سارة عروتين عند الكتفين، مررت منهما دوبارتين متصلتين بالرداء، ربطتهما بمنبت الجناحين بحيث في كل مرة تمد جناحيها، يجذب الدوبار الرداء فيجعله مضمومًا بين الكتفين بعيدًا عن طريق الجناحين، هذه المرة شعرت تسنيم براحة أكثر وحرية أكبر، فارتفعت أكثر، ودارت دورتين في الهواء، صرخت البنتان فرحًا، ولما رأت تسنيم فرحتهما، ارتفعت أكثر ودارت دورة كاملة حول البيت، ثم رأواْ أنها بدأت تترنح في الهواء، وضعت يمينها على جبينها، ثم راحت تغزل حول نفسها هابطة بسرعة، أدركت الفتاتان أن هذا سقوط حر، مصيره ارتطام قاتل، صرختا متجهتين صوب مكان السقوط، لكن قبل ثلاثة أمتار تماسكت تسنيم وهبطت بسلاسة.

ـ «لا ينبغي عليك الطيران وأنت حبلى».

ـ «كيف عرفت يا طنط؟»

ـ «يا ابنتي لقد أنجبت أربعة بنات في خمسة بطون، وأعرف الحامل عندما أراها».

ـ «أنا خائفة، أريد أن يكون زوجي بجانبي».

ـ «هل تعرفين كيف نتصل به؟»

ـ «لا، هو مطارد من الشرطة، لن أجده في أي مكان معروف».

زوجها كان يبحث عنها في كل مكان، لا يترك فيديو يُدعى أن فيه لقطات للبشري الطائر إلا شاهده، كانت كلها إحدى اثنتين، إما فيديوهات مفبركة أو

عنوانًا مضللًا، أو تنويعات على فيديوهات تسنيم القديمة، كل ذلك لم يؤتِ ثماره، فكأنها قطعة بَرَدٍ سقطت من السماء فذابت، ولم أكن وحدي في هذا البحث، كان معي صديقي أحمد عيسى، حتى أن هوة الخلاف زادت بينه وبين زوجه، فكان تركه للبيت، وأتي ليبقى عندي، فأصبحت الشقة كجبل (المطاريد)، والد تسنيم كان يبحث معنا، لكن قلبه لم يتحمل كل هذا البلاء في ابنته قرة عينه، أصيب بجلطة، فهو طريح الفراش.

على الجانب الآخر كان تواصلي مع الدكتور وديع لا ينقطع، ما أفكر فيه الآن براءتنا وتسنيم، كثير من المراسلات دارت بين الطبيبين؛ وديع و(أوليگ)، سأله وديع عن إمكانية إجراء عملية لاستئصال الجناحين، وكان رده أنه يحتاج إلى مزيد من صور الأشعة والفحوص، ربما من الأفضل أن تسافر تسنيم إلى ألمانيا، وإن كان هناك إمكانية للاستئصال دون إلحاق ضرر، فسيقومون بذلك على نفقة المشفى، لكن علينا أن نتدبر مصاريف السفر والإقامة والتأشيرة، وفوق كل ذلك علينا أن نتدبر خروجنا من البلد دون أن نتعرض للإيقاف ومن ثم السجن، كانت تلك معوقات أكبر من إمكانياتنا في الوقت الحالي، لا يمكننا تدبر ثمن التذاكر والإقامة، بث الدكتور تلك المخاوف في رسائله إلى دكتور (أوليگ)، حقيقة إن للدكتور فضلًا كبيرًا علينا، لم يكن أبدًا مجرد طبيب، كان آخر من تبقى من طبقة الحكماء، كما كانواْ يسمون الأطباء قديماً.

اتصل بي دكتور وديع ذات نهار مستبشرًا، وطلب أن أقرأ آخر (إيميل) أرسله دكتور (أوليگ)، يخبره فيه بأنه أقنع مدير الأبحاث بالمشفى، أن يقوموا بعملية استئصال للجناحين على نفقة المركز، وسيتدبر أمر التأشيرات، ويطالبه بإرسال جوازاتنا في أسرع وقت، لكن مع ذلك طلب منه أن يحذرنا من أن عواقب عملية غير مأمونة.

كانت المخاطر التي شرحها لي دكتور وديع تتلخص في أن جراحة الاستئصال قد تؤدي إلى مضاعفات قد تصل إلى الوفاة، أحب طريقة الأطباء (المخضرمين) في المصارحة، إذًا ما احتمالاتي هنا؟ إما أن تبقى تسنيم على وضعها كمسخ مشوه في أعين الناس، أو تتخلص من هذا البلاء مع احتمال أن تتخلص معه من حياتها، ثم من الجلي من كلام دكتور (بوسلاڤ) أنهم لن يفعلوا ذلك دون مقابل، والمقابل هي أن تكون فأر تجاربهم، وستعرض في مؤتمر، كعرض للمسوخ في سيرك فيكتوري قديم، يشاهدها الناس وهم يأكلون (الفشار)، لا أعرف ما رأي تسنيم في ذلك، لكنني لن أعرضها أبدًا لذلك الموقف، لكن قد يهون ذلك في سبيل خلاصها، كل تلك الأفكار التي تصارعت في رأسي لا قيمة لها في عدم وجود تسنيم، لا بُدَّ لي من العثور عليها.

اتصلت بأم تسنيم للاطمئنان على صحة والدها، كلمته وكان صوته واهنًا جدًّا، جعلني أعده أن أجد ابنته، قبل أن يخرج السر الإلهي.

لم أستطع أن أفي بوعدي، مر يومان قبل أن يأتيني خبر وفاة الحاج عمرو، لم أستطع طبعًا أن أحضر جنازته، فذلك بمثابة تسليم نفسي، كيف سيكون وقع ذلك على (تسنيمي)، أما كان يكفي ما هي فيه؟

تستخدم تسنيم تليفون هالة لتصفح حسابها على (الفيس بوك)، في محاولة للتواصل مع معي، كانت تخشى من أمها أن تسلمها ثانية كما فعلت سابقًا، فكانت لا تتواصل معهم، فقط تتحسس أخبارهم عن طريق منشورات أختها جنى، فجنى لا تترك الهاتف أبدًا، ويبدو أن هناك قانونًا يحتم ألا تمر عشر دقائق دون فعل شيء ما على صفحات التواصل، لكن اليوم على غير العادة -ومنذ الصباح- لم تسمع تسنيم لها صدى في أرجاء الصفحة الزرقاء، الساعة تقترب من العاشرة مساءً، خالط قلبها قلق، تطالع صفحة أختها تنتظر منها ما يطمئنها، دقت إشارة التنبيه.

ـ «لا بُدَّ أن جنى نشرت شيئًا ما» نبهت هالة تسنيم وهي تناولها الهاتف.

ـ «شكرًا يا هالة».

تركت هالة الغرفة مفسحة لها المجال تنفرد بالهاتف، ذهبت إلى الحمام، وقبل أن تغلق بابه سمعت صرخة تسنيم، عندما وصلت الغرفة، كانت تسنيم متكورة على السرير، تضع يديها على وجهها تنوح بصوت عال، وأمها وأختها تحاولان تهدئتها.

ـ «ما الخطب يا تسنيم؟» لا رد ويزداد نشيجها، رأت هالة الهاتف ملقى على السرير على وجهه، أخذت تتفحصه بحثًا عن تفسير، لم يطل بحثها حتى وقعت عيناها على الفاجعة، منشور مقتضب لجنى على خلفية سوداء:

«إنا لله وإنا إليه راجعون،

تُوفي إلى رحمة الله أبي اليوم،

أستحلفكم أن تدعواْ له بالرحمة».

في تلك المرة لم تذيل المنشور بكلمة (#وجع) كما دأبت في منشوراتها، لأن الوجع كان حقيقيًا، أخذتها أم البنات في حضنها، وراحت تمسح على ظهرها وتقرأ القرآن، رانسي الصغيرة تربت على فخذها والدموع تترقرق في عينيها لبكاء تسنيم.

ـ «اذهبي يا سارة أحضري لها ماء». أمرت الأم ابنتها، ثم نظرت للصغيرة المتأثرة فأشفقت عليها.

ـ «ابق أنت معها يا هالة ريثما أضع رانسي في الفراش».

وذهبت تحمل الطفلة، التي اعترضت بوهن، لكن حنان الأم كاسح لا يقبل – في حب أبنائها – الرفض.

قبل أن تضع الطفلة في فراشها، سمعت صوت جلبة آتية من غرفة هالة، تبعها صياحها:

ـ «انتظري يا تسنيم!»

ثم صوت هبوب ريح وصفير سوط يضرب الهواء:

ـ «عودي يا مجنونة، أين تذهبين في هذه الساعة؟»

عندما وصلت الأم المفزوعة إلى باب الحجرة وفي ذيلها ابنتها، رأت من خلال الشرفة المفتوحة تسنيم، تطير مبتعدة.

***

زُرْتُ مقابر (العمود) في (كرموز)، مكان مخيف في كل الأوقات -كما كل المقابر- يشرف عليها منذ مئات السنين عمود السواري الأثري؛ آخر ما تبقى من معبد (السرابيوم)، الشمس تحط خلف الأفق، تتشكل ظلال فوق المقابر العشوائية تضفي عليها مزيدًا من الرهبة، اقتربت من قبر الوالد الذي لم يكن قد جفت تربته بعد، قلبت وجهيَ في السماء، مرتقبًا خفقان جناحيَّ، رأيت الكثير من الأجنحة، لكنها ليست تلك التي أرغب في رؤيتها، الظلام يبسط رداءه الأسود على الشواهد الساكنة، لا أظن أن تجرؤ تسنيم على زيارة قبر والدها في هذا الوقت، بقيت ساعة أخرى، انتظرت حتى أصبح المكان حالك الظلمة، تناهى إلى مسامعي أصوات النداء لصلاة العشاء، استغللت أنسي بالأذان لأغادر المقابر وأنا أشعر بشيء من الأمان.

***

وقعت عيني البراء على منشور على موقع التواصل المؤرشَف (فيس بوك)، مجموعة اسمها (عجائب الموت والحياة)، أحد الشباب المسئولين عن المجموعة التقى بلحاد في مقابر العمود بالإسكندرية، والذي يدعي أنه رأى جنيًا في المقابر ليلاً:

«التقيت اليوم بالحاج عبد الماجد برعاص التربي بمقابر العمود، وهو لديه حكاية عن رؤيته لجنيّ في المقابر، تنفرد مجموعتنا بإذاعتها».

«كنت أجلس ليلًا كعادتي في الأنس بالمقبورين، أدخن (الجوزة)، منتصف الليل قد اقترب، الليلة مظلمة لا قمر فيها، لا شيء ينير الظلمة سوى نار أشعلتها لأتدفأ بها، شعرت بريح تهب من أعلى اقشعر لها بدني، تراقصت النيران لترسم بظلالها على القبور كائنات أسطورية لم تعد تخيفني، فقد تربيت في كنفها، لكن لفحة الهواء عاودتني يصحبها ظل ثقيل فوق رأسي، نظرت إلى الأعلى مستقصيًا، ألاعيب الليل في المقابر لا تنتهي، القاعدة أنه لا جديد ولا غريب حقًا، لمحت بين الضباب كيانًا أسود يهبط من أعلى على إحدى القبور القريبة، انتفضت من مكاني، بسملت واستعذت، رأيت كأن شخصًا يجلس القرفصاء على ذلك القبر، إنه قبر الحاج عمرو، الذي لحدته بنفسي ظهر اليوم، اقتربت وأنا أصيح «مَن هناك؟» الصياح حيلة ناجحة لطمأنة قلبي في ظلام المقابر، لم يبد عليه أنه انتبه، فاقتربت وأنا أتلو من سورة يس «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ»، كانت هيئته غريبة،

ليس كهيئتنا، الجسد ضئيل، يتدثر بالسواد، لكن هناك شيئًا يبرز من الظهر، يتحرك حركة عصبية كذيل برص انفصل عنه، مع اقترابي سمعت صوت نشيج مخيف، أشبه بنواح امرأة، لم أتبين أي كلمات مفهومة، أنرت كشاف هاتفي لأتبين الشيء الماثل أمامي، انتبه للضوء المسلط عليه فنظر إليَّ، لمحت وجهًا أسود وعينين تلمعان مخيفتين، هنا صرخ الشيء، وطار تجاهي، نعم طار في الهواء بجناحين عظيمين، صرخت لكن الصرخة كُتِمَت، فقد انحبس نفسي رعبًا، تراجعت بظهري فتعثرت بمدفن السيدات لعائلة أبو حسين، سَقَطْتُ على ظهري، حاولت النهوض ثانية، كان الشيء لحقني وأصبح فوقي، التقط بيده الهاتف وطار عاليًا، ثم أسقطه فارتطم برخام قبر اللواء ياسين حجي، فتحطم مائة قطعة، ثم انطلق في الهواء مبتعدًا، ركضت إلى الجهة الأخرى مبتعدًا عنه، لكني توقفت، فضولي سيقتلني يومًا، ترى ما رأيته تأثير الحشيش؟ لا أظن، رأسي ليست خفيفة إلى هذا الحد، نظرت خلفي فرأيته على بعد يحط فوق عمود السواري، وكأنه يلتقط أنفاسه، صرخ «أبي» ثم فرد جناحيه العظيمين وطار في اتجاه الغرب، سقطت منهكًا ألتقط أنفاسي، ورحت في سنة من نوم أشبه بإغماء، استيقظت والشمس تصفع وجهي، ظننت أني أحلم، لكن قطع الهاتف المتناثرة كذبت ظني».

*****

أشهر منذ أن رأى التربي تسنيم فوق قبر والدها، ولم تفدني تلك المعلومة كثيرًا في العثور على تسنيم، ولو صحت حساباتي فقد دخل حملها شهره السادس، ما يشغل بالي حاليًا هو تجهيز أوراقنا للخروج من البلاد، لا زلنا مطلوبين من العدالة، ولا يمكن أن نغادر بهوياتنا الحقيقية، علينا تزييف جوازات سفر، وهذا عمل في ظني مستحيل؛ بعد استحداث جواز السفر المميكن، للمرة الألف لم يغب أحمد عيسى عن الصورة طرفة عين، زميله (سامر الأسيوطي)، معروف عنه علاقته بكل أصحاب الموبقات، ويعرف من يستخرج لنا جوازات سفر زائفة، دون أن يتم كشفها في الجوازات.

ـ «ها هي صورتي وصورتها، لا أظنك ستحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك».

ـ «فقط حاول أن تحصل على باقي المال بسرعة».

ـ «فقط تأكد من سامر أن هذا الرجل مضمون، ولا يهرب بمالنا».

ـ «سنعطيه جزءًا بسيطًا في البداية، ولن يأخذ الباقي حتى يأتي بالباسبورين».

ـ «عليك الإسراع، حتى نحصل على التأشيرة في أقرب فرصة».

ـ «هل من أخبار عن تسنيم؟»

ـ«ليس بعد» ذكرني سؤاله بمشكلته «ما أخبار بيتك؟» كان يقلقني خلافه مع زوجه، وأحتاج أن أسمع منه ما يثلج صدري، فأنا سبب ما هو فيه، لكنه أشار

لي بيدين خاويتين وقلب شفته بمعنى أنه لا جديد، وانصرف سريعًا، ربما رغبة في عدم ذكر الموضوع، حاولت استمهاله، لكن رن جرس هاتفي المزعج، كان رقم (المرحوم) والد تسنيم، تعجلت الانصراف حتى أرد على المكالمة المريبة، توقعت أن ترد علي أم تسنيم، لكن فاجأني صوت فتاة صغيرة، أختها جنى، تطلب أن تقابلني الآن عند بير مسعود.

عند وصولي وجدتها في انتظاري، تذرع الرصيف جيئة وذهابًا، ترتدي ملابس ثقيلة سوداء، الجو بارد، اختيار بئر مسعود للقاء فكرة سيئة:

ـ «ماذا وراءك يا جنى؟»

مقلتاها حمراء، من الواضح أن ثلاثة أشهر ليست كافية ليهدأ حزنها على أبيها.

ـ «بالأمس كنت في الشرفة، منفردة بنفسي، لمحت على بعد طائرًا غريب الهيئة، كبير الحجم أسود مخيفًا يتجه نحوي، تراجعت إلى الخلف حتى اصطدمت بباب الشرفة الزجاجي، هبط على الشرفة، لم أقو على الصراخ رعبًا، واسودت الدنيا في عيني. فتحت عيني على السرير متوقعة أني كنت أحلم، لكن وقعت عيناي على وجه تسنيم، انتفضت جالسة وأخذتها في حضني وانخرطنا في بكاء، أردت أن أعرف ما حدث لها، وأين تعيش، طلبت منها الحكاية كاملة، لكنها قالت إنه لا وقت، هي فقط تريد أن تطمئننا أنا وأمي عليها، وأعطتني رقم تليفون طلبت مني أن أعطيه إياك، سألت عن أمي، فقلت لها إنها طريحة الفراش منذ مات أبي، أرادت رؤيتها لكنها تخشى رد فعلها، تسللنا إلى غرفة

أمي، كنت أنظر إلى جناحيها برعب:

ـ «لا تخشِ شيئًا يا جنى يا حبيبتي، أنا لا زلت أختك تسنيم».

نظرت إلى أمي النائمة، وبكت لحالها، فمن يرى أمي الآن لن يعرفها، وكأنها تقدمت في العمر خمسين سنة. لما همت بالانصراف، طلبت منها أن ألمس جناحيها، فابتسمت وأومأت موافقة، سرت في أوصالي رعدة عند لمسه، كمن مرت سحلية على قدمه العارية، وقفت على سور الشرفة برشاقة واتزان، وقبل أن تفرد جناحيها استدارت وقالت: «لا تنسي يا جنى أن تعطي هذا الرقم لأسامة، لا بد أن يتصل بي في أقرب وقت». ثم انطلقت عائدة إلى السماء.

مدت إليَّ يدها بورقة عليها رقم الهاتف، أخيرًا وجدت تسنيم، أو بالأحرى هي من وجدتني، إن لامتلاك المرء جناحين ميزاته، استللت الهاتف على الفور، ورحت أضرب الأرقام الأحد عشر، لا أطيق صبرًا حتى أنتهي منها، أخطأت عدة مرات حتى كتبت الأرقام وضغطت زر الاتصال، اضطرب قلبي لما سمعت صوت الجرس، ماذا سأقول لها حين أسمع صوتها، ثم بعد آباد، أتاني صوت فتاة رقيق، لكنه لم يكن صوتها:

ـ «آاه، تسنـ... هل لي أن أكلم تسنيم؟» لم أجد ما أقوله أفضل من ذلك، وكان أفضل ما يقال.

ـ «هاه! تسنيم؟ هل أنت زوجها؟»

الحمد لله، قصرت على الطريق، توقعت مزيدًا من قيل وقال وكثرة السؤال:

ـ «نعم، لقد تركت رقمك مع أختـ...»

ـ «نعم نعم، أعرف وهي في انتظارك على نار». وسمعتها تنادي بصوت جهير «تسنيم، تسنيم» صمتت قليلًا: «زوجك على التليفون».

صرخات فرحة ظهرت في الخلفية، ميزت بينها، صوت تسنيم بين أصوات فتيات صغار، قفزت بدوري في الهواء حتى ظننت أنني أنا صاحب الجناحين، نظرت إلى جنى وجدتها تصفق فرحًا، حتى أننا جذبنا أنظار المشائين والمهرولين على رصيف الكورنيش، انتظرت دهورًا حتى أتاني صوتها:

ـ «أسامة».

وصلت إلى ميدان وادي القمر، ذلك الوادي الذي كان يومًا مزارع وبحيرات، يرتفع أمام نصب تذكاري غريب، يمثل شجرة تحمل كواكب المجموعة الشمسية والشمس والقمر، الساعة تخطت العاشرة مساءً، دخلت الشارع كما في وصف هالة، سألت عن بيت الحاج علي، لم يعرفوا من هو في البدء، وقد نادى القهوجي على صاحب محل بقالة، وبدوره استعلم من ذلك الشاب الذي يجلس في الشارع طوال اليوم ولا تعرف له عملًا، ويتدخل في كل شاردة وواردة، راح يستجوبني ويسأل أسئلة وجودية من نوعية «من؟ أين؟ كيف؟ لماذا؟» وبعد أن تفحصني من أعلى إلى أسفل ودار حولي دورتين، قال:

ـ «تقصد الأسطى علي السواق يا باشا؟»

ـ «نعم، فتح الله لك».

فجأة صاح بصوت عالٍ:

ـ «أسطىَ عليّ، أسطىَ علي».

كان الرجل يجلس على مقهى يدخن (الشيشة)، كرشه يرتاح على فخذيه، والقلنسوة الصوفية تغطي صلعته، الدخان يخرج من بين شفتيه ومنخريه، يغطي وجهه بضباب كثيف لم أتبين ملامحه خلاله، أشار بيديه أن أقترب منه، لقد أخبرَتْهُ ابنته (هاتفياً) أني سآتي لرؤية تسنيم، دعاني للجلوس، طلب أن يرى بطاقتي ليتأكد من شخصي، استغربت لكني امتثلت، ثم راح يسألني عن سبب حالة تسنيم، ثم أدلى برأيه -الذي لا يقبل نقاشاً- أنها ضحية سحر أو تخبطها الشيطان من المس، ثم لم يلبث أن اصطحبني لرؤيتها.

صعدنا سلم البناية الضيق، المضاء بضوء أصفر خافت، رائحة عطنة تزكم أنفي، فتح الباب بمفتاحه ودخل، انتظرت خارجًا، سمعته يصيح بامرأته:

ـ «زوج تسنيم معي». وبعد قليل خرج: «تفضل يا أستاذ».

تراجعت خطوتين أؤخر نفسي، ثم تقدمت ببطء مطأطئ رأسي، ولم أدخل.

ـ «تفضل لا يوجد أحد، المكان خال».

خطوت إلى الداخل، بعد أن جلست، سمعت صوت زوجه تناديه، فاستأذن مني وذهب إليها ثم عاد:

ـ «المدام تنتظرك فوق السطح» رأى عدم فهمي فعقب مفسرًا «هي طلبت ذلك».

صعدت إلى الأعلى أسمع ضربات قلبي، مفصلا ركبتي تصطكان والعرق يغمرني، لا أعرف ما أصابني، ما المقلق في مقابلة حبيبتي، كنت أتمنى أن تكون الأيام الماضية (هلاوس)، أن أجد زوجي كما عرفتها، عادية لا شيء خارق فيها، لم أطلب يومًا أن تكون رفيقة دربي أكثر من فانية، أحب عاديتها وأشتاق لعدم تميزها.

خرجت إلى السطح، لا أرى تسنيم، نظرت داخل عشة الفراخ، لم أجدها، هنا خطر ببالي خاطر، نظرت إلى الأعلى، وكنت محقًا، لم تكن تسنيم درامية يومًا – لكن الكثير تغير منذ تحولت – تهبط من السماء كمَلَكٍ أسود، بجناحين أبيضين، لن أتعود أبدًا هذا المشهد، طيرانها أصبح أكثر سلاسة وقوة، وكأنها ولدت تطير «حبيبي أسامة» بادرتني كما لم أعهد من قبل، في عينيها ثقة بثتها في نفسي، انطلقت نحوها، أحطتها بذراعي فأحاطتني بجناحيها، اقشعر بدني، لكني بعد برهةٍ ألفته، ثم أحببته، ثم وجدتني أحتاج إليه، وكأني داخل رحم أمي، لا أبغي خروجاً.

ـ «بحثت عنك كثيراً».

ـ «عرفت أنك ستجدني».

أرادت أن تعرف كل ما مر بي وأردت مثلها، جلسنا ساعة نتسامر، يحكي كل منا ما مَر به من مُر، حكت لي كل ما حدث منذ أُخِذَت من بيت أبيها، مرورًا بهروبها ومجيئها إلى هنا، حتى زيارتها المقابر ليلًا، كانت تريد أن تخرج ما في

صدرها من ثقل وتضعه على كتفي زوجها، بكت وضحكت، فَرِحَت برؤيتي وحزنت لحالنا، لا تنسى أن أباها مات وهي بعيدة عنه، تشعر بالذنب لموته حزنًا عليها، لم أحكِ الكثير، فلم يكن لدي -بالفعل- الكثير، فقط اعتذرت لها كثيرًا أني لم أكن بجانبها، وأخبرتها بما حكته لي أمها، لم تبد متأثرة أو حانقة، بل تقبلت الأمر بسهولة.

ـ «هيا فلنذهب للبيت» قلت لها.

ـ «بيتنا؟»

ـ «أسكن في شقة مستأجرة، فبيتنا مرصود».

ـ «هل ترى أنه من المناسب الآن أن نبقى معاً؟»

ـ «ماذا تقصدين؟»

ـ «لا أقصد شيئًا، ولكني هنا في مكاني لا أحد يعرف بوجودي، ولا أتعرض لمضايقات، هم يدعون أني قريبتهم من البلد».

ـ «جزاهم الله خيرًا، لكن يكفي حسن ضيافتهم، لنشكرهم وننصرف».

ـ «فقط أقول إن وجودي في مكان آخر أنا وأنت قد يكشفنا، كما حدث في شقة الجيزة، فلا بأس أن أظل مختبئة هنا قليلًا، وأنت في مخبئك، حتى إذا سقط أحدنا يظل الآخر حرًا، حتى تحل مشكلتنا ثم نعود معًا إلى بيتنا».

ـ «لا اعرف ما الخطر في بقائنا معًا، حتى تحل مشكلتنا، خاصة أنه تلوح في الأفق انفراجة قريبة».

ـ «ماذا؟ فرحني»

ـ «أتدبر أمر سفرنا إلى الخارج إن شاء الله» وقصصت عليها ما كان من مراسلات بين دكتور وديع ودكتور (بوسلاف)، وأنه يمكننا التخلص من مشكلتها.

ـ «ومن قال إنني أريد التخلص من موهبتي؟»

لم أفهم في البدء معنى كلامها.

ـ «هل تمزحين؟ إن جناحيك هما سبب مأساتنا».

ـ «فقط مجتمعنا هو من جعلها مشكلة، لكني لن أتخلص من حلم كل إنسان؛ حتى أُرضي غرور مجتمع مريض».

ـ «تسنيم، هذا شيء منافي لطبيعة الخلقة، ليس من فطرتنا الطيران، فكيف تريدين منهم قبوله؟»

ـ «أنا لا أؤذي أحدًا، وهذه هبة ربانية لم أتدخل لامتلاكها».

ـ «بل هي نتيجة تجارب شيطانية، ألم تسمعي ما حكته أمك؟»

ـ «بلى، ولكن لا أرى ما بي تشوهًا، ربما أراد هؤلاء المجرمون ضررًا، لكنهم لم يفعلواْ إلا إرادة الله فينا».

أرى في تسنيم وجهًا غير الذي تركتها به، أصبحت أكثرًا مرحًا وتقبلًا لحالتها، بل تحبها وتدافع عنها:

ـ «هل تقترحين أن نفوت فرصة السفر إلى الخارج؟ أن نضرب عصفورين

بحجر؛ نتخلص من مشكلتك، ونبتعد عن تلك الحياة الكئيبة».

ـ «أرغب في العيش هنا، ومواجهة مشكلتي هنا».

ـ «هذه ليست الأرض التي يمكنك فيها مواجهة أي مشكلة».

ـ «لنحاول يا أسامة».

ـ «وماذا عن ابنك؟» نظرت كأنها تعلم لأول مرة بحملها «هل تنجبينه ليواجه مشكلتك معك؟»

صمتت قليلًا مطرقة إلى الأرض:

ـ «ما رأيك أن ننتظر حتى بعد ولادتي، ربما وقتها تكون مشكلة القضية حُلت، ونرى ما يمكن فعله، فإن رأينا تقبلًا نبقى، وإن بقي الوضع على ما هو عليه نسافر».

لم أقنع بما تقول، لن أترك صغيرتي عند أغراب لمنطقها الغريب:

ـ «لا، الآن ستأتين معي، لا مزيد من النقاش».

لم تعقب إيجابًا أو رفضًا، فقط امتثلت مكرهةً، نزلنا إلى بيت مضيفنا، جدال نشب بيني وبين الحاج علي وزوجه حول بقاء تسنيم أو أخذها معي، وكانت أم هالة تحتج بأنها حُبلى تحتاج لرعاية، وبينما نحن نتحدث إذ أصاب تسنيم إعياء مفاجئ، وتصببت عرقًا، أخذتها أم هالة إلى الغرفة، لتنزع عنها الثوب الثقيل، وقالت لي إنها ستأخذها إلى الطبيبة غدًا وعليّ أن آتي معها، فخلال ستة أشهر –

هي مدة حملها- لم تستشر طبيبًا، فقط أتركها سواد الليل وأعود من الغد، فاقتنعت بمنطقهم وتركتها.

في العاشرة صباحًا اتصلت بتسنيم، أخبرتها أني آت لمقابلتها، وصلت إليها وقت صلاة الظهر، صليت في الزاوية القريبة، وصعدت طرقت الباب فتحت لي أم هالة -التي كانت لديها خبر بقدومي ـ وأخبرتني أن تسنيم تنتظرني بالأعلى، السطح أصبح بشكل أو بآخر مكان لقائنا، صعدت وجدتها تقف عند حافة السطح تنظر إلى أسفل، الشمس تسطع على جناحيها، ثوبها الزهري يرفرف مع الهواء يلصق الثوب على جسدها يبرز جماله، موضوع على السور الرداء الأسود، يبدو أنها خلعته بعد أن صعدت استعدادًا لاستقبالي، تركتها دقيقتين في عزلتها، ففي انتظار الزوج لذة تحبها المرأة، أردت أن تتلذذ بها قليلاً:

ـ «ما أجمل الثوب عليك!»

صرخت صرخة قطعتها، ووضعت يدها على قلبها، والتفتت إلى وجرت محتضنة لي، ضوء النهار أظهر انتفاخ بطنها، ظلت في حضني مدة حتى انتقل دفئها إليَّ:

ـ «لقد كان لأخت هالة الكبرى، وسارة أحدثت فيه فتحات لأخرج منه أجنحتي».

ـ «أنت من تزيدينه بهاءً».

ـ «اشتقت إليك يا أسامة».

ـ «افتقدت سماع اسمي منك».

ـ «ألن يجمعنا بيتنا؟»

ـ «قريبًا سنتخذ بيتًا أفضل منه».

ـ «أنا خائفة يا أسامة».

ـ «فقط علينا الآن التفكير في حملك، لا بد أن نذهب إلى طبيبة».

ـ «أم هالة قالت لي إنها يمكن أن تذهب بي إلى طبيبتها، وهي تتعامل معها منذ أكثر من عشرين عامًا، وتقول إنها (شاطرة) جدًّا».

ـ «ليس المهم الآن كفاءتها، لكن المهم أمانتها، حالتك الخاصة تتطلب طبيبة تحفظ سرنا».

ـ«ما رأيك أن تذهب مع أم هالة وتشرح للطبيبة الحالة قبل أن أذهب أنا إليها؟»

ـ «اقتراح جيد».

صمتنا قليلاً.

ـ «هل تعرفين لم يسمونه وادي القمر؟»

ـ «لا».

ـ «كان قديمًا مليئًا بالخضرة، تحيطه البحيرات، ويطل على البحر، كان منتجعًا للاستجمام، وملقفًا للنسيم النقي».

ـ «معقول؟»

ـ «نعم، كان في الليالي المقمرة ينعكس القمر على المستنقعات، فيتلألأ سطح

الماء كبحر من الأقمار الطافية».

ـ «يا خسارة، لقد تحول من بحر أقمار، إلى مجرور نتن».

ـ «لكن بهبوطك عليه من السماء، عاد ثانية واديًّا لقمر يطير بجناحين».

احمر وجهها خجلاً:

ـ «أراكِ أصبحت أكثر قوة، وجناحيكِ صارا أكبر».

ـ «نعم، أنا أشعر بذلك، بل وأشعر أن نفسيتي أفضل، وزادت ثقتي في نفسي».

ـ «إن القدرة على الطيران تعطي صاحبها تفوقًا» «هل تريد أن تراني أطير؟»

أشرت لها بعد تردد أن افعلي، خفقت جناحيها مثيرة عاصفة صغيرة، رباه! هل كبر جناحاها عن السابق؟ صعدت بقوة، بضعة أمتار ثم عشرة ثم عشرين ثم خمسين مترًا، أشرت لها أن تكف عن الصعود، ضحكت وراحت تدور في الهواء:

ـ «كفاية يا تسنيم، انزلي الآن».

لم تستمع إليَّ، فناديتها بصوت أعلي، فهبطت امتثالًا، راحت تضحك ملء قلبها، لم أرغب أن أفسد فرحتها؛ فأخفيت قلقي وابتسمت:

ـ «ألم ترغب يومًا في الطيران؟»

استغربت السؤال، ربما يكون من البديهي أن تكون هذه رغبة كل إنسان، لكن في أرض تجعل من الحلم جريمة، تضع سقفًا لتصوراتك وخيالاتك وأحلامك، لا مكان للشغف، حلمك فيه أن تظل في عملك دون أن تفصل،

أو تسكن دون أن تطرد، أو تتزوج دون أن تدخل السجن من وطأة الديون، تحلم أن إذا مرض ابنك تجد ما تعالجه به، وإن وجدته تجد الخدمة التي تداويه، تحلم أن لا يمر العمر وتظل في دوامة الحياة إلى أبد الآبدين، ترفع صخرة إلى أعلى الجبل لتهوي من بين يديك في الوادي السحيق، تحلم أن تخرج من القرية الظالم أهلها دون أن تموت على شواطئ القرية الظالمة الأخرى، لا مكان هنا لحلم الطيران:

ـ «نعم أحلم بأن أطير».

لبست ثوبها الأسود وقالت:

ـ «يمكنني أن أحملك».

ثم ضحكت ضحكة مبتورة، في البدء لم أستوعب كلماتها، ظننت أنها تمزح:

ـ «كفي عن هذا يا تسنيم، هذا ليس وقت استخفاف».

ـ «لا تقل لي إنك بعد كل ما رأيت تستغرب أن أحملك، فقط اترك نفسك بين يدي».

اقتربت مني:

ـ «مد ذراعيك جانباً».

وقفت مثل (خيال المقاتة)، وضعت ذراعيها حولي جذعي، فوضعت ذراعي حول عنقها، وبدأت ترفرف، فلم يحدث شيء، فزادت من قوة الخفقان، شعرت أني أرتقي، نظرت خلفي رأيت السطح يبتعد، ارتعبت وارتعش

جسدي، أفلتُ من بين يديها، صرَخَتْ وحاولت التشبث بي، أمسكت بقدميها، كان بين قدمي والأرض أكثر من مترين، صحت بها:

ـ «انزلي فوراً».

وقبل أن تهبط، انخلع الحذاء من قدمها وارتطمت بالأرض أحمله بين يدي، نزلت مسرعة وانحنت تطمئن علي:

ـ «هل أنت بخير؟»

قلت والألم يعتصرني:

ـ «يبدو أن كاحلي التوى».

ـ «معذرة حبيبي، لم أقصد» ثم ساعدتني على النهوض «لن أطلب منك ذلك ثانية».

فقلت لها ما أثار عجبها:

ـ «بل أريد أن نجرب ثانية».

ـ «ألا تخشى حبيبي؟»

ـ «خشيتي هي فقط عليك أنت».

مددت ذراعي منتظرًا أن تحملني ثانية، هذه المرة رفرفت بقوة أكبر، وصعدت سريعًا، كنت أنظر من فوق كتفها فأرى السماء تقترب، ونظرت خلفي رأيتنا نصعد مسرعين، حتى بدا البيت بعيدًا، وراحت الأسطح القبيحة تصغر وتبتعد، حتى شعرت ببرودة هواء البحر اللطيف، دخان مصنع الإسمنت

يلاحقنا فناورته تسنيم وابتعدت عن تياره، نظرت إلى أسفل فرأيت المباني صغيرة جدًّا فتشبثت بتسنيم هلعًا، نظرت في عينيها خجلًا، وجدتها لا تنظر إليَّ، إنما تنظر إلى الأمام، مبتسمة هادئة، لا ترمش من قوة الريح في عينيها، هل تَكَوَّن لديها جفن شفاف كما في الطيور؟ كنت خجِلًا أن يراني الناس في هذا الوضع، لكن تسنيم ارتفعت كثيرًا بحيث لا يمكن لا أحد رؤيتنا، الريح عاتية، أرى من علٍ ميناء (الدخيلة) بسفنها التي تضاءلت، ومن ورائها البحر الممتد إلى ما لا نهاية، يتلألأ ضوء الشمس على أمواجه المتكسرة، كبساط مغزول من خيوط فضية، بحيرة مريوط أو (الملاحات) على يسارنا بساط مختلف الهيئة، لا تصل إلينا رائحتها المنفرة، تسنيم لا تزال تصعد في دوائر حلزونية، مستغلة تيارات الحمل كأي طائر يتبع أسلافه منذ ملايين السنين، تتسع رقعة الرؤية، أرى شرق المدينة وغربها، الناس في خوضهم يلعبون، لكن بالصعود نرتفع فوق هموم حياتهم التافهة، تصارع على لا شيء، الرؤية من أعلى تختلف، ليست كرؤية العالم من برج أو من خلف زجاج طائرة، بل الرؤية الحرة، تتحد مع النسيم والغبار، تكاد تعانق السحب، تلمسها، كل شيء مختلف حين ترتفع قليلًا عن الأرض، معزولين عن العالم نحتضن بعضنا بعضًا، تطير تسنيم في كل اتجاه بغير هدي، تنطلق شرقًا وتتهادى غربًا، تصعد إلى أعلى حتى ظننت أني سألمس السماء، ثم تهوي لأسفل حتى أيقنت أننا ساقطون، تلعب ألعابًا لم أحسب يومًا أنها ستأتي على تفكيرها، مع الوقت صرت أكثر شجاعة، فلم أهب

الارتفاع أو الصعود في الهواء، ابتعدنا عن المدينة، خفت أصواتها حتى تلاشت، نظرت أسفل مني رأيت البحر، منحني ذلك شعورًا زائفًا بالأمان، النوارس تحلق قربنا، تصيح مرحبة بنا، أو لعلها تحاول تحذيرنا من الاقتراب من حرمها، صفير الريح في أذني ينبئني عن سرعتنا العالية، هدأت من سرعتها، حتى كأنها تقف في الهواء، واعتدلت من وضع السباحة إلى وضع الوقوف، تاركة الريح تحمل جناحيها، ذراعاها قويان يعتصران جذعي، أنفي يلامس أنفها، أحس بحرارة أنفاسها على وجنتي رغم شدة الريح في الأعلى، شفتي على بعد ملليمترات من شفتيها، قربتها منها أكثر، قبلتها، شعرت بحلاوة رضابها في ريقي، أول قبلة منذ شهور، هل من نافلة القول أن أقول إن هذه أول قبلة في التاريخ في الهواء؟ طالت كما ينبغي لحبيبين تلاقيا بعد طول فراق، نظرت لعينيها طويلًا، فجأة انطلقت تمخر الهواء كسهم يهرع تجاه هدفه، هلعت وشعرت أني أسقط، كانت تصرخ فرحًا، لم أشعر أنها تعبت، كانت كصقر ولد في الهواء ولم تلامس قدميه الأرض يومًا، ينام فوق الريح ويأكل وهو يحلق، من الغريب أن أشعر بالإثارة في هذا الموقف، أرغب في امرأتي الآن، هل هذا ممكن حتى؟ استحييت أن أذكر ذلك لها، مرحنا ساعة في الجو، حتى اكتفينا -وأني لبشر أن يكتفي من هذا- ثم طلبت مني أن أدلها على منزلي، لم أعرف في البدء أين نتجه، فقد اختلط عليَّ الأمر من أعلى، أخرجت هاتفي وشغلت برنامج تحديد المواقع العالمي، حددت المكان على الخريطة، كانت التعليمات تتبع الطرق

الأرضية، ونحن نحلق فوق البيوت، شعرت بحيرة الصوت الأنثوي إذ يطلب أن نتجه يسارًا، في حين أنه يجدنا اخترقنا جدران المبنى الذي أمرتنا أن ندور حوله، ضحكنا حتى كدنا نسقط، كتمت صوت التوجيه واستخدمت فقط الخريطة، سبع دقائق وأربعون ثانية هي مدة وصولنا إلى المسكن -مع التخبط- في مشوار كان سيستغرق على الأرض أكثر من ساعتين من العذاب، أشرت لها إلى سطح البناية، فهبطت فوقها بسلاسة، استشعرت صلابة الأرض تحت قدمي، وقفت قليلًا أستعيد توازني، الدنيا تميد بي، كطفل أمسكه والده من يديه ودار به في الهواء دورات ثم تركه، هل تعرف شعور الحلم، عندما يكون كل شيء بعيدًا ضبابيًا وله منطق خاص رغم أنه غير منطقي؟ ذلك ما كنت أشعر به الآن، لم تبارح يدي يديها.

- «هيا انزلي معي».

- «ألم نتفق؟»

- «دعي عنك هذا التفكير العقيم، ليس لك إلا زوجك».

- «طبعًا يا حبيبي، أنا ملكك خالصة، أنا فقط أريد أن أقلل فرصة رؤيتنا معاً».

أجد في كلامها ثقة لم أعهدها من قبل، شعرت معها أنها تعي جيدًا ما تقول، لم أرد أن أضغط عليها كثيرًا، فتركتها وما تريد، راقبتها وهي ترقى إلى السماء كالعنقاء، لأول مرة أمعن النظر هكذا في طيرانها، تبدأ برفرفة قوية تثير عاصفة من الغبار، ثم بعد أن ترتفع بضع عشرات من الأمتار تمد جناحيها وتهبط

سريعًا كأنها تسقط، حتى يكاد القلب يسقط معها، ثم ترتفع إلى أعلى بسرعة لا تصدقها إلا إذا رأيتها.

***

في اليوم التالي ذهبت مع أم هالة إلى الطبيبة في الدخيلة، استقللنا تاكسي بالكاد استطاع المرور داخل الشوارع الضيقة، سرنا كطائر الفلامنجو، فوق قطع القرميد والبلاط؛ التي وضعها الأهالي ليعبر الناس وسط برك مياه الأمطار المختلطة بمياه الصرف الصحي، لافتة سوداء قديمة مكتوب عليها:

«دكتورة ألطاف حسن نعيم

استشاري أمراض النساء والتوليد

مستشفى المحافظة للولادة

(دار إسماعيل سابقًا)»

العيادة مزدحمة جدًّا، كنت أظنها ضيقة لكنها واسعة الأرجاء بها الكثير من الكراسي والأرائك، كلها مشغولة، ويوجد آخرون يقفون بباب العيادة وعلى السلم لعدم وجود أماكن شاغرة بالداخل، كانت أم هالة صديقة للطبيبة، فسهل ذلك علينا المقدمات، وبعد التعارف، طلبت منها أن تأتي لتفحص زوجتي الحامل، وجادلت بأنها لا تذهب لزيارات منزلية، فاضطرت أم هالة أن ترمي بالورقة الرابحة:

ـ «بصراحة، تسنيم تطير».

ـ «تطير! ماذا تقصدين، تموت؟» سألت الطبيبة.

ـ «لا، إنها تطير فعليًا كما تطير الطيور» أجبت.

ساد صمت طال، تحاول أن تستوعب ما قيل، فهي قديمة متمرسة، ورأت وسمعت كل شيء تقريبًا، وتحاول أن تبحث في خلايا مخها عن معنىً للكلام الذي قيل، وكان علينا هنا أن نحكي القصة من أولها، بالطبع لم تصدق وضحكت، وظنت أننا نسخر منها، بل ولامت أم هالة اشتراكها في تلك المهزلة، ثم أريتها الفيديوهات -التي لم تكن تعلم عنها شيئًا- ورحنا نقسم الأيمان المغلظة على صحة ادعائنا، وهنا حدث ما كنا نبغي.

ـ «أريد أن أراها بنفسي يا منى، انتظروني بعد انتهاء العمل بالعيادة».

ـ «أكثر الله خيرك يا دكتورة» قالت الحاجة منى.

ـ «ولكن حذاري، لو أنكم تلعبون بي، فأنا أعرف كيف أُؤَدِّبُ من لم يؤدبه أهله».

ـ «ثقي بي يا دكتورة» قالت المرأة الطيبة، التي تحملت الكثير من أجل تسنيم.

عند وصولنا بسيارتها، كان الوقت قد تخطى منتصف الليل، الأسطى عليٌّ في الانتظار، وبجانبه ابنتيه سارة ورانسي، وهالة مع تسنيم في الغرفة، قادت الحاجة منى الطبيبة إلى الغرفة وتبعتها، كانت تسنيم تتشح بردائها الأسود؛ تخشى أن يظهر جناحيها، كانت هيئتها لمن يراها أول مرة غريبة، فالجناحان

تحت الرداء يجعلان الثوب مُعَرَّشًا، كأنه يخفي حدبة كبيرة على الظهر، مما لا يتناسب مع جسمها الصغير.

ـ «كيف أحوالك يا بنيتي؟»

ـ «بخير» ردت تسنيم باقتضاب.

ـ «تفضلي يا دكتورة، أنت تعرفين طبعًا ابنتي هالة، اتركينا يا هالة».

ـ «لا». اعترضت تسنيم «أريدها بجانبي».

ـ «دعيها يا منى» أمرت الطبيبة «والآن يا تسنيم أريني ما لديك».

كانت طريقة السؤال غريبة قليلًا، لكننا أمام حالة استثنائية، وقد تخطينا مرحلة الاستغراب منذ زمن، نظرت إليّ تسنيم، فأومأت لها أن افعلي، فكت رباط الرداء وتركته يسقط عن كتفيها ثم استدارت ببطء.

نعم، كما توقعت، دارت بها الدنيا وكادت تسقط لولا أن سَنَدتُها، دخل الحاج علي، وأمسكناها أنا وهو من ذراعيها ووضعناها على كرسي، أحضرت سارة كوب ماء بالسكر، وراحت أم هالة تسقيه لها، هي لم تغب عن الوعي تمامًا لكنها كادت، وها نحن نحاول أن ندركها قبل أن تموت بسكتة قلبية. بعد أن استعادت اتزانها وكرامتها كطبيبة، طلبت أن ترى تسنيم ثانية، وجعلت تتفحص جناحيها، وهي تتمتم بكلمات لاتينية غير مفهومة لي، في الحقيقة لم تمارس عملها كطبيبة أمراض نساء في الكشف على مريضتها، بل كبيولوجي يفحص حيوانًا اكتشفه حديثاً.

ـ «منى، عليك أن تأتي بها غدًا إلى العيادة بعد موعد الإغلاق».

ـ «نعم سأفعل يا دكتورة».

ـ «ضروري غدًا يا منى، فتلك الفتاة تحتاج إلى فحص بالسونار عاجلاً».

ونظرت إليَّ:

ـ «ولا بد طبعًا أن تأتي معهما».

كانت لا تريد أن تنصرف، وظل بصرها معلقًا بتسنيم حتى غادرت.

العيادة كانت خاوية تمامًا، شاشة السونار تظهر بشري مكتمل، ابني أو ابنتي، هل كل الأجنة كذلك، أم أنه أصغر من الطبيعي؟

ـ «ها هو ابنك يا تسنيم» ثم راحت تحرك المجس وتضغط أكثر «بل اثنان، أنت حبلى في توأم».

ـ «ما شاء الله، ألف مبروك يا تسنيم» هللت أم هالة.

ـ «اثنان، أكيدة أنت يا دكتورة؟»

ـ «نعم، كما ترون على الشاشة، وسأسمعك صوت قلبيهما».

وضغطت على الشاشة اللمسية على رمز القلب، فسمعنا تداخل أصوات القلبين واضحًا، قالت:

"انظرا، على الشاشة خطين نبضات لقلبيـ...."

قطعت كلامها، ثم ضيقت حدقتيها، وحركت المجس إلى أسفل بطن تسنيم وضغطت بقوة حتى أَنَّتْ فتاتي تألماً.

ـ «ما هذا؟» اندهشت «هل هذا خط ثالث؟»

ضغطت بعض الأزرار وعدلت الأوضاع، ثم أعلنتها صاعقة:

ـ «ليس توأمًا، بل ثلاثة».

ـ «أنا حامل بثلاثة أطفال؟» قالتها تسنيم يختلط فرحها بدهشتها.

ـ «ذكور» عقبت الطبيبة ألطاف «لديك ثلاثة أجنة ذكور».

ـ «لا إله إلا الله، بسم الله ما شاء الله» صاحت أم هالة «ربنا يحفظك يا ابنتي ويحفظ ما في بطنك».

ـ «ثلاثة؟ غير معقول!» صحت في ذهول.

ضغطت زر الطباعة وأخذت الصورة الخارجة من آلة الطباعة وأعطتها لي:

ـ «انظر بنفسك».

أخذت الورقة وتفحصتها غير مصدق، كنت فرحًا مصدومًا خائفًا، ورحت أتمعن في الصورة باحثًا عن شيء ما، أدركت الطبيبة مبتغاي، فضغطت أزرار تحاول بها توضيح الصورة ورؤيتها من عدة زوايا، كانت تبحث في ظهر كل جنين عن أي علامة غير طبيعية.

ـ «مما أراه أمامي، لا يوجد أي نوع من التشوه، في البنى العظمية، ولا أدلة على وجود زوائد لحمية أو عظمية» ثم أردفت: «لكن يا أسامة، ثلاثة توائم مع حالة

تسنيم غير المفهومة، ربما يسببون ولادة عسيرة».

ظهر القلق على وجه تسنيم الذي اصفر كليمونة.

ـ «وماذا تقترحين؟»

ـ «أقترح ألا ننتظر إلى الشهر التاسع، مما هو أمامي، فإننا في الأسبوع الخامس والعشرين أو السادس والعشرين».

أزالت المجس، ومسحت الجل ببعض المناديل «فهي على بُعد أسبوعين من الشهر السابع، وحينها يمكنني أن أولدها، قبل أن ننتظر وتحدث مضاعفات».

ـ «لا، هل سأضع بعد أسبوعين؟»

ـ «لا بُدَّ أن تلدي في مرحلة ما، والآن أفضل من بعد ذلك، فلا ندري ما يمكن أن يحدث مع الوقت، خاصة أن هذه أول ولادة لك».

نظرت لي تسنيم طالبة المساندة:

ـ «لا تخشِ شيئًا يا حبيبتي، سأكون بجانبك دائماً» ثم وجهت كلامي إلى الطبيبة

ـ «هل ستلد هنا؟»

ـ«لا يمكننا أن نخاطر بالذهاب إلى مشفى، فالكتمان مهم».

ـ«وماذا لو حدثت مضاعفات؟»

ـ«سأحضر طبيب تخدير على قدر عالي من الكفاءة، وأنا لست مبتدئة، وسأحضر ممرضة متمرسة أمينة، ولدي هنا كل الإمكانيات التي نحتاج إليها».

ـ «الدكتورة شاطرة جدًّا، هي التي ولدتني في ولاداتي الأربعة».

ـ «ما رأيك يا تسنيم؟»

ـ «لا أعرف يا اسامة، الأمر ما ترى».

كانت تريدني أن أحمل عنها هم القرار، وتتقبله أيًا كان نتيجته:

ـ «إذًا بعد أسبوعين؟» سألت الطبيبة.

ـ «أسبوعان من بداية الشهر السابع، أي بعد حوالي شهر إن شاء الله، وسوف أتابعها في منزل الحاجة منى حتى يحين موعد الولادة».

*****

سباق النورس

ورد إليه اتصال من جهة مجهولة، ففهم البراء أن المتصل هو حازم السنوسي:

ـ «ماذا في جعبتك يا حازم؟»

ـ «أرسلت لك تفريغًا كتابيًا بآخر مكالمة بين نادر وزوجه، التي لم يطلقها كما تكهنت أنت».

فتح البراء الرسالة، وراح يقرأ:

ـ «حبيبي كيف أحوالك؟ متى ستأتي؟»

ـ «أنا بخير يا رقية، أعرف أن تباعدنا طال، لكنها الضرورة».

ـ «هل هناك جديد؟»

ـ «لا أظن أن الصحفي يشك في شئ».

ـ «ألم أقل لك إنها مخاطرة، كيف تسلمه حياتنا؟»

ـ «ينبغي أن نمهد الطريق من الآن، لا بد أن يتشجع أحد أفرادنا ويبدأ في الظهور للعامة».

ـ «المهم ألا يعرفوا الآن يا نادر، فوقتها سيكون أبناؤنا في خطر».

ـ «هذا ما يقلقني، لذلك سأطلب منك أن تتحملي أنت والأولاد قليلًا، ولا تظهري بهم في أي مكان قريب من أبي أو مني».

ـ «هل تشعر أنه يراقبك؟»

ـ «أنا شبه متيقن، يتحين الفرصة ليعرف أي شيء».
ـ «لقد قرأت التحقيق، أخشى أن يجد الرجل في المذكرات ما يكشف السر».
ـ «ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، قبلي لي الأولاد ولا تتصلي حتى أتصل بك».
ـ «أمرك يا حبيبي».

إحدى الرسائل الالكترونية التي طالعها البراء، رسالة يؤكد فيها دكتور (أوليگ بوسلاڤ) للدكتور وديع، أنه لا بد أن يرسل صور جوازي السفر، حتى يستخرج التأشيرة الإلكترونية، وطلب المزيد من التحاليل قبل السفر، ورد من الدكتور وديع بالتحاليل المطلوبة، ويخبره أن الزوجين قد يكونا غير مستعدين للسفر، وكان رد دكتور (بوسلاڤ) أنهم قد يفقدون تمويل العملية إذا فتر اهتمام مجلس الحكماء، وقد يكون في التأخير ضررًا بالحالة، ورد وديع أن الحالة حبلى في ثلاثة توائم، وفي السفر خطر عليها، فأوصى (بوسلاڤ) بأن يعجلواْ بالولادة في أقرب وقت.

رسائل صوتية لبرنامج (واتس آب) –والذي توقف عن العمل منذ أكثر من أربعين عاماً– بين أسامة المدني والطبيب وديع معزوز، يحثه فيها على الاستعداد هو وتسنيم للسفر في خلال ثلاثة أشهر، وأن عليهم أن يقدمواْ موعد الولادة، وأسامة يجادل بأن ذلك مستحيل وخطر على تسنيم، لكنه رأى –تحت إصرار دكتور وديع أنه ما باليد حيلة.

لكل حرفة لغتها، واتصال دكتور وديع بالطبيبة ألطاف وفر عليَّ مهمة شرح ملابسات سفرنا، وكيف أننا نحتاج تعجيل إخراج الأجنة من أحشاء تسنيم، الوقت أزف، نعم، قوانين البيولوجيا لا تهتم لسفاسف أمورنا، لكن البشر لا يتركون شيئًا إلا إذا تحدوه وحاولواْ لي عنقه، يمكن للأطباء تعجيل الولادة، لكن ذلك لا يأتي دون سعر، الخطر يحيق بالفتاة المسكينة، قد تصل إلى النزيف والوفاة، وخطر على الأطفال الثلاثة، سيخرجون خدجًا يستكملون حياتهم الجنينية خارج رحم أمهم، ربما لا ينجون، وهكذا حددت الطبيبة ألطاف موعد الولادة بعد أسبوع في عيادتها، ستكون تسنيم وقتها قد تخطت الشهر السابع، وهو وقت مناسب جدًّا على حد قولها، وقد طمأنني دكتور وديع بأن الوسائل الحديثة تجعل الولادة آمنة، هكذا وجدنا أربعتنا في عيادة الطبيبة -بعد انتهاء وقت العمل- تسنيم وأنا وهالة وأمها، كان في انتظارنا بجانب الطبيبة، ممرضة سمراء نحيفة لا أذكر اسمها، وطبيب تخدير.

ـ «دكتور سامي أمين سيلازم تسنيم طوال العملية» قالت الدكتورة ألطاف.

ـ «أهلًا يا دكتور» قلت «هل أخبرتك دكتور ألطاف عن الحالة؟»

ـ «نعم، وأرغب أن أرى الجناحين قبل البدء، فلم أخدر ذي جناحين من قبل، ولا أريد أن أخطئ في الجرعة».

ـ «لقد رأيتك على الفيس» كان هذا قول الممرضة حادة الصوت «ظننت أنها خدعة أو أنك بسم الله الرحمن الرحيم، ولم أصدق حين أخبرتني الطبيبة أنك حقيقية، حسبتها تمزح».

ثم أطلقت ضحكة قصيرة وصمتت، ثم بدأت في تجهيز الأدوات.

ـ «الآن انتظرواْ في الخارج حتى تتم العملية» قالت الطبيبة.

ـ «أريد أن يبقى أسامة معي» توسلت تسنيم.

ـ «لا بأس، اخرجي يا منى وخذي ابنتك معك».

خلعت تسنيم رداءها، وتخطينا مرحلة هلع الطبيب والممرضة، وطلب منها الطبيب أن تصعد على الميزان، يبدو أن الجناحين أضافا إلى وزنها أكثر من ثلاثين كيلو جرامًا، مما جعل الطبيب يزيد من جرعة التخدير «هل يمكنك أن تنامي على جنبك؟» سأل الطبيب، حاولت أن تنام على جنبها دون أن تصدم جناحيها في شيء ما، أتى الطبيب من خلفها وطلب من الممرضة مساعدته في ازاحة الجناحين، لكنهما كانا أكبر من قدرتها على إزاحتهما، فمددت يد المساعدة. حقنها الطبيب في ظهرها، لم تشعر تسنيم بألم رغم خوفها، ثوان ولم تشعر بنصفها السفلي، فشرعت الطبيبة في عملها، وراحت تشق بطن تسنيم لتستخرج الأطفال الثلاثة، وبعد دقائق بدأ يعلو صياح الرضيع الأول يليه الآخر، والممرضة تأخذهم من يد الطبيبة، ثم خرج الثالث وامتلأت العيادة صياحًا وراحت الممرضة تنظفهم، ونادت دكتورة ألطاف على أم هالة

لتساعدها، وبدأت تخيط جرح تسنيم، ناولتني أم هالة أحد الأطفال، حملته بين يدي، تحسست ظهره ونظرت فيه، لم أجد شيئًا غريبًا، أعطتني الممرضة الآخر والذي كان أيضًا صحيح الجسم، نظرت إلى تسنيم التي كان نظرها معلقًا بي، ابتَسَمْتُ ففَهَمَتْ أنهم معافون، أغمضت عينيها تستريح، وضعت اثنين على صدرها، وأتيت بالثالث، أذنت في أذنه اليمنى وأقمت الصلاة في اليسرى، وأعطيته لأمه وكررت فعلتي مع الآخرين، ساد السرور العيادة، سمحت الطبيبة لنا أن نبقى حتى الصباح لترتاح تسنيم، بعد الفجر عدنا إلى بيت الحاج علي، الذي كان استقباله حافلًا وكأنه يوم عيد، رحنا أربعة وعدنا سبعة.

بعد كثير مناقشات؛ أسميناهم حسام الدين ونور الدين وعليّ الدين، وهذا الاسم الأخير اختارته الصغيرة رانسي.

الحياة مع توأم مستحيلة، فكيف هي مع ثلاث أطفال؟ زالت السَكرة وأتت الفكرة، وأصبح الجميع يلهثون لتلبية احتياجات الوافدين الجدد، تسنيم لا تنام ليل نهار ترعاهم، وأهل البيت سخرواْ كل جهودهم لمساعدتها، حتى أن الرجل المسكين لم يعد يجد راحة في بيته، تسنيم تبكي كلما أتيت لزيارتها، أصابها اكتئاب، ولا ألومها، نصحتني أم هالة أن نخرج للتنزه بدون الأولاد، كانت مهمة عسيرة تتطلب استعدادات كبرى، علينا أن نجهز ما يقيم أود الأطفال، من رضعات كثيرات وملابس نظيفة، وحفاضات، وماء مهدئ للمغص،

سيكون على كل أفراد الأسرة المنكوبة رعاية الأطفال.

ذهبنا إلى الشاطئ معًا لأول مرة منذ ما قبل مرض تسنيم، اشتقنا له، تركت تسنيم الأطفال الثلاثة لأول مرة وهي تبكي، تشعر أنها تخونهم، لكنها ترضعهم الاكتئاب مع اللبن، فكان لا بُدَّ من بضع ساعات من الترفيه، لتعود لهم أفضل حالًا، لامست أقدامنا الرمال الساخنة، شاطئ شهر العسل بالبيطاش، ليس بعيدًا عن سكن الأسطى عليّ، رغم أنه غالٍ -لم يعد هناك شواطئ للفقراء- إلا أنه شديد الزحام، تلقفنا قطاع الطرق، المسمون زورًا بمنظمي الشاطئ، يكادون ينهشون لحمنا من على عظامنا، لا بُدَّ أن ندفع ليعطينا مكانًا قرب الماء، وندفع المزيد كي يضعنا في بقعة بعيدة عن سماجة الشباب، وندفع كي يستبدل الكرسي المكسور والشمسية المقطعة، وندفع حتى يكف عن الظهور لنا لندفع، الهواء طازج، هدير الموج يدغدغ الأعصاب، كانوا يضعون قديمًا كراسي خشبية مغطاة بالقماش، تتمدد كأنها أرائك، كانت تتناسب كثيرًا مع الشاطئ، أما اليوم فيضعون المقاعد البلاستيكية الرخيصة، فتركته وتمددت على الرمال أنا وتسنيم، خلعت قميصي وبقيت بلباس السباحة القصير، ولكن تسنيم -رغم القيظ- لم تستطع التخلي عن ردائها الذي يستر جناحيها، جلست جواري، تشابكت أيدينا لبرهة، أكلنا، تحاورنا وضحكنا، مزحنا، ثم المزيد من الضحك.

ـ «ألن تنزل إلى الماء؟» عرضت تسنيم.

ـ «لا أريد أن أتركك وحدك» نظرت إلى الماء «رغم أني أشتاق للسباحة».

ـ «اذهب إذًا، سأكون في انتظارك».

بللت قدمي بالماء، كان باردًا منعشًا، ثم مزقت صفحة الماء بمقدم رأسي، تركت نفسي للماء يحملني، جعل الموج يبعثرني، يصعد بي وينزل، صعدت لأتخلص من الهواء الفاسد وأعب غيره، غصت ثانية، ثم صعدت على صوت امرأة تصيح ابنتي أنقذوها، الجميع يحتشد عند صفحة الماء، الأنظار معلقة ببقعة بعيدة في الماء، أبعد من أي مصطاف يسبح، أحدهم يصارع الموج، طفلة لا تتجاوز التسعة أعوام، شباب كثر انطلقواْ سابحين نحوها، الفتاة بعيدة جدًّا، والسباحون بطيئوْ الحركة، ربما لن يصلواْ قبل استقرارها في القاع، نظرت لي تسنيم، ترددت لكني أومأت لها أن تفعل، وضعت عن كتفيها الرداء، فردت جناحيها وطارت، الأجنحة تثير زوبعة؛ تُذْرِي الرمال في العيون، تخدش عدساتها، ساد صمت مترقب، التوتر يحوم فوق الرؤوس مع حوم تسنيم، ارتفعت إلى الأعلى كثيرًا، أصبحت تمتلك بصرًا حادًا كعين الصقر، حيث تبحث عن فريستها ثم تنقض عليها مباشرة في خط مستقيم، وقفت في السماء هنيهة -أَلْفُ هاتف يصورها- تهبط بقوة تجاه الماء، تحوم فوقه فيصنع تفريغ الهواء تحتها موجة من خط واحد يتبعها كذيلها، نورس متحمس يحاول أن يسابقها، رفرفت جناحيها بقوة فانشقت الموجة على جانبيها كل فِرْقٍ كطود صغير، ثوان كانت عند موضع الفتاة، والتي استسلمت للماء وبدأت في

السقوط إلى القاع، فغاصت خلفها، ولم تكد تخرق الماء حتى صعدت سريعًا تحملها إلى الأعلى، صاح الجميع فرحًا، أفاقت الفتاة لتجد نفسها بين يدي كائن أسود، يرتفع بها في الهواء، راحت تصرخ وترفس برجليها وتضربها بيديها، صاحت أمها:

ـ «أنقذوها من بين يديه».

حاولت تسنيم أن تتشبث بها، لكن دون جدوى، كانت على ارتفاع حوالي ستة طوابق حين انزلقت من يديها، مرتطمةً بصفحة الماء صارخةً، كان في انتظارها الشباب الذين وصلواْ لتوهم، أخرجوها من الماء منقذين إياها من المسخ، راح المواطنون الشرفاء يقذفون تسنيم بما تطاله أيديهم من حجارة وكراسٍ، لم تصل إليها، خلع أحدهم عصا المظلة وأطلق الجزء المعدني المدبب كالرمح باتجاهها، طاش الرمح، لكن الفكرة راقت للباقين، فراحواْ يطلقون عليها سيلًا من الرماح، كانت اقتربت من الأرض تحاول الهبوط لكن الرماح المنطلقة نحوها جعلتها ترتفع ثانية، حاولت تفاديها بالتأرجح يمنة ويسرة، نجحت في تفاديها إلا واحدًا أصاب قدمها اليسرى، صرخت، هرعت نحو الشباب ناهيًا إياهم عن محاربتها:

ـ «ماذا تفعلون؟ لقد كانت تحاول إنقاذها».

ـ «إنها هي من أغرقتها في البداية» قال متحمس.

ـ «لا، لقد رأيتها، لما سمعت صراخها اتجهت إليها تنتشلها».

ـ «وما شأنك أنت، لماذا تدافع عنها؟ كيف تعرف أن ذلك الشيء أنثى؟»

ـ «هل هذا زوجها؟ هذا هو الذي قتل امرأته بمساعدة ذلك المسخ».

ـ «نعم هو، لقد رأيت صورته على جروب شباب إسكندرية».

هنا فقدواْ اهتمامهم بها، وتحلقواْ حولي، أنا هالك لا محالة، فلم يكن مني إلا أن أسلمت ساقي للريح، وطارت تسنيم مبتعدة عن أتون الجماهير الغاضبة، مرتفعة عن القاع إلى المعالي.

قبل أن أصل إلى نهاية شارع (البيطاش) ورد إلى هاتفي اتصال من جنى أخت تسنيم، لم أرد، لكني فهمت أنه تم رفع الفيديو إلى صفحات (الفيس بوك)، ثم اتصال ثانٍ من أحمد عيسى، أجبته:

ـ «هل شاهدت فيديو جديد؟» بادرته.

ـ «قابلني الآن يا أسامة في حديقة المنشية».

***

ـ«أنت لم تخرج من ورطة حتى تدخل في أخرى؟» هكذا استقبلني أحمد، بوجه قلق متجهم.

ـ «ما اقتراحاتك للخروج من الأزمة؟»

ـ «لا بد أن يعرف الناس الحقيقة».

ـ «كيف؟»

وجه كاميرا هاتفه تجاهي، وبدأت تسجيل رسالة قصيرة، احترت في البدء ما

أقول، ثم رأيت أن أبدأ بتعريف نفسي، والتعريف بحالة تسنيم، وكيف وصلت إلى تلك الحالة، الفيديو القصير تحول إلى حوالي خمسة عشر دقيقة من الكلام المستمر، حتى أن أحمد عيسى أعجب من قدرتي على صياغة كل ذلك في حديث مباشر، ثم رفع الفيديو إلى مواقع التواصل.

*****

لصوص الضياء

فتح البراء فيديو طويلًا يظهر فيه أسامة المدني، يعرف فيه عن نفسه، وعن حالة زوجه، وكيف أنها كانت تحاول إنقاذ الفتاة، وكانت هناك ردود فعل واسعة على هذا الفيديو، ما بين متعاطف، ومتحامل، من يطلب الرحمة، ومن يطلب التخلص من المسخ وزوجها، ربما حقق هذا الفيديو -وقتها- الهدف المرجو منه. ثم فتح فيديو آخر مكتوب في وصفه:

«كذب أسامة المدني».

ويظهر الفيديو امرأة ترتدي حجابًا أحمر اللون، تجلس على أريكة مذهبة في منزلها، بجانبها فتاة صغيرة:

ـ «ابنتي نور الهدى بطلة سباحة، حصلت على المركز الثاني على مستوى الإسكندرية، وما حدث لها هي محاولة اختطاف من قبل أسامة المدني والكائن الذي يربيه؛ والذي يدعي أنه زوجه».

ـ «كنت ألعب على الشاطئ» قالت الفتاة الصغيرة «أبني قلعة من رمال، بأدوات البحر التي اشتراها لي بابا، مر بي رجل، وسألني هل أجيد السباحة فأخبرته أن نعم، فعرض علي المال لأمثل أني أغرق، في البداية رفضت لكنه زاد السعر، فقبلت وحصلت على نصف المال ووعدني بالباقي عندما أنهي الدور، نزلت إلى الماء، وتظاهرت بالغرق، حتى جاء العفريت الأسود الطائر وحاول

اختطاف ولكنني ضربته حتى هزمته، ولكنه رماني في الماء ليقتلني، وقد آلمني ظهري كثيرًا، ولم يعطني الرجل باقي المال».

ـ «عندما شاهدت نور فيديو أسامة المدني». قالت الأم: «تعرفت عليه ابنتي، وقالت إنه هو من حاول خطفها بإغوائها بالمال».

اتصلت بي تسنيم وطلبت مني أن أقابلها فوق سطح البناية التي أسكن فيها، انقضت عليّ كالصقر وحملتني، سارت بي مسافة طويلة تتمايل يمنة ويسرة وتتموج صعودًا ونزولًا حتى أصابني الدوار وكدت أتقيأ، استقرت فوق مئذنة مسجد شاهقة الارتفاع، أصبحت شديدة القوة، لقد حملتني بكل سهولة، وبدون إرادة مني، كنت أرى البحر من الأعلى، الهواء البارد يلفح وجهي، لكنه لم يفلح في تلطيف حرارة وجه تسنيم المتقد، ناشرة جناحيها غضبًا -وقد أولتني ظهرها- الهواء يموج الزغب على جناحيها:

ـ «حياتنا تنهار من حولنا؛ أنا سأعدم، وأنت يتخذونك فأر تجارب». لم يبد أنها تسمعني، تنفث النار من صدرها في كل زفرة «مواقع التواصل، والبرامج الحوارية التافهة؛ تشحن الرأي العام ضدك». استدارت لي تنظر في عيني فاستدركت: «كان لا بد أن أغير تلك الصورة في أذهان الناس».

ـ «بأن تعرض حياتي للخطر؟»

ـ «هل تعرفين أنهم أصدرواْ كتبًا مصورة عنك؟» نظرت غير فاهمة «بعد حادثة

الحريق، صدرت قصة عن المرأة الفراشة التي أنقذت طفلًا من الحريق، ثم لما لم يجدواْ أحداثًا أخرى حقيقية، بدأواْ في التأليف».

ـ «أصدرواْ قصة عن امرأة تنقذ فتاة من الغرق، وأنت أردت تنفيذها؟» قالتها بجبين مغضب، واضعة يديها في جنبيها.

ـ «فتى» صححت، تقعر في غير موضعه فتجاوزته «أردت أن أثبت في أذهان الناس، البطل الذي يقرأون عنه في القصص».

ـ «لكنك لم تحسب حسابًا لنوع المتلقي» انهمرت دمعة رسمت خطًّا على وجهها، مختفية داخل ركن فمها الأيمن: «ظننت أن الناس سيرون مسخًا طائرًا يختطف أبناءهم، ويقفزون فرحًا ويهللون باسمه؟»

ـ «فعلي خاطئ، لكن نيتي كانت الخير لك».

ـ«قل لي يا أسامة، هل كان الذهاب إلى الشاطئ كله مدبر من أجل ذلك؟ وليس للترفيه عني».

ـ «في تحسين صورتك خير رفاه».

جلست على أرض شرفة المئذنة -المليئة بالتراب الأسود- تنهنه، لن تفهمني أبدًا، الرجال يفعلون أشياء قاسية رفقًا بأحبائهم، منطق تعجز النساء عن فهمه، وضعت يدي على كتفها، أزاحتها بقوة و قفزت من المئذنة، انطلقت إلى السماء بسرعة لم أكن لأصدقها لولا أني رأيتها.

***

عاد أحمد عيسى من منطقة (السناهرة) في كفر الدوار، يصحبه سامر الأسيوطي، حاملًا الجوازين في جيبه، وصل إلى بيته قبيل صلاة الفجر، الشارع هادئ ومدخل البناية مظلم، ما إن دلف حتى شعر باثنين يحيطان به، لا يرى جيدًا في ذاك الظلام، ثم ظهر ثالث أمامه سأله:

ـ «هل أنت أحمد عيسى؟»

ـ «نعم، من أنتم؟»

ـ «الباشا معاون المباحث يريدك في القسم».

ـ «لماذا؟»

ـ «ستعرف هناك» واقتاده الجمع إلى سيارة الشرطة (البوكس) المرسيدس الحديثة؛ ذات اللونين الأبيض والبنفسجي، تحت نظرات الجيران الذي أطلَّواْ من النوافذ والشرفات، وآخر ما رآه قبل أن يدخل إلى السيارة، هي زوجُهُ مها، تفتح النافذة وتنظر إلى الشارع.

وردني اتصال من أبي عصر ذلك اليوم، يخبرني أنه تم القبض على أحمد، لم أفهم لماذا ولكن بعد ذلك وجدت الخبر منتشراً:

ـ «بتتبع العنوان الإلكتروني (آي بي)، للهاتف الذي أرسل منه الفيديو الخاص بأسامة المدني، وُجد أنه صدر من هاتف يملكه صديقه أحمد عيسى، وتم إلقاء القبض عليه؛ حتى يدل على مكانهما، وقد حاول الهرب، لكن رجال الشرطة استطاعواْ السيطرة عليه، وبعد تفتيشه وجدواْ معه جوازي سفر مزيفين

يحملان صورتي المجرمين أسامة المدني والمرأة الطائرة، التي حاولت خطف طفلين حتى الآن، وقد وجهت النيابة لأحمد عيسى تهمة التستر على مجرم هارب، ومساعدته للهرب خارج البلاد، وبمواجهته اعترف بالتهم المنسوبة إليه».

بالطبع لم يعترف أحمد بشيء، لكن من يحتاج إلى اعتراف؟ ضاعت فرصتنا في الهرب إلى الخارج، أن نعيش حياة طبيعية، أن يكون لأبنائنا أم -ككل الأمهات- بلا جناح، إلا جناحا الرحمة والأمان.

اتصلت بتسنيم كثيرًا لكنها لم تشأ أن تحادثني، ذهبت إلى منزل الحاج علي، ولكنها رفضت مقابلتي، حتى قرَأَت الخبر على الصفحات، فطلبت أن تقابلني، ذهبت إليها وخلوت بها فوق سطح البيت، وطلبت أن أدبر لها جراحة استئصال الجناحين؛ في مصر! شرحت لها أن ذلك صعب جدًّا، لكنها لم تقبل الرفض جوابًا، وعدتها أن أبذل جهدي، نظرت بعينين تملؤها التحدي، ثم تركتني وطارت. اتصلت بدكتور وديع وأخبرته بقرار تسنيم، واتصلت بدكتورة ألطاف وطلبت منها أن تساعدنا في التخلص من الجناحين، ترددت في البداية ولكن بعد تفكير قالت إن لها زميل جراح عظام مؤتمن، ستحاول اقناعه.

***

لم تعد تخشى الطيران، حتى وإن رآها الناس، فهي تستشعر قوتها يومًا بعد يوم، لمَ عليها أن تعاني؟ فلتستمتع بالهبة التي وهبها الله لها؛ مادامت تستطيع، ترى أعمدة الإنارة، تنعكس على ذلك الشارع المبتل بماء المطر، عامل بلدية متعلق بأحد الأعمدة، ربما يغير المصباح، كم هو عمل صعب لمن لا يملك أجنحة، اختلفت نظرتها للعالم كثيرًا، فرؤية الأشياء من أعلى تعطي لصاحبها حكمة، لكنها ترغب في التخلص من تلك الحكمة طمعًا في حياة لا تسمى فيها بالمسخ الطائر.

تامر دائمًا يعرف كل شيء، يدبر الأمور كلها فلا يترك لمؤمن فرصة للتفكير، وقد أقنع صديقه مؤمن -الذي لم يكد يُطلق سراحه منذ أيام- أن سرقة أعمدة الإنارة ذات اللوحات الشمسية فكرة جد رائعة، فكر بتمعن لمدة خمس وأربعون ثانية، حسب فيها كل الاحتمالات، ثم قرر أنه لا ضير، وها هو معلق على العمود الذي يرتفع سبعة أمتار عن الأرض، كان الوقت تخطى منتصف الليل، والدوريات في ذلك الشارع قليلة، وأي عابر لن يظن سوى أنهم عمال البلدية، يبدلون مصابيح الأعمدة، حتى الآن قد نهبواْ ثمانِ أعمدة، والآن يسطون على التاسع.

ـ «أسرع يا مؤمن». حثه تامر بصوت خفيض.

هز مؤمن رأسه، كان الهواء باردًا والأرض مبتلة من مطر، تنعكس عليها أضواء الكشافات، التي لم يسرقوها بعد، سيارة تمر من حين لآخر، تحدث إطاراتها صوت من أثر الماء، شعر فوق رأسه بلفحة هواء، نظر للأعلى فلم يجد شيئًا، عاد لعمله، ولكنه رأى ظلًا كبيرًا على الأرض، وشعر بهبة ريح أخرى جهة اليسار، بث شكوكه إلى تامر الذي نهره وحثه على الإسراع، بدأ يجهز البطاريات والألواح، ونزل أول درجة على السلم، صاح السائق هذه المرة حين لمح ظلًا كبيرًا يحوم فوق سيارته، راح تامر يسبهما وينهرهما لتعاطي المخدرات قبل الشغل، هنا صرخ مؤمن، نظرا إلى الأعلى، فرأيا شيئًا أسود يضرب رأسه.

ـ «يا الله! ما هذا؟» صاح تامر.

طارت تسنيم مرتفعة ونزلت ثانية باتجاه مؤمن، ترك ما في يديه يسقط محدثًا دويًا عاليًا، وبدأ ينزل على السلم مرتبكًا، أدار السائق السيارة ورفع العصا على أول ترس، لكن السيارة تتحرك ببطء، نسي عصا فرامل اليد مرفوعة، فأنزلها، كانت تسنيم فوق رأس الفتى تضربه، فسقط يصرخ، تحركت السيارة.

ـ «مؤمن» صرخ تامر.

سقط الفتى من شاهق على زجاج مقدم السيارة فتحطم، توقف السائق، وخرج من السيارة يركض، هرع تامر ينظر إلى إصابة مؤمن، كان يصرخ ويمسك بقدمه اليسرى، السائق يصرخ، نظر تامر إليه، وجد الطائر الأسطوري الضخم، ينقض عليه، ويرفعه في الهواء، ويعلقه على العمود من

ملابسه، ثم نزلت باتجاه تامر، جرى مبتعدًا يصرخ، طارت خلفه تضربه بجناحيها، راح يصرخ ويحاول دفعها بيديه، يناور يمينًا ويسارًا، عبر جزيرة وسط الطريق بهستيرية، يتعثر وينهض، هبط من فوق الرصيف العالي، وتسنيم تضربه وتحاول رفعه، لم ينتبه للسيارة المسرعة من الاتجاه المعاكس، صدمته، فطار في الهواء عدة أمتار، ضغط السائق الفرامل محدثًا صريراً:

ـ «ما هذا الشيطان؟» صاح قائد السيارة، وقد رأى مطاردة تسنيم لتامر، الدماء تنزل على وجه تامر، تسيل على عينيه التي رأى بهما الطائر الأسود يبتعد، قبل أن يغمضهما.

بعد أسبوع من حبسه، طمأننا المحامي أن الأدلة كلها ظرفية، وأنه يمكن – بقليل من الصرف- أن يخرج أحمد، أو يدفع غرامة دون السجن، دفع له الكفالة، وخرج على ذمة القضية على أن يلزم بيته طوال فترة التحقيق و أنه ممنوع من السفر.

قابلته بعد أن خرج، سألني عن تسنيم، فحكيت له ما حدث منذ قبض عليه، وعن اللصين اللذين ألقي القبض عليهما بمساعدتها، وأن ذلك رفع من أسهمها في الإعلام، وإن كان مقتل الثالث بعد أن صدمته سيارة مسرعة قد أثار حفيظة بعض الحقوقيين، لكنه لقى استحسان الأكثرية.

ـ «أدهم الشرقاوي الطائر».

ـ «أجل» قلت ضاحكاً.

ـ «وماذا ستفعلان في موضوع السفر؟»

ـ «بعد ضياع الباسبورات لم يكن أمامنا سوى أن نفكر في إجراء العملية محلياً».

ـ «ثُب إلى رشدك، لا يوجد هنا من يستطيع فعلها».

حكيت له كيف أن الطبيبة ألطاف تواصلت مع جراح عظام، وشرحت له الملابسات، وطلب أن يرى تسنيم، استطعنا تدبير لقاء في عيادة خاصة بها جهاز أشعة ، وتم إجراء التحاليل، طلبت حضور دكتور وديع العملية الجراحية، والتي ضرب لها جراح العظام موعدًا بعد عشرة أيام، سيتم إجراؤها في عيادة طبيب كُلَىَ يجري عملياته في العيادة، الإمكانيات متواضعة، لكنه أفضل المتاح.

ـ «أسأل الله أن تنجح العملية، وتخرج تسنيم سالمة» أمنت على دعائه.

كنا نسير بالقرب من محطة قطار سيدي جابر، عندما وقعت عينا أحمد على قصة مصورة جديدة عند بائع الجرائد:

ـ «انظر». نبهني.

اقتربت من حامل الكتب الحديدي، وتحت العنوان الثابت لسلسلة القصص المصورة (المرأة الفراشة)، قرأت العنوان:

ـ«قاهرة لصوص الضياء».

*****

أطلس

يوم العملية!

كان لا بُدَّ من الاستعداد قبلها، وأهم شيء على الإطلاق؛ هو الأطفال الثلاث، عمرهم لم يتخطى العام بعد، علينا أن نتركهم مع من يتدبر أمرهم طوال فترة نقاهة تسنيم، والتي قد تطول، من الصعب ترك الرضع الثلاث كلهم عند أم هالة، فيكفي ما تحملواْ في سبيل ذلك، استقر الرأي على أن نترك كل طفل عند أسرة، عليّ الدين ترعاه أم تسنيم وأختها، وحسام الدين استودعته أمي التي لم أرها منذ أشهر، ونور الدين ترعاه هالة ابنة الرجل الطيب الأسطى علي.

اصطحبت الأم المكلومة إلى العيادة، التي تقبع في شارع جميلة بو حريد بمنطقة السيوف، كان في انتظارنا دكتورة ألطاف، عرفتنا بجراح العظام ومساعده، وطبعًا طبيب التخدير دكتور سامي أمين، ونفس الممرضة التي كانت في ولادة تسنيم ومعها أخرى، وقع نظري على الأجهزة الموجودة في غرفة العمليات البسيطة، والتي أرى أنها غير مجهزة لذلك النوع من العمليات.

ـ «لقد أتعبني نقل كل تلك الأجهزة إلى هنا» قال الجراح الذي لاحظ نظرتي إلى المناشير والمثاقيب، والمطارق وغيرها من أدوات جراحات العظام المفزعة.

ـ «هل العملية مأمونة؟» سألته.

ـ «سنبذل جميعًا قصارى جهدنا، حتى تخرج تسنيم سليمة معافاة».

ـ «أرجوك يا دكتور، إن رأيت نسبة واحد بالمائة خطورة على تسنيم، أن تلغي العملية».

ـ «لا تقلق يا أستاذ أسامة، كلنا محترفون ونعي ما نفعل جيدًا».

بينما نحن نتكلم إذ دخل دكتور وديع، والذي وفى بوعده وأتى لحضور الجراحة، مما زاد اطمئناني.

ذهبت إلى تسنيم، لم أقل لها شيئًا، فقط قبلتها، نظرت إليَّ نظرة كأنها الوداع، ودخلت تقودها الممرضة ودكتورة ألطاف، لم تطلب هذه المرة أن أصحبها إلى الداخل، فكل يوم يمر يزداد الجفاء بيننا، كأني أنا المسئول عن حالتها.

انتظرت بالخارج وحدي، الطاقم بالداخل بملابسهم الزرقاء، يقومون بمهمة تقطيع جسد حبيبتي، أفكر كيف تكون شكل الأيام القادمة؟ مضت حوالي نصف الساعة شاردًا، سمعت صوت المنشار الكهربي، ثم سمعت جلبة من الداخل، وصوت جراح العظام يقول:

ـ «التخدير لم يفلح يا دكتور سامي»

صوت إحدى الممرضتين تصيح:

ـ «يا الله»!

صوت تسنيم تصرخ صرخة ألم مدوية، سقوط أدوات معدنية، تكسر زجاجات، صياح ألطاف:

ـ «افعلواْ شيئًا».

صرخات تسنيم تزداد، الباب ينفتح وتخرج إحدى الممرضتين تبكي، والدكتورة ألطاف خلفها تبسمل وتسأل الله السلامة، رأيت تسنيم في الداخل تصرخ وترفس بأطرافها الستة، وقد سقطت من على السرير والدم يغرق جناحها الأيسر، دخلت إلى الغرفة، الأطباء الثلاثة والممرضة الباقية يحاولون السيطرة عليها.

ـ «تسنيم».

صحت بها، لم ترد، تبدو وكأنها سَكْرَى، هي مخدرة لكن التخدير لم يكن كافيًا أن يبعد الألم عن طرفيها الجديدين، والذي لم يتعامل معه طبيب التخدير من قبل، لم تشعر بالمشرط في البدء، ولكن عندما بدأ يقطع العظام بالمنشار؛ أحست بالألم، لم تفق كلية لكنها كالثمل الذي يترنح من الألم، فشلت محاولات الجميع في الإمساك بها، حاول دكتور سامي حقنها بمخدر لتهدأ، لكنه لم يستطع لذلك سبيلًا، حتى كادت الحقنة تنغرس فيَّ:

«تسنيم، اسمعيني». ناديتها وأنا أحاول إمساكها، لكن الألم أكبر من أن يتم السيطرة عليه، هي كالنسر الجريح الذي لا يمكن الاقتراب منه حتى لإسعافه

ـ «اهدئي يا حبي، أنا زوجك أسامة» هياجها يزداد.

ـ «حاول ثانية يا أسامة» قال دكتور وديع.

نهضت تسنيم على قدميها، وراحت تدور حول نفسها فاردة جناحيها تضرب كل شيء حولها، لطمت دكتور وديع بجناحها على وجهه، وضربتني على

جذعي فسقطت أرضًا منزلقًا على الدماء التي ملأت الأرض، جناح تسنيم هو كتلة عضلية صافية، بطرفه حطمت زجاج نافذة الغرفة ذات الإطار الألومنيوم، حشرت جسدها بسهولة وسقطت من النافذة، نظرت من النافذة وجدتها لا تطير بل تسقط، وتحاول أن ترتفع وتصدم منشر غسيل، ثم مظلة على شرفة، تحاول أن تتزن بجناحيها، ثم تسقط على الأرض، توقفت سيارة فجأة، فاصطدمت بها أخرى من الخلف.

في البدء لم يفهم الجميع ما حدث، ثم رأواْ أن الساقط هو امرأة لها طرفان مخضبان بالدماء، توقفت المركبات بشتى أشكالها، التف حولها المارة، كان يبدو أنها ميتة، الجميع يخاف لمسها، عرف البعض أنها هي من تظهر في الفيديوهات، ولكن هذه أول مرة يرون وجهها، بل وأول مرة يعرف البعض أن الكائن الطائر امرأة بشرية، فتحت عينيها، ففزع الواقفون، وبدأت تضرب بجناحيها الأرض، أخذْتُ ثوبها الأسود، وهبطت مسرعًا، أقفز خمس درجات مرة واحدة، حين وصلت الشارع المزدحم، كانت تضرب الناس حولها، لا زالت هائجة لا تعي ما يحدث حولها، حاول المتحمسون السيطرة عليها، توقف ضابط بدراجته النارية (الياماها) البيضاء لما رأى الهرج، اقترب يسأل عما هنالك، هرعت نحو تسنيم، ألقِ عليها الثوب استرها، زاد هياجها وألقته عنها، هجم عليها الرجال يحاولون تقييدها، صرخت فيهم أن اتركوها، فابتعدواْ، سألني الضابط إن كنت أعرفها، فقلت له: إنها زوجي، فقال لي:

ـ «سيطر عليها، وتعاليا معي إلى القسم».

هنا راحت تركض فركضت خلفها، عاد الضابط لدراجته وانطلق خلفها، دخلت شارعًا جانبيًا ضيقًا، كانت تقفز وترفرف بجناحيها قليلًا، ولكن ما إن يزداد عليها ألم القطع حتى تصرخ وتسقط على قدميها أرضًا، النساء تنظرن من الشرفات ويصحن رعبًا، الجرح في منبت جناحها الأيسر عند الكتف غائر واضح، الدماء لا تكف عن النزف، يصدر من تسنيم خوار ليس من عالمنا يهز القلوب، أحاول اللحاق بها، لكن رغم إصابتها إلا أنها كانت أسرع مني، اللعنة على الهواتف الذكية، الجميع يصور وكأنها فقرة في السيرك، بدأت تخور قواها.

ـ «تسنيم» لم يبد أنها سمعت «أنا أسامة يا تسنيم» توقفت منهكة، تَعُبُّ الهواء، يخرج من فمها بخار كثيف، اقتربت منها بحذر ملطخ بدمائها، الشباب المتحمس يمسكون بالعصي والمدي.

ـ «اطمئني يا تسنيمي، أنا حبيبك أسامة».

نظرت لي، غير فاهمة، وبعد برهة، نظرت حولها كأنها أفاقت من النوم لتوها.

ـ «أسامة» قالتها ثم لم تحملها قدماها فترنحت، أمسكتها قبل أن تسقط أرضًا، وضعت عليها الثوب، الشارع الضيق به الكثير من مركبات (التوك توك)، حاولت إقناع أحدهم أن يقلنا، لكنهم كانواْ يهربون منا، فتى يافع -لا يتخطى الثالثة عشرة- توقف لنا طواعية وعرض أن يقلنا، دفعت تسنيم وقفزت

خلفها، كان الضابط دخل أول الشارع.

ـ «حاول أن تفلته يا بني».

صحتُ بالطفل، ظل يناور ويدخل أزقة ويخرج منها، حتى فقد أثرنا، وبعد أن صرنا في أحد الشوارع الرئيسية، نزلنا وقد امتلأ (التوك توك) دمًا، رفض الفتى المقدام أن يأخذ نقودًا، استقللنا سيارة أجرة إلى شقتي المؤجرة.

وسط كل ذلك الحزن، أتاني أحمد عيسى بخبر طيب، المحامي يقول إنه يمكنه أن يخرجه من القضية، سيعطي المسئول عن حفظ الأدلة مبلغًا ماليًا -كبيراً- وسيبدل جوازي السفر المزيفين، بجوازي سفر أحمد وزوجه، «وأيضًا سأتمكن من استعادة الجوازين، يمكنني السفر رغم كل شيء.

ذهبت في اليوم التالي إلى بيت أبي لآخذ حسام الدين، اتصلت بهم كثيرًا أثناء الطريق، لكن لا رد، اقتربت من البناية، رأيت قربها أمين شرطة وفردي مباحث بلباس مدني -واضحين للعيان- الجو لم يكن مطمئنًا، عدت بظهري مبتعدًا عن مجال أنظارهم، اتصلت بأبي لم يرد، وأثناء اتصالي به وردني اتصال من أخت تسنيم جنى.

ـ «أسامة، نحن في مشكلة كبيرة».

ـ «ماذا حدث؟»

ـ «داليا أختك اتصلت بي، قالت إن قوة شرطة تقتحم البيت الآن، وأنهم يسألون عنك وعن تسنيم».

ـ «متى كان هذا؟»

ـ «منذ حوالي عشرين دقيقة، كانت تبكي، ويبدو أنهم كانواْ يفتشون البيت بينما هي تكلمني، ولقد أخذواْ أباك ومعه حسام الدين، ويبدو أنهم أخذواْ جميع الهواتف».

ـ «حسام الدين معهم؟»

«نعم، وقد أتواْ إلينا قبل دقائق، سألواْ عنكما، وفتشواْ البيت».

ـ «أأخذواْ نور الدين؟» .

ـ «من عندنا عليٍّ الدين وليس نور الدين».

ـ «المهم هل أخذوه؟»

ـ «أمي أمرتني قبلها أن أستودعه جارتنا».

ـ «اتركيه عند الجيران يا جنى، فلربما يعودون ثانية، وانتظري مني مكالمة».

حاولت الاتصال بوالدي، هاتفه غير متاح، وكذلك أمي وإخوتي، اتصلت بمحامي والدي، الذي أعاد الاتصال بي بعد أكثر من ساعة، علم أن والدي في مديرية الأمن بسموحة، وهو ذاهب إليه الآن، يبدو أن القبض علينا أصبح الأولوية الأولى للجهاز الأمني، القضاء علينا هو مطلب شعبي، لا بُدَّ أن أعيد تسنيم إلى رعاية هالة وأمها، فالأيام القادمة حبلى -كما الفائتة- بالآلام، وسأكون مشغولًا جدًّا، يجب أن أعيد أبي وأبنائي، وربما أسلم نفسي.

وصلت تسنيم إلى وادي القمر بقايا إنسان، بكت أم هالة لما رأتها، وبكت

الطفلة الصغيرة بدورها، نور الدين يفتقد أمه، احتضنته وألقمته ثديها، رفض في البدء محتجًا، لكن مع بكائها واعتذارها قَبِلَ هبة الله له.

ـ «أريد أبنائي يا أسامة».

ـ «هم يريدوننا أن نسلم أنفسنا، حسنًا سأسلم نفسي دونك، وأطلق سراح عليّ الدين من أيدي المجرمين خاطفي الأطفال، وأتأكد أن يحضره والدي إليك».

بكت تسنيم كثيرًا حتى كاد قلبي ينفطر.

ـ «كفي عن البكاء يا ابنتي حتى لا يتعكر لبنك». قالتها أم هالة ودموعها لم تجف، ولأول مرة تنهمر مني دمعة منذ بدأت محنتنا، دموع قهر الرجال، صارعنا الحياة فصرعتنا، ودعت تسنيم وابني، شكرت الأسرة الكريمة، اتصلت بالمحامي وعرفته أني سأسلم نفسي وأريده أن يكون معي، واتفقنا على اللقاء أمام المديرية.

انتظرته خارج المديرية، كان سبقني إلى هناك، وطلب مني ألا أدخل حتى يتصل بي، بعد أكثر من ساعتي انتظار، وجدته خارجًا يصحب والدي، ولكن ليس معهم ابني حسام الدين، سألته عنه، ظهرت نظرة عجز في عيني أبي، ولم يجد من الكلمات ما يرد به علي، رد المحامي بأنه تم إيداعه دار رعاية، لأنهم يرون في وجوده مع مسخ طائر، وأب قاتل خطر عليه، وربما هو مخطوف.

ـ «ما هذا الهراء، سأدخل الآن لأسلم نفسي، وتعيده إلى أمه يا أبي».

انطلقت أعبر الشارع لولا أن أمسك والدي بساعدي بقوة:

ـ «انتظر يا أسامة» لِنْتُ في يدِه «تسليمك لن يفيد، مما رأيته، الموضوع أصبح قضية عامة يهتم بها النائب العام، سيُنكلون بك وبزوجك، ولن ترى أبناءك ثانية».

قابلت أحمد عيسى، وطلبت منه أن يذهب إلى الدار التي يحتجزون بها حسام الدين، ليس لرؤية الولد، ولكن ليعرف مداخل الدار ومخارجها، وأين ينام الرضع، مهمة استخباراتية في المقام الأول.

اتصلت بجنى لآخذ عليّ الدين منها، هو لا يزال عند جيرانهم منذ الأمس، خروج جنى من البيت بالولد خطر، لأنهم يربضون أمام البناية وسيعرفون أنه أحد أبنائي إذا ما رأوه مع جنى، كانت الخطة تقتضي، أن تخرج الجارة بالولد وتقابلني في شارع بعيد عن شارعهم، وقد ذهبت لملاقاتها.

جهزت الجارة العجوز نفسها للقيام بمهمتها النبيلة، لأكثر من نصف ساعة أنتظر في المكان المتفق عليه في شارع خالد بن الوليد، انتظرت اتصالًا من المرأة، لكنه تأخر كثيرًا، اتصلت بجنى، أخبرتني أنها غادرت منذ ما يقرب من الساعة، واستمهلتني ريثما تتصل بها لتقف على مكانها، بعد دقائق اتصلت بي، وقالت أنها لا تجيب على الهاتف، تسرب القلق إلى نفسي، ألححت على جنى ألا تمل من محاولة الوصول إليها، بعد حوالي النصف ساعة، قالت تسنيم أنها ردت وقالت أنها في الطريق، ولكن في صوتها تلعثم واضح على حد وصف جنى، ولكن أم تسنيم أخذت الهاتف، وحاصرتها في الكلام حتى اعترفت بخطتها،

لقد علمت الجارة حالة تسنيم، وقد لاحظت ورمين عند كتفي الرضيع يؤلمانه عند الضغط عليهما، ففهمت أنه ورث تشوه أمه، وتريد أن تخلص الطفل من تلك الأم المسخ، ومن آلامه، وهي الآن تقترب من مستشفى الأميري لتسلمه لهم، وحاولت إقناع أم تنسيم بأن ذلك لصالح حفيدها.

لم أنتظر بقية المكالمة، فلقد قفزت قفزًا في سيارة أجرة، متجهًا إلى المشفى، كان الطريق مزدحمًا جدًّا، لا بُدَّ أنها وصلت الآن وسلمت ابني لأولئك الأنذال، ظللت أحث السائق على إسراع الخطى:

ـ «العربة ليس لها أجنحة أطير بها يا أستاذ».

نعم، كم أنت محق، ما أحوجني لذات الأجنحة الآن، لكنها كسيرة، ولا أريد أن أمزق قلبها فرقًا على رضيعها الثاني، وصلت المشفى بعد أكثر من ساعة، لا أعرف أين أبحث، ولا أعرف شكل المرأة، فقط أعرف ابني، لكنه رضيع يتشابه كثيرًا مع أغلب الرضع الآخرين، سألت عن قسم الأطفال، دلتني عليه عاملة عظيمة الجثة، رحت أنهب طرقات المستشفى نهبًا، أنظر لكل امرأة كبيرة تحمل طفلًا، حتى ظن الناس بي الظنون، ولكني لا أجد لها سبيلًا، قلبي يؤلمني كما لم يؤلم من قبل.

وقفت العجوز أمام الطبيب تحاول إخباره بحالته، لكنها تجابنت، حتى ظن الرجل أنها خرساء، ثم أجفلا لظهوري المفاجئ، أنتزع الطفل من بين يدي الطبيب، ثم أنهب طرقات المشفى نهباً.

ـ«تمهل يا أبو علي، اسمعني أنا كوالدتك».

لم أنتظر منها مزيدًا من الكلام وانصرفت، سمعتها من خلفي تدندن بدعاء لي ولأبنائي، ليست امرأة سيئة رغم كل شيء، لكنها طبيعة النساء الأطلسية؛ يحملون العالم فوق رؤوسهم.

طفل آخر عاد إلى حضن أمه، بقي حسام الدين، وأمره عسير، فهو في يد السلطات أسير.

أرسلت صور الجوازات إلى دكتور وديع، الذي أرسلها بدوره إلى دكتور (بوسلاف)، ونحن الآن في انتظار التأشيرة، مما يعطيني وقتًا للتفكير في كيفية تخليص ابني، الحمد لله أحمد خرج من القضية، وزار دار الرعاية، هي جمعية خيرية من أربعة طوابق، طابقين بهما إدارة الجمعية ومستوصف طبي، ودار الأيتام تحتل الطابقين الأخيرين، هناك بوابة حديدية أسفل البناية تغلق ليلًا الساعة الثانية عشرة، وباب خاص بطابقي الدار، يغلق العاشرة مساءً، سألته عن أفضل طريقة للهروب في رأيه، وكان لديه خطة اعترضت عليها بشدة في البداية، ولكن لم نهتدِ إلى حل آخر.

ذهبنا قبل ميعاد إغلاق الباب بحوالي ساعة، توقف أحمد بالقرب من البناية، اتجهت ناحية الدار، وانتظرت تسنيم في السيارة، تقبع الدار في مدينة (الأندلس والحجاز)؛ المعروفة باسم مدينة (فيصل) في منطقة (سيدي بشر)، المكان صاخب على مدار الساعة، لا ينام أبدًا، دخلت المستوصف الطبي، سألتني

موظفة الاستقبال عن التخصص الذي أريد، أول ما تبادر إلى ذهني الأسنان، مما يتيح لي أكبر وقت انتظار، طلبت مني قطع تذكرة، ثم دخلت، المكان ساخن جدًّا، مئات الأمتار المكعبة من ثاني أكسيد الكربون المشبع ببخار الماء؛ يضخ في المكان من صدور الزائرين، كنت في الطابق الثاني، خرجت إلى الممر الذي فيه الحمامات، ورأيت السلم الذي يصعد إلى الدار، يجلس عليه بعض النساء اللائي لم يجدن مكانًا على المقاعد الحديدية الباردة في الداخل، فكرت في حيلة أصعد بها إلى أعلى، لكني وجدت أنني لا أحتاج إلى أي حيلة، لا أحد يسأل أحد هنا عن وجهته، فقط قلت:

ـ «بعد إذنكن».

أفسحن لي فسحة ضئيلة تكفي لوضع قدمي، وصعدت إلى الأعلى. الدار جميلة حقًا، ليست كالمستوصف بالأسفل، صوت لعب الأطفال مبهج، على عكس صوت أنين المرضى في المستوصف، إحدى النساء العاملات استوقفتني:

ـ«هل تريد شيئًا؟»

لم أعرف بمَ أرد، فكرت أن أضربها على رأسها لتفقد الوعي، لكني وجدت أنه حل غير مناسب:

ـ«أبحث عن المشرفة الإجتماعية». ارتجلت.

ـ«موعد الزيارة ينتهي الخامسة مساءً».

ـ«معي تبرعات جمعتها من أهل منطقتي، أريد توصيلها».

كانت تلك كلمة السر:

ـ«انتظر هنا حتى أخبر المديرة».

كانت هذه هي الفرصة التي أردت، بحثت عن مكان أختبئ فيه، مررت على غرف الأطفال، كانت المشرفات يحثونهم على النوم، رأتني عدة مشرفات، لكنهن لم يعبأن بوجودي، فمن المؤكد أني دخلت بإذن من المديرة، أو ربما أكون مراقبًا من الشئون الاجتماعية، أو أي مسمى من هذا القبيل، عرجت على غرفة بها الأطفال الرضع، ربما أقل من سنتين، بحثت بعيني عن ولدي، كل الأطفال يتشابهون، وجدته في أحد الأركان يلعب، لم أجده حزينًا أو يفتقد شيئًا، يحبو وفي يده لعبة مطاطية، جلس وظل يضربها بالأرض وهو يصرخ، وقعت عيناه في عيني، ابتسم، أتى نحوي يحث الحبو، كأنه قط يهرع إلى من يحمل الطعام، استوقفه أطفال يلعبون، فانشغل عن هدفه وذهب إليهم، هكذا هم الأطفال، لا يركزون طويلًا على شيء، ما، انحدرت دمعة من عيني، تركته وقلبي معلق به، أكاد أخطفه الآن، لكني صبرت.

وجدت غرفة الزيارات مفتوحة، مساحة كبيرة أشبه بغرفة معيشة واسعة، بها مجالس مريحة، وشاشة تلفاز كبيرة، أرضيتها خشبية، هي مكان يلتقي فيه أصحاب الصدقات والمساعدات بالأطفال، يلعبون معهم، يمنحونهم هدايا، وبعضًا من وقتهم؛ والذي يحتاج إليه هؤلاء الأطفال -ويحتاج إليهم الزائرون- كانت الأضواء مطفأة ولا أحد بالداخل، بقعة مناسبة للاختباء، مكان واسع

لا يدخله أحد ليلًا، اتجهت إلى أبعد ركن عن الباب، وجلست على الأرض خلف إحدى الأرائك، كانت الساعة العاشرة إلا الربع، بضع دقائق ويُغلق الباب، وينام الجميع، سمعت حديث العاملة مع المديرة:

ـ«كان هنا منذ بضع دقائق»

ـ«هل قال اسمه؟»

ـ«لا، فقط طلب مقابلتك بشأن التبرعات».

ـ«لا بأس مؤكد أنه سيعود غدًا، أنا ذاهبة الآن وأغلقي الباب خلفي مباشرة».

سمعت صوت إغلاق الباب، وبدأت المشرفات يصحن في الأطفال ليناموا، ساد الهدوء رويدًا رويدًا، انتظرت نصف ساعة، الضجيج هدأ في طابق المستوصف، وسمعت صوت إغلاق باب البناية الحديدي، خرجت من مخبئي، فتحت الباب بحذر، لم يكن هناك أحد في الممر، تحَرَكْتُ بخفة، بين الغرف أبحث عن غرفة الصغار الرضع، كان الطابق السفلي يحوي غرف الأولاد، والطابق العلوي لغرف البنات، ويبدو أن غرف الرضع بالأعلى، صعدت السلم، رأيت إحدى العاملات تجلس على كرسي ساهرة، يبدو أنها تراقب الممر، حتى لا يصعد أحد الأولاد؛ أو تنزل إحدى الفتيات، كادت تراني، ظللت مختفيًا خلف الدرابزين، حتى قامت المرأة، ربما تذهب إلى الحمام، تسللت كقط يعمد إلى فريسته، كان الممر مظلمًا إلا من ضوء خفيف (سَهَّارِي)، الوقت يداهمني، عليّ أن أجد حسام الدين قبل أن تعود المرأة، أو تصحو

مشرفة، بعثت رسالة إلى أحمد حتى تستعد تسنيم.

لم تندمل جراحها بعد، سواءً جرح جناحها أو جرح قلبها، تحاملت وخرجت من السيارة، كان المكان لا يزال مزدحمًا، رغم انتصاف الليل، كيف يمكن أن تطير وسط مئات المراقبين، دار أحمد حول المكان؛ يبحث عن بقعة مناسبة، وجد ممرًا بين الجمعية وظهر بناية سكنية، أخبر تسنيم عنه، وقفت بين البنايتين، وأحمد يقف عند رأس الممر حتى يتأكد من أن أحدًا لن يقاطعها، انتظرت إشارته، تلفت يمنة ويسرة مدة، ثم أومأ أن ابدئي، رفرفت جناحيها، صرخت فوضعت يدها على فمها تكتم صرختها، كان الألم لا يمكن تحمله، رغم أنها أخذت كمية كبيرة من المسكنات، حاولت ثانية ولم تستطع أن ترتفع سوى بضعة أذرع، وعادت ثانية إلى الأرض، نظر أحمد إلى أعلى:

ـ «ربما لا يمكنك مغادرة الأرض، لكن يمكنك الهبوط من أعلى». نظرت إلى أعلى، ثم استطرد: «لا، لا أظنها فكرة سديدة».

ـ«بالعكس أنت محق، هذا ما سأفعله، ثم إنه سيوفر لي تغطية عن أعين الناس، فمن الصعب أن يلحظواْ من يحلق من أعلى في ذلك الوقت المتأخر».

ندم على اقتراحه:

ـ«لا تفعلي، هذا خطر جدًّا وأنت في حالتك».

ـ«فقط جهز السيارة، واستعد للانطلاق».

وذهبت تبحث عن باب العمارة لتصعد إلى الأعلى.

بعد دخولي عدة غرف خاطئة، وصلت إلى غرفة الرضع، كانت مظلمة فلا يمكنني أن أميز حسام الدين، أضأت كشاف الموبايل، ورحت أجول بين الأسرة، أحد الأطفال كان مستيقظًا، نظر إليَّ وضحك وقام واقفًا في سريره، أشرت له أن ينام، لكنه ظن أني ألاعبه، ظللت أبحث عن حسام الدين، حتى يئست أن أجده، هممت أن أخرج لكي أبحث عن غرفة أخرى، شعرت بمن يتبعني، نظرت خلفي فزعًا، فلم أجد أحدًا، سمعت صوت ضحكة، نظرت إلى الأسفل، وجدت الطفل الذي قام في ذيلي، حملته، فضحك بصوت عالٍ، أصمته «ششششش» وبحثت عن سريره، حتى وجدته، وأنا أضعه فيه لمحته؛ حسام الدين نائمًا على بطنه، فلم يظهر وجهه في المرة الأولى التي بحثت فيها، لكنني وجدته الآن، حملته وخرجت به مسرعًا، كان مكان العاملة لا يزال فارغًا، انطلقت باتجاه السلم الصاعد إلى السطح، لمحت الطفل المشاغب يخرج من الغرفة يبحث عني، صعدت بسرعة، وصلت إلى باب السطح، ويا للطامة! لقد كان مغلقًا بباب ذي قضبان حديدية، أرى السطح لكن لا يمكنني الخروج إليه، سمعت صوتًا من الأسفل:

ـ«أم إسلام، ماذا يفعل هذا الطفل عند سلم السطح؟»

ـ «أنا آسفة، كنت في الحمام، لدي إمساك».

خشيت أن تراني، فاختبأت بحسام الدين، رأيت تسنيم تهبط على السطح من علٍ، ولكنها سقطت تتألم، والدماء تنزف منها، صحت:

ـ«تسنيم».

ـ«من بالأعلى؟» كان هذا صوت العاملة التي نادت على الخفير «عم عبد المحسن».

عليَّ أن أخرج من ذلك الباب قبل أن يأتي الخفير، ناديت تسنيم:

ـ«لا بأس عليك حبيبتي، اقتربي من الباب».

تحاملت وأتت إليَّ تتألم والدماء لا تتوقف «اسمعي، الباب مغلق، لكن القضبان تتسع لإخراج حسام، خذيه مني، وحاولي أن تهبطي به، المسافة قليلة وهو خفيف الوزن».

ـ «سأضع حسام الدين في السيارة وأعود إليك».

ـ«لا وقت اذهبي، ولا تنتظروني، قولي لأحمد أن يذهب بكما إلى وادي القمر».

ـ«من بالأعلى» كان هذا صوت الخفير.

ـ«لا وقت يا تسنيم اذهبي الآن».

جرت مبتعدة، وقفت فوق السور، ثم فردت جناحيها، الطفل بين يديها -لم يصحو بعد- وطارت هابطة، سمعت إحداهن في شرفة البناية المقابلة تصيح:

ـ«عمرو انظر، هناك شيء ضخم يطير فوق دار الأيتام».

رجوت الله أن ينطلق أحمد بقلبَيَّ سريعًا.

ـ «من بالأعلى؟ أنا أحذرك، انزل إليَّ أو أصعد إليك».

سمعت صوت خطواته يصعد الدرج، مددت يدي من بين القضبان، وأخذت

قالباً من الطوب الأحمر كان على السطح، ورحت أضرب القفل.

ـ«من هناك؟»

الطوب الأحمر طري، يتفتت وأنا أضرب القفل، لكن بعد عدة ضربات انهار القفل الصدئ، فتحت الباب وخرجت، رحت أبحث عن مواسير أهبط عليها، لكنها كانت بعيدة عن السور، لكنني تسلقت هبوطًا على كل حال.

ـ«أمسكتك». ظهر الخفير العجوز يطل برأسه من السور، لم أستطع أن أصل إلى الماسورة، ظللت معلقًا أخشى أن أهبط فأسقط، أو أن أصعد فيمسكني الرجل، نظرت رأيت سيارة أحمد لا تزال متوقفة، لماذا لم يرحل بهما؟

ـ «يا حمادة، يا مازن، اصعدا إلى السطح، هناك حرامي».

سمعت ألفاظًا نابية من شباب في الشارع، وانطلقا يصعدان، ومعهم جمع غاضب، إن أمسكواْ بي انتهى أمري، وحتى نزولي لن يخرجني من ذلك الحصار، لم أقاوم؛ تركتهم يمسكونني، وراح كل متحمس يضربني ويسبني، سألواْ إحدى المشرفات -اللائي كن يشاهدن باستمتاع ضربي- من خطفت؟ في البداية نفواْ افتقادهم لأحد الأطفال، ثم ما لبثت أن صاحت إحدى العاملات: «الطفل الجديد مختفٍ».

صحا البنات والأولاد في الطابقين فزعين، والمشرفات تطمئنهم، جاءت أم إسلام تهرول وتولول:

ـ «لقد أعطاه لزميل له كان فوق السطح، لقد سمعته يكلم أحدًا».

ـ «إنه ابني يا جماعة» صحت وسط الضرب، وقد صار كل جزء في جسدي يشخب دمًا، ووجهي لم يعد تبدو له ملامح حتى يتعرف أحدهم عليَّ.

ـ«أنت إذًا أبوه القاتل لزوجك». قالت مشرفة الدار.

ـ «لقد رأيت المسخ الطائر منذ قليل، يحمل الطفل هابطًا من فوق الملجأ». أضاف أحدهم.

من على بعد رأيت سيارة شرطة أضواؤها الزرقاء تملأ المكان، وصوت سارينة مزعج، وبينما أنا أهيئ نفسي للسجن، اقتحمت سيارة الجمع حتى هرب أمامها الحشد، كانت سيارة أحمد، صدم بعض المحتشدين الذي تجمعواْ على السيارة، فتحت تسنيم باب السيارة، وأخرجت عصا قفل (الدركسيون)، ضربت بها اليد التي تمسكني من كتفي فأفلتني، جريت أصعد إلى السيارة، أمسك أحدهم بقدمي -صوت حسام يبكي- جذبتني تسنيم، تمسك بي آخر ثم ثالث، فمدت تسنيم جناحها الأيمن خارج السيارة فهلع الناس وصرخواْ وتركوني، كانت سيارة الشرطة قد وصلت، انطلق أحمد، ولم يستطع أحد اللحاق بنا، نظرت للخلف، رأيت سيارة الشرطة متوقفة لا تتحرك، بعد أن ابتعدنا بدأت الحركة، لكننا كنا خرجنا من المدينة، ونجونا من تلك المذبحة.

*****

وصلتنا التأشيرة الإلكترونية، وقد أصبحنا أكثر الأشخاص المطلوبين في القُطر، لقد اتهمنا بقتل تسنيم، ومحاولة قتل طفلين، وخطف آخر، بالكاد التأمت جراحي بعد (العلقة)، والتأمت جراح تسنيم لكنها لا تزال واهنة، الأطفال في كنفنا الآن، سنوزعهم بين أمي وأمها، حسام الدين ونور الدين سيكونان في رعاية أم تسنيم، وعليَّ الدين سيكون عند أمي، تدبر لي والدي ثمن التذكرتين، حددت الموعد بعد ثلاثة أيام فقط من وصول التأشيرة، اعترضت تسنيم، لكن لم يكن لنا بُدٌّ من الرحيل؛ فالبقاء هلاك، كانت تريد أن تجهز نفسها وتودع أمها وأختها، فالله يعلم متى سنعود، لكن الوداع ترف لا نملكه، طلبنا من أمها وأختها أن تأتيا إلى بيت الأسطى علي في وادي القمر لوداعها، وذهبت أنا أودع أبي وأمي وإخوتي، في مكان عام بعيدًا عن البيت.

ـ«لا تتردد في أن تكمل حياتك بالخارج يا بني». قال أبي: «لا تهتم بنا، فقط اهتم بزوجك وأبنائك».

كان هذا آخر ما قاله، احتضنتني أمي طويلًا تبكي، قبلت يدها لأول مرة في حياتي، غريب ما يندم عليه الإنسان عند قرب فقده، ليتني كنت أقبل يدها – وأبي– كل يوم، لكني لم أفعل إلا بعد أن أوشكت على فراقهما.

قبل السفر بيوم، وبينما أنا وتسنيم نحفظ أسماءنا الجديدة في جوازي السفر، اتصل بي دكتور وديع، وقال لي إن السفر بتأشيرة علاج ينبغي أن نستخرج له تصريحًا من مديرية الشئون الصحية بالقاهرة، تبًا ينبغي إذًا أن أسافر باكرًا لاستخراج التصريح، المشكلة أنه لا يمكنني الذهاب بتسنيم، والتحرك بها طوال اليوم في القاهرة العامرة، ثم نذهب ليلًا إلى المطار، موعد الطائرة الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ـ«اذهب أنت صباحًا وأنا سأوصلها في طريقي» اقترح الأسطى عليّ «لديَّ نقلة إلى بني سويف وسأمر على القاهرة».

ـ«لا أظنها فكرة جيدة».

ـ«بل هي أفضل فكرة، أنا بعيد عن الشبهات، لكن صديقك أحمد تحت المنظار الآن، لا أحد يعرف علاقتي بكما، ولا يعرف أحد أنها عندي».

ـ«ماذا إن قطع طريقك لجنة مرور أو مباحث؟»

ـ«إنها ابنتي المنتقبة وأوصلها إلى خالتها في القاهرة، يمكنني التعامل معهم لا تقلق». لم ترق لي الفكرة «الساعة التاسعة مساءً انتظرني عند الطريق الدائري، في المكان الذي سأخبرك به غدًا، وستكون أم عيالك عندك سالمة إن شاء الله».

ـ«ما رأيك يا تسنيم؟»

ـ«ما باليد حيلة، هذا هو الحل الوحيد».

بعد صلاة الصبح؛ ودعت تسنيم مؤقتًا، وسلمت على الحاج علي وشكرته، وشكرت أم البنات، لا يوجد ما يمكن أن أجازيهم به عما قدماه لي ولزوجي وأبنائي.

بعد صلاة العصر، خرجت تسنيم مع عم علي، تضع عليها ثوبها الفضفاض الذي يخفي تحته جسدها ووجهها، ركبا (توك توك)، وذهب بها إلى جراج عامر مسعود، تركها بالخارج، ودخل ليأخذ السيارة، خرج بها من الجراج، وساعد تسنيم في ركوب السيارة، قابله أحد السائقين في طريق دخوله إلى الجراج ليأخذ سيارته، سأله زميله السائق عيد عن من تكون معه، فقال انها ابنته، وانطلق بتسنيم، ظل السائق عيد ينظر إلى السيارة برهة، قبل أن يدخل ويسأل مدير الجراج، عن هوية الفتاة المنتقبة التي مع الأسطى عليّ، لكن مدير الجراج نهره وطلب أن يكف فضوله عن الناس، لكن رأسه لم يتوقف عن التفكير، زوجه حدثته كثيرًا عن الضيفة الغريبة التي لدى الأسطى عليَّ، والتي يقولون إنها قريبتهم من البلد، لكنها لا تظهر أمامهم أبدًا، وفجأة ظهر لها ثلاثة أبناء، ودائمًا ما تتشح بالسواد، جمع كل تلك الأفكار مع ما رآه في التلفاز وكون نظرية، استل هاتفه المحمول غير الذكي، وطلب رقمًا، بعد قليل جاءه رد، فبادر بالحديث:

ـ «ألو يا محمود بيه، وجدت ما كنت تبحث عنه».

الساعة تخطت التاسعة والنصف، مر الأسطى عليّ من بوابة القاهرة، وزاد من سرعته حتى يلحق موعده مع أسامة الذي تأخر عنه، فالحمولة على السيارة

أبطأت من سرعته في الطريق، وبعد حوالي ثلاثة كيلومترات، وقبل صعوده الطريق الدائري، وجد لجنة تقطع الطريق.

ـ «رخصك». أعطى الضابط رخصتي القيادة والسيارة.

ـ «أين تذهب؟»

ـ «بني سويف».

ـ «وهل تحمل معك ركاب؟»

ـ «لا هذه ابنة أخت زوجتي أوصلها لخالتها في السبتية».

ـ «أعطني بطاقتك وبطاقتها».

ـ«ها هي بطاقتي، وهي تجدد بطاقتها لكن معها باسبور».

أخذ الأوراق يتفحصها.

ـ«اكشفي عن وجهك».

نظرت لعم عليّ، فأومأ لها أن تفعل، رفعت نقابها، نظر لها وللجواز، ثم تنحى جانبًا، أخرج هاتفًا وأجرى اتصالًا، ينظر للأوراق ولها ويتحدث، ثم عاد:

ـ «اركن السيارة على اليمين وانزل»

امتثل الرجل للأمر، بعد قليل جاء أمين شرطة وطلب من تسنيم النزول، امتثلت هي الأخرى، رن هاتفها نظرت إلى الشاشة وجدته زوجها، كتمت الصوت، رأتهم يقتادون عم عليّ، ويضعون الأصفاد في يديه، ثم أتى الضابط لها، وأمرها أن تأتي معه، كانت هناك سيارة (بوكس) حديثة، فتح بابها الخلفي:

ـ «اصعدي إلى السيارة».

ـ «لماذا؟»

ـ «فقط اصعدي دون كلام».

ـ «أنا لا أفهم شيئًا».

ـ «أريني أجنحتك يا بنت».

ـ «بنت!»

ـ «هذا هو ما ضايقك؟ بنت؟» سخر «أخرجي أجنحتك يا ست هانم». صرخ فيها بصوت مفتعل.

لم يكن هناك من داع للتظاهر، رفعت الرداء فوق كتفيها، ظهر جناحاها، صاح أحدهم:

ـ «يا الله».

وأخرجواْ جميعًا هواتفهم لتصويرها، لكنها أرادت أن تعطيهم ما هو أكثر من ذلك، خفقت جناحيها، فتراجع الجميع إلى الوراء، زادت من خفقانها -وهي تتألم- وبدأت ترتقي إلى الأعلى.

ـ «إذًا ما يقولونه صحيح» قال الضابط «هذا يكفي يا امرأة، انزلي».

لكن هيهات، راحت ترتفع وانطلقت للأمام مبتعدة، لكن جناحها المجروح خذلها فسقطت، هرعواْ إليها، فعادت ترتفع، تطير بضعة عشرات من الأمتار وتهبط، وظلت هكذا وهم يطاردونها، هي أشبه بقفزات طويلة منها للطيران،

أدركواْ أنهم لن يستطيعواْ اللحاق بها على أقدامهم، فعادواْ يركبون السيارة:

ـ«لا تتوقفي يا ابنتي» صاح عم علي، فلطمه أحدهم.

عندما بدأواْ يتحركون بالسيارة، كانت فوق الطريق الدائري، وقبل أن يصعدواْ إلى الطريق، حطت فوق مقطورة نقل كبيرة منطلقة بسرعة جنونية، لم يلحظواْ أين حطت، واختفت عن عيونهم، اتصلت بي، وأخبرتها بمكاني حتى تقابلني، لنسرع إلى المطار.

***

رن جرس باب بيت الأسطى علي، رنات عصبية لحوح، فتحت الأم فزعة، وكان الزائر مخبر مباحث، يخبرهم أن الأسطى عليّ مقبوض عليه، ويطلب أن تذهب إليه ابنته هالة –تحديداً– بملابس وطعام، لم تفهم الأم واعترضت، لكنه أصر، استسلمت على شرط أن تذهب مع ابنتها المرتعبة.

وصلتا قسم العامرية بعد الساعة الواحدة بقليل، تركواْ الأم في الأسفل، وصعدواْ بالبنت إلى مكتب معاون المباحث، استأذن المخبر بالدخول فسُمِح له، لما دَخَلَت، سمعت من يقول:

ـ «هالة».

كان هذا أباها، ويظهر على وجهه آثار ضرب.

ـ «بابا، ماذا حدث؟»

ـ «لا دخل لها بشيء يا باشا، اتركوها».

ـ «الآن ابنتك بين يدينا، إذا أردت لها المهانة فلا تتكلم» وأشعل سيجارة بطريقة درامية ثم استأنف «ها، قل لي أين ذهبا؟»

نظر الأب لابنته، وإلى معاون المباحث، وإلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم أطرق إلى الأرض يراقب دمعة انحدرت، تركت وجنته، سقطت على البساط الفاخر، وراحت تتسع أمام ناظريه.

*****

أمنا روسيا

فتح البراء آخر رسالة لم يكن قد قرأها بعد، من الرسائل المتبادلة بين دكتور وديع ودكتور (أوليگ بوسلاڤ).

«عزيزي الدكتور معزوز،

أعتذر لك عن عدم سماعك مني في الأيام الماضية، لكن كان ذلك خارج عن إرادتي، كما ستعرف في السطور التالية.

كنت في مؤتمر طبي في كرواتيا، وقد قابلت صديقًا لي يعمل هناك، وجَرَّنَا الحديث عن مركز الأبحاث العسكرية الروسي في البوسنة فترة التسعينات، وقصصت عليه قصة المرأة التي أجرواْ عليها التجارب من بين الكثير من الفتيات، فأخبرني أنه عمل فترة مع ممرضة روسية، كانت تعمل في المشفى الملحقة بمركز الأبحاث، وقد حكت له بعض ما شاهدته، طلبت منه أن أقابلها، لكنه أخبرني أنها متقاعدة الآن واستقرت هنا في كرواتيا، ولكن سيحاول العثور عن عنوانها إن أردت.

قبل نهاية المؤتمر بيوم واحد، قابلته وأعطاني اسمها والعنوان، اسمها (روستسلانا فوفنا جربينا)، وقال لي إن ذلك الموضوع بالنسبة لها ماضٍ أليم لا تحب تذكره.

لكن الفضول غلبني، وذهبت إلى العنوان المذكور، بيت ريفي قديم، بعيد عن العمران على أطراف مدينة (براتيسلاڤا)، طرقت الباب، وبعد برهة فتحت لي امرأة دردبيس محنية الظهر، شعرها ناصع البياض، وبشرتها باهتة، عرفتها بنفسي وطلبت منها أن أتحدث معها قليلًا، لم تكن تريد أن تتكلم، لكنها في النهاية، قالت بعض المعلومات عن سياسة (غلاسنوست) التي أطلقها (ميخائيل جورباتشوف)، وكيف أنه لضمان تطور الجنس السلافي، عليهم أن يجرواْ تجارب على من هم أدنى مرتبة منهم في التطور، وكان البوشتاق معينًا لا ينضب من فئران التجارب، وتحدثت عن طبيب ياباني من جامعة أوساكا، يستخدم تكنولوجيا جينية معينة، فهمت من السياق أنها تتحدث عن (كريسبر كاس ٩)، ثم رفضت أن تفصح عن المزيد، لكنها فقط أضافت أنها كانت تفعل كل ذلك من أجل مصلحة (أمنا روسيا).

في اليوم الأخير للمؤتمر جاءني رجل عرف نفسه على أنه (يوسيب بركوڤيتش) ضابط في المخابرات العسكرية الكرواتية، وطلب مني أن أصحبه، سألته: إلى أين؟ فقا:ل إني لن أتأخر، مجرد إجراء روتيني. قادني في سيارته إلى مكتب في بناية في وسط العاصمة (زغرب)، المكان أشبه بشركة منه إلى مقر أمني، أدخلوني غرفة بها منضدة وكرسيان ولا شيء آخر، بقيت هنالك حوالي ساعتين، ثم دخل رجل قصير القامة، يلبس نظارة شمسية سوداء، وجلس أمامي، وسألني عن سر زيارتي للممرضة (جربينا)، لم أكذب وشرحت له كل

شيء، ولكني كذبت بشأن مصدر المعلومات، والتي قلت أنني حصلت عليها من (ويكيليكس)، فضحك وأخرج لي ورقًا مطبوعًا عليه رسائلنا المتبادلة عن حالة السيدة المدني، فأنكرت كل شيء وطلبت مكالمة السفارة الألمانية.

تركوني في تلك الغرفة حتى الصباح، ومع شروق الشمس، قدمواْ لي طعامًا لأول مرة، وقهوة وبعض (البراندي)، وتغيرت المعاملة، بعد أن فرغت من الطعام -كنت أتضور جوعًا- دخل رجل آخر، شاب طويل القامة، وقال لي إن السفارة الألمانية أجرت اتصالاتها، ودبرت خروجي من هنا، نظرًا لأني طبيب يعمل على أرضها، وفي طريق خروجي قال لي:

«دكتور (بوسلاف)، تلك أرض مستنقعات مخادعة، لا تعد للخوض فيها ثانية، اليوم السفارة أخرجتك، لا ندري ما قد يحدث غدًا».

أومأت برأسي وخرجت، وها أنا قد عدت إلى ألمانيا، لا تظن أن ما حدث سيغير شيئًا، وقد أعطتني المرأة أكثر مما كنت أحتاج إليه، للأسف تقنية (كريسبر) لا يمكن عكسها، وهي تؤثر فقط في الأجيال القادمة، ويمكننا أن نحتاط لذلك، نمنع امتداد التأثير لذريتها المقبلة، لدينا هنا في مشفى (دوسلدورف) فريق متخصص في تلك التقنية، وقد علمت منهم الكثير، لا زلت عند اتفاقنا بمساعدة الفتاة، وأنا في انتظارها هي وزوجها.

أعتذر عن الإطالة، وأتمنى أن أراك قريبًا في صحة وعافية.

صديقك المخلص

دكتور أوليگ بوسلاف

خافقان

كان دخولنا المطار؛ أشبه بدخول الجحيم بمحض إرادتنا، خطواتنا زنتها أطنان، تركنا قلوبنا في مصر، حيث تركنا أبناءنا الثلاث، وصلنا إلى نقطة التفتيش الأولى، وضعنا حقائبنا على سير أشعة (إكس) ومررنا بسلام إلى صالة الجوازات المتسعة، وقعت عينا تسنيم على جهاز تغليف الحقائب فقالت:

ـ«غلف لي الحقائب؛ حتى لا تتمزق من رمي العمال لها».

هممت أن أقول ليس هذا وقته، لكني ارتأيت أن ألطف الجو، بأن تسير الأمور بشكل طبيعي، كأننا ذاهبان في إجازة، غلفتها وتقاضى الرجل مبلغًا باهظًا، ثم اتجهنا إلى (كاونتر) شركة الطيران، تَزِنُ موظفة شركة الطيران الحقائب:

ـ«أرجو أن تجعلي مقعدينا بجانب النافذة».

أنهت الإجراءات وتمنت لنا رحلة سعيدة، ثم جاءت لحظة الحقيقة؛ المرور من الجوازات، في الحقيقة تبدو على محيانا الريبة، وسيشك في أمرنا أي ضابط جوازات، فتسنيم ترتدي لباسًا أسود فضفاضًا جدًّا لا يتناسب مع حجم جسدها، وأنا متوتر طوال الوقت وأتعرق بغزارة، ربما أسماؤنا على قائمة الممنوعين من السفر، ولابد أنه تم وضع صورنا على أجهزة مطارات الجمهورية، جوازاتنا مزيفة ولا نعرف هل ينطلي التزييف على ضابط الجوازات أم لا، هل سينظر لصورنا؟ هل سيرتاب في هيئتنا؟ أسئلة كثيرة دارت في رأسي،

جعلتني أهم بالتراجع لكن قدميَّ خدعتني، ووجدت نفسي واقفًا أمام ضابط الجوازات، وخلفي تسنيم تحتمي بي، أعطيته جوازي سفرنا، فالتقطه دون النظر إليَّ، تفحص الجواز الأول ونظر إليَّ، ثم أغلقه ونظر لجواز تسنيم ونظر لها وأغلقه، ثم عاد لجوازي ثانية ونظر إليَّ يسألني:

ـ «ما الغرض من الذهاب إلى برلين؟»

دائمًا عندما يسألني ضابط الجوازات هذا السؤال، أتخيل نفسي أرد عليه بحزم:

ـ «وما شأنك أنت؟ أنا ذاهب وكفى».

ـ «للعلاج». أجبته.

قلب صفحات الجواز:

ـ «أين (الڤيزا)؟»

ـ «إنها (ڤيزا) إلكترونية». وأعطيته الورقة المطبوعة.

أخذها ووضع رمز الإستجابة السريع (كيو-آر-كود) على الماسح الإلكتروني، وانتظرت سماع صوت الصافرة، فلم يحدث، أخذ يبسط الورق بيديه:

ـ «أكان ينبغي أن تطبق الورقة عشرين مرة؟» قال بنفاد صبر.

وبعد عدة محاولات انطلق صوت (البيب)، ونظر إلى الشاشة لفترة، ثم أخذ الجواز، ووضعه تحت الماسح الذي يصدر أشعة ليزر خضراء، حتى سمعت صوت الصافرة القصير الذي يدل على ... لا أعلم على وجه الحقيقة على ماذا

يدل، حتى ظننت أنه سيتذوق التأشيرة بلسانه، ثم فعل المثل بجواز تسنيم، ثم عاد ليسألني:

ـ«كم المبلغ المثبت على الجواز؟»

ـ«ألف وخمسمائة دولار».

كان يشعر بأهمية مبالغ فيها مما دفعه ليسألني:

ـ«أليس من الغريب أن تزور ألمانيا في الشتاء؟»

وهنا كان قد بلغ السيل الزبى فرددت متذمراً:

ـ «سيدي الفاضل، واضح أمامك أنها تأشيرة علاج للمدام، ومعي تصريح وزارة الصحة إذا أردت أن تر..."

ـ «توصل بالسلامة».

قالها بحزم قاطعًا كلامي، مادًا يده بالجوازين، غير مصدق أننا مررنا من هذا الكابوس، أخذت الجوازين، سرنا في ممرات لا نهاية لها، مزيد من التفتيش وخلع الأحذية والأحزمة، والمرور والعودة عدة مرات من جهاز كشف المعادن، حتى يرضى عنا ويكف عن تذمره، ثم نفذنا إلى صالة المغادرة، وقد كانت أغلب المقاعد محتلة، وجدنا مقعدًا في المؤخرة، أجلستها نلتقط أنفاسنا لا من عناء جسدي، بل من زوال حمل نفسي ثقيل من على كاهلنا، وإن كنا لا زلنا لم نتجاوز الخطر بعد:

ـ«هل سنصل إلى هناك؟ ونعيش في أمان؟»

سألتني تسنيم ناظرة إلى تلتمس في عيني الطمأنينة، شعور لم تمنحها الحياة منه شيئًا مذ بدأت محنتنا، ظننت في البداية أنه لا إجابة لدي لهذا السؤال، وضعت يدي على يدها -وكانت باردة- وضغطت عليها حتى انتقل دفء يدي إليها، ثم قلت مقالة الواثق:

ـ «نعم، سوف نصل، بالتأكيد، لقد مر الأصعب وما بقي إلا خطوة؟»

ابتسمت وهي لم تشح بناظريها عن عيني:

ـ«إن شاء الله». تذكرني بها فرددت:

ـ«إن شاء الله».

دقائق ثقيلة قضيناها في ذكر ودعاء يشوبه قلق حَذَرَ الموت، خفق قلبي بشدة لسماع صوت مضيفة الطيران تنادي على المسافرين ليتقدمواْ إلى البوابة، تزاحم المسافرون على البوابة كلٌ يحاول المرور أولًا كعادتهم التي لا أدري لها سببًا، نظرت إلى تسنيم، وكانت لاتزال يدي في يدها، وجهها شاحب لا حياة فيه، حتى ظننتها التحقت بركب الموتى، طرقت بكفي طرقتين على يدها مطمئنا، ومسحت بالأخرى على ظهرها -مصطدمًا بجناحها- أحثها على النهوض، تقدمنا يبطئ حركتنا، الصف الطويل، وإن كانت أقدامنا تخذلنا أكثر من خذلان الصف لنا، حتى وصلنا إلى مضيفة الطيران، نظرت إلى أرقام مقاعدنا وجوازينا، ثم ابتسمت وقالت:

ـ«أتمنى لكما رحلة آمنة».

سرنا في الأنبوب المفضي إلى باب الطائرة، حيث تلقفتنا مضيفة أخرى أرشدتنا إلى مكان جلوسنا، كانت المقاعد بجانب النافذة، كما طلبت، دقائق ثقال مرت، لازلت ممسكًا بيد تسنيم، نظري معلق على المضيفة التي تنتظر بجانب الهاتف؛ لتأخذ الإذن من مدير المحطة بإغلاق باب الطائرة، ولا أعلم هل طالت المدة أكثر من اللازم، أم أنه الترقب يلعب لعبته مع العقل، لقد ذهلت عن كل ما حولي ونسيت أن أربط حزام مقعدي، بل حتى نسيت أن أهتم بتسنيم التي تسافر أول مرة، والتي يرهقها حمل جناحيها تحت اللباس الثقيل، وأرهقها التوجس خيفة، وأجفلت عندما طلبت مني إحدى المضيفات -مقتربة من وجهي- ربط حزام مقعدي، ففعلت وأنا لم أصرف بصري عن مضيفة البوابة، حتى رن جرس الهاتف، ترى أيكون الإذن بإغلاق الباب، أم التي أكره؟ بعد بضع كلمات أغلقت الهاتف واتجهت إلى الباب تغلقه، هنا تنفست الصعداء، ونظرت لتسنيم فوجدتها لا تزال متوجسة، رَبَّتُ على كفها وقلت:

ـ «اطمئني فقد أُغلق الباب».

هزت رأسها دون رد وشفتاها تتمتمان بالدعاء، وبعد دقائق سمعنا صوت الطيار يحيينا ويتمنى لنا رحلة سعيدة، ويخبرنا أنه تلقى الإذن بالطيران، وبدأت الطائرة بالابتعاد عن صالة المغادرة، وسارت ببطء حتى اعتدلت على مسار الإقلاع، وبدأت تتحرك، وانتظرت اللحظة التي تتوقف عندها لثوان، ثم تنطلق بسرعة الإقلاع القصوى، وفعلًا بدأت التحرك بسرعة وتزداد سرعتها،

فنظرت إلى تسنيم مبتهجًا فوجدتها مبتسمة هي الأخرى، ولاحظت تحرك جناحيها تحت ثيابها دليلًا على فرحها، نظرت لي وقالت لي:

ـ «لم يكن ذلك سهلاً».

مرت بمخيلتي ذكرى أيام أليمة، لم نتذوق فيها طعم الهناء يومًا، فأمنت على كلامها:

ـ «لا، لم يكن سهلًا أبداً».

وبعد ثوان، وبدلًا من أن تزيد الطائرة سرعتها، كما هو متوقع، وجدتها تبطئ سرعتها، حتى توقفت، ثم دارت لتعود أدراجها باتجاه صالات المغادرة، التوجس يجتاح قلبي، وتساءل الجميع ماذا يحدث، وجاء صوت كابتن الطائرة: «نعتذر عن تأجيل موعد الإطلاق لبضع دقائق، نظرًا لطلب سلطات مطار القاهرة عودة الطائرة، وتُستأنف الرحلة بمجرد انتهاء الإجراءات، وأرجو من الجميع التزام أماكنهم وعدم فك الأحزمة، شكرًا جزيلًا لصبركم».

عند اقتراب الطائرة من الصالة، قالت تسنيم بهلع:

ـ «انظر يا أسامة».

نظرت من النافذة فرأيت أضواء سيارات شرطة متوقفة قرب الصالة، وتوقفت الطائرة قبل الصالة بمسافة قريبة، ثم رأيت السلم المتحرك يقترب من الطائرة، وبعد توقفها، فتحت المضيفة الباب، بضع رجال من الشرطة صعدواْ على السلم، ضابطين برتبتي ملازم ونقيب وثلاث جنود، خرج الكابتن من

مقصورته ووقف يستقبلهم عند الباب، استأذن الضابط للصعود إلى متن الطائرة، أذن لهم وتوزع المضيفون داخل كابينة الطائرة، وبدأ يتحرك، ركب الخمسة رجال بين المقاعد، يتفحصون الوجوه، لم يتفرقواْ داخل الكابينة -كما هو المتوقع- ولكنهم ساروا جميعًا في صف طويل خلف بعضهم البعض، يؤرجحون رؤوسهم يمنة ويسرة، ومع اقترابهم تجاهنا بدأ يزداد خفقان قلبي، حتى علا فوق خفقانه صوت ترتيل القرآن المتعجل على لسان طائري المسكين، أبطأ خطواته بقربنا، وركز نظراته عليَّ فأيقنت الهلاك، حتى إذا اقترب نحى وجهه جانبًا وتخطاني، زفرت زفرة ارتياح، نظرت مبتسمًا إلى تسنيم المرتجفة وطمأنتها:

ـ «هم فقط يبحثون عن شخص ما مطلوب». أخبرتها، فحمدت الله واستطردت: «غَيْرَنَا».

ضحكنا ضحكة خفيضة، قطعها صوت أتى من خلفي:

ـ «أستاذ أسامة المدني؟»

جَمدتُ في مكاني، أدرت رأسي تجاه السائل، فإذا هو النقيب وخلفه الملازم وبقية الجيش، ينظرون جميعًا إلينا نظرة وعيد غير مبررة، وأنظار الجميع من مضيفات وركاب مصوبة نحونا، ما بين مشفق علينا، وخائف منا، ومتأفف من تعطيلنا لرحلته، ولسان حاله يقول: «ما بال المجرمين لا يحترمون مصالح العباد ويؤخرون رحلات الطيران؟» كل ذلك رأيته في لمح بصر، ثم عاد بصري إلى النقيب الذي لايزال ينتظر مني إجابة، فابتلعت ريقي وأجبته:

ـ «نعم، أنا».

قلبان

ـ«والآن أرحب بكل من لديه تساؤل». أعلن البراء عقب كلمته في ندوة إطلاق كتابه.

رفع الكثير أياديهم، فوقع اختياره على فتاة تجلس في صف متأخر، فوقفت متحدثة:

ـ «نهار مؤيد، صحفية بموقع روافد العلوم» عرفت نفسها: «هل ظهرت تأثيرات مشابهة على أي من إخوة تسنيم؟»

ابتسم البراء وقال:

ـ «شكرًا لك أستاذة نهار، ليس على حد علمي، لم أعلم أن أحدًا من إخوتها ظهرت عليه هذه الأعراض».

شكرته وجلست، ظهر بحر الأيدي المرفوعة ثانية، فاختار شابًا حديث السن، يبدو متحمسًا للغاية، فوقف مبتسمًا كأنما فاز برحلة للصعود إلى المريخ وانطلق يقول:

ـ « وصفت في كتابك، آخر مرة شوهد فيها أسامة وتسنيم، وقد ذكرت أنه لم يكن في مذكرات أسامة المدني، فمن أين أتيت بهذه الرواية؟»

اتسعت حدقتا البراء ونظر للأعلى متذكرًا.

***

لم يطق البراء صبرًا حتى يسمع ما لدى عم ربيع، فقد أثار فضوله كلامه هذا الصباح حين مر عليه كعادته، وهنأه الشيخ بنجاح سلسلة مقالاته، لكنه لمح إلى أنه يعرف شيئًا لا يوجد في المذكرات، لم يفهم البراء كلمات عم ربيع الملغزة، فضرب معه موعدًا للدردشة بعد العمل، وما إن انتهى العمل حتى هب إليه مسرعاً:

ـ «ها أنا جئتك يا أبا خالد، قل لي ماذا تعرف».

دفع عم ربيع بكرسي خشبي صغير، ليجلس البراء عليه وجلس هو على آخر، وقد أمسك كل منهما بكوب شاي صغير:

ـ «أنا مثل الكثيرين، قرأت عن الموضوع في صغري؛ في مواقع التواصل الاجتماعي والمجلات، وربما بعض القنوات الفضائية، ولكني لم أصدقه أبدًا مثلما لم يصدقه الكثير».

ارتشف رشفة من الشاي، تبعها بصمت قصير، ولم يزد البراء عليه سوى بصوت رشفة أخرى، فاستأنف:

ـ«فكيف يصدق العقل أن امرأة بشرية تطير؟ هذا أشبه بأفلام هوليوود»؟!

فقاطعه البراء:

ـ «ولكن هناك تحولًا في الأحداث جعلك تصدق».

ـ «نعم». أمّن عم ربيع على كلامه: «كنت وقتها في الخامسة عشرة من عمري، وكنت محظوظًا بأن يأخذني أبي في رحلة عمرة مع أمي، كان السفر من مطار

القاهرة، وبينما نحن جلوس في صالة الانتظار، إذ حدثت جلبة في المطار، ورأينا أناسًا يسارعون باتجاه الزجاج المشرف على مرابض الطائرات، فقام والدي يجري خلفهم، وركضت بدوري خلفه، كان الزحام على الزجاج شديدًا، فحاول والدي أن يخترق الحشد يستجلي الأمر، ولم أستطع أن أخترق الجموع، فصعدت فوق أحد المقاعد، وتبينت المشهد بصعوبة، طائرة رابضة يلقي عليها الفجر رداءه الأزرق، تحيط بها سيارات الشرطة ومتصل بها السلم النقال، بابها مفتوح، ورجال أمن ينتظرون في الأسفل، والناس يتهامسون عن القبض عن فارين، بعد دقائق رأينا ضابطًا يخرج من الطائرة هابطًا الدرج وخلفه يخرج عسكري ممسكًا بذراع رجل مطأطئ رأسه، ثم تبعه آخر يمسك بامرأة شابة ترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا، وخلف الجميع ضابط آخر وعسكري، وما إن نزلواْ جميعًا، حتى اتجه ناحيتهم مزيد من رجال الشرطة بزيهم الأسود، ووضعواْ الأصفاد في أيديهما، بدأواْ بالرجل ووضعواْ الأصفاد في يده اليمنى، وبينما هم يضعون الأصفاد في يد المرأة، أمسك الرجل يديها بقوة آلمتها فصرخت وجذبت يدها فصفعها، فصاحت ولم أسمع ماذا قالت، فانطلق الرجل مسرعًا نحوها، غير عابئ بالأصفاد في يده، جذبه العسكري فضربه بكوعه بشدة في وجهه، أتي جندي آخر وضرب الرجل بكعب بندقيته على رأسه، سقط أرضًا يمسك برأسه، صرخت المرأة وركضت ناحيته، فاجتمعواْ حولها يجذبونها، وحملواْ الرجل من ذراعيه، يجرونه باتجاه إحدى السيارات،

وجذبواْ المرأة باتجاه سيارة أخرى، ثم رأيت عجبًا، تحرك شيء تحت ثوب المرأة وازداد حجمه، حتى انفرطت أزرار ثوبها بالكامل من الأمام، ونزع الرداء عن جسدها ليكشف عن جناحين! راحت تخفق بشدة وتضرب رجال الشرطة المحيطين بها، أصابهم الهلع واستنفرواْ استنفار حُمُر من قسورة، ومع ازدياد الخفقان؛ ثارت الرمال، أغلقواْ أعينهم، وبين الصراخ والهلع، انتفض الرجل ودفع عنه آسريه، واتجه نحو المرأة المجنحة، ولكن عرقله أحدهم فسقط أرضًا، وفي نفس الوقت أخرج ضابط سلاحه وأطلق طلقة تجاه المرأة، لم تصبها، فأطلق أخرى أصابت طرف جناحها، فسالت منه بضع قطرات دماء، ومع ازدياد الخفقان بدأت المرأة ترتفع قليلًا في الهواء، وهنا صاح الجميع حماسة في صالة المطار، إذ إنه حتى الآن يظن الجميع أنه تصوير مشهد من فيلم، حطت ثانية على الأرض، اتجهت ناحية الرجل، لم يعترضها أحد فالجميع مرتعب، انحنت عليه تفحصه، ولما حاولواْ الإحاطة بها، صرخت فيهم بكلام لم أسمعه، ثم أحاطت صدره بذراعيها من ظهره، وبسرعة خاطفة انتزعته من على الأرض وحلقت به إلى الأعلى، وكان لثقله أثر على خفقانها الذي كان بطيئًا متحاملًا، حتى استطاعت أن ترتفع لبضعة أمتار، جناحها الأيسر ينزف من منبته عند الكتف، وجرح الرصاص في طرف جناحها الأيمن، فترت قوتها وبدا أنها ستسقط، لكنها ظلت ترفرف، حتى قوي خفقانها، زادت سرعتها وطارت للأعلى، حلقت مبتعدة في اتجاه مدارج الطيران، سمعنا أصوات

إطلاق نار عشوائي يطلقه رجال الشرطة نحوهما، صرَخَت هلعًا، وظلت تناور يمنة ويسرة، لأعلى وأسفل، وإطلاق الرصاص مستمر، ثم صرخ زوجها، ورأيت بنطاله الجينز يتمزق من عند ساقه اليمنى، تتطاير من ساقه رذاذ دم في الهواء تحمله الريح، ولكنها لم تتوقف ولم تهبط وطارت مبتعدة، توقف إطلاق النار، أصبحت المرأة أضعف، وبدأت تهبط نحو الأرض، اتجه الجند نحوها، ربما شعر زوجها أنه يعيقها عن الانطلاق في الفضاء، فوضع يديه على يديها، ربت عليهما، ثم فتحهما عنوة وهي تقاوم رغبته وتبكي، سقط أرضًا وقد انكسرت ساقه، واجتمع عليه القوم يأسرونه، راح يصرخ فيها أن تبتعد، آثرت أن تبقى معه، لكنه أشار لها ألا تعود، صعدت إلى السماء، وابتعدت رويدًا رويدًا، وراحت تصغر حتى اختفت عن الأبصار، ولكن ذكراها لم تختفِ عن عقول من رأوها أبدًا.

ـ «لا، لم أسمع عن هذه الحادثة يومًا، ولم يذكرها أبي».

هكذا عقّب نادر على رواية عم ربيع، التي رواها له البراء، في الحديقة الأمامية الصغيرة لمنزله في القاهرة، كان نادر يرعى نباتاته، حين قص عليه البراء القصة:

ـ «إذًا أين كان جدك وجدتك طوال فترة طويلة لم يسمع عنهما أحد؟»

ـ «كانا يعيشان كزوجين بعيدًا عن الصخب في هدوء، ولم يكونا مميزين حتى يعلم الناس بوجودهما».

ـ «ولكن ذلك لا يمنع أن تكون الرواية حقيقية».

ـ «لا». أجفل البراء لحدته، ثم استطرد بنبرة أقل: «طبعًا ليست حقيقية، لأنه لا يمكن أبدًا أن يوجد إنسان بجناحين، كلها روايات خرافية سادت مواقع التواصل الاجتماعي، ليشغلواْ بها عقول الناس».

ـ «ولماذا جدك بالذات من يشغلون عقولهم بتفاهاته؟»

ـ «نظرًا لرواية أم جدتي، التي قالت فيها إنه قتلها، وبالفعل قبض عليه في المطار وهو يحاول أن يهرب خارج البلاد، حُجز بضعة أشهر على ذمة القضية، ثم ظهرت جدتي تبرئ ساحته، وتعلن أنها كانت مختبئة عند صديقة لها، فتكونت تلك الخرافات حولها».

صمتا قليلًا يخففان احتقان الحوار، ثم سأل البراء بعد أن التقط أنفاسه:

ـ «وماذا عن شاهد العيان؟»

ابتسم نادر هازئاً:

ـ «من؟ بائع الجرائد؟ تأخذ شهادة هَرِم تخطى الثمانين من عمره، يحكي حكاية مضى عليها أكثر من ستين عامًا، أين عقلك يا رجل؟ هو فقط يسعى للشهرة، فاختلق تلك الحكاية».

ـ «إذًا أنت تقول إن كل ما كتبته، هو محض خيال».

ـ «بل محض هراء».

ـ «ربما يجب عليّ عنونة سلسلة مقالاتي (هراء البراء)».

ـ «هون على نفسك يا صديقي، فأنت قلت لي إن في مهنة الصحافة ليس كل ما يُكتب حقيقة».

ـ «نعم معك حق، لقد طاردت وهماً».

ـ «لا بأس يا أخي، فإخفاق واحد لا يعني النهاية»

ـ «صحيح، لكني سأكتفي بما كتبته، ولن أكمل المقالات وأعتذر للقراء عن نشر أخبار غير محققة».

ـ «ولكن ذلك قد يعني دمار حياتك المهنية».

ـ «وإن كان فيها نهاية مستقبلي المهني فلا بأس، فهذا خير من أن أخسر المصداقية للأبد، وسألغي مشروع الكتاب، فلم يعد ذا معنى».

ـ «هذا شأنك».

ـ «شرفني التعرف بك يا أستاذ نادر».

ومد يده مصافحاً:

ـ «ويسرني أن نكون أصدقاء يا أستاذ براء».

ـ «شكرًا لوقتك ورحابة صدرك يا نادر».

وافترقت يداهما، والتفت البراء منصرفًا، ولما اقترب من البوابة، تذكر شيئًا أراد أن يسأل عنه نادر فالتفت مسرعاً:

ـ «يا نادر أرغب في أن ...»

ولكن لم يجده واقفًا مكانه في الحديقة، فراح يبحث عنه بعينيه، ناداه:

ـ «أستاذ نادر».

ـ «نعم يا براء».

رفع البراء بصره إلى الأعلى، فوجده فوق سطح الفيلا عاكفًا على فحص شيء ما على سطح البناء، ضيق حدقتيه متعجباً:

ـ «ماذا تفعل بالأعلى؟»

ـ «رأيت شقًا في القرميد، فصعدت لأفحصه». ثم اعتدل واقفًا وسأل: «هل كنت تريد شيئًا؟»

صمت البراء قليلًا ثم قال:

ـ «نسيت». وقبل أن يلتفت منصرفًا سأل: «كيف صعدت إلى الأعلى بتلك السرعة؟»

فأجاب نادر مسرعًا كأنما يتوقع السؤال:

ـ «أنا سريع الحركة».

ـ «لكني لم أغب عنك أكثر من خمس ثوان، كيف دخلت إلى المنزل، ثم صعدت الدرج ثم فتحت فتحة العالية، وصعدت إلى سطح القرميد في خمس ثوان؟»

فشد نادر كتفيه لأعلى واضعًا يديه في وسطه، وقال مبتسمًا: «أنا أمارس رياضة (الباركور) منذ صغري»، «باركور!» ردد البراء «رياضة القفز والجري السريع» قال نادر مفسرًا: «نعم أعرف ما هو الباركور» وقف البراء ينظر إليه قليلًا، لا يعرف ما يقول، ثم ودعه، والتفت وهو يردد بصوت خافت: «باركور، طبعاً».

خرج من الحديقة متجهًا إلى سيارته القابعة على الجانب الآخر من الشارع، ونظر داخل السيارة وقال: «هل تأخرت عليك؟»

ردت الشيماء من الداخل «لا أبدًا، تسليت بقليل من القراءة». فقال مبتسمًا: «وهل استمتع بالقراءة؟» ووجهه بصره إلى الأسفل، فمررت يدها على بطنها الممتلئة وقالت مبتسمة: «نعم، لقد عبر عن استمتاعه ببضع رفسات آلمتني».

ـ «ربما لا يحب ما قرأته له».

ـ «لابد أن يحبه فهو جزء من مقالك».

ـ «الآن عرفت لمَ يرفس». انطلقا ضاحكين، ثم سألته: «هل قُضي ما أتيت لأجله؟»

ـ«نعم إلى حد كبير، أفكر أن ألغي مشروع الكتاب».

ـ «لماذا؟» قالت في هلع.

ـ «ربما كنت مخطئًا من البداية» ثم نظر إلى الفيلا: «ولكني لم أحسم أمري بعد في موضوع الإلغاء هذا».

شعر بريح تأتي من أعلى، غشاه معها ظل كبير مسرع، نظر للأعلى فلم ير شيئًا، ركب السيارة «لربما كنت مخطئًا في قراري». نظر إلى القلبين القابعين على الكرسي بجانبه، ثم أخرج رأسه من نافذة السيارة ونظر إلى السماء:

ـ «ربما ليست فكرة سيئة، أن أمضي في كتابي للنهاية».

ابتسم في وجهها الحائر، أدار محرك سيارته، نظر إلى الأمام ومضى في طريقه.

الفؤاد
للنشر والتوزيع